



روايات جائزة نوبل

12

هاينريش بل

6.8.2017

ولم يقل كلمة



الدار المصرية اللبنانية ترجمة ياسين طه حافظ

ولم يقل كلمة

AND NEVER SAID A WORD

هاينرش بل

نوبل / 1972

ياسين طه حافظ

ترجمة



الدار المصرية اللبنانية

16 عبد الخالق ثروت تليفون: 23910250

فاكس: ٢3909618 - ص.ب 2022

E-mail: info@almasriah.com

www.almasriah.com

رقم الإيداع : 5825 / 1997

التسجيل الدولي : 2 - 360 - 270 - 977

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى : رمضان 1418هـ - يناير 1998 م

الطبعة الثانية : جمادى الأولى 1429هـ - يونيو 2008 م

1



بعد العمل ، مضيت إلى « البنك » لصرف ذلك الشيك . كان أمام المحاسب « طابور » طويل من الناس . انتظرت نصف ساعة حاملاً ذلك الشيك في يدي ، أخيراً رأيت المحاسب يمرره إلى فتاة ترتدى بلوزة صفراء . التفتت الفتاة إلى ملف بطاقات الحساب ، وجدت بطاقتي ، أعادت الشيك إلى المحاسب قائلة :

- « صحيح » .

عدت يدا المحاسب النظيفتان الأوراق النقدية على وجه الرحامة أمامه . أعدت أنا حسابها واتخذت طريقى للخروج . ذهبت إلى مائدة صغيرة إلى جانب الباب لأضع النقود في ظرف ، ولأكتب ملاحظة لزوجتى . كان على المائدة أوراق إيداع قرنفلية . أخذت واحدة وكتبت على ظهرها بالقلم الرصاص :

« يجب أن أراك غداً ، سأتصل قبل الثانية » .

وضعت الملاحظة في ظرف . . ترددت . . أخرجت النقود مرة أخرى . . سحبت قطعة فئة عشرة ماركات منه ووضعتها في جيب سترتى . أخرجت ورقة الملاحظة ثانية ، وأضفت إليها هذه الكلمات :

« احتفظتُ بعشرة ماركات لنفسى ، سأعيدها لكِ غداً . قَبْلِي الأطفال ... فريد » .

لكن الظرف لا يلتصق ، فذهبت إلى رفٍّ خالٍ مكتوب عليه إيداعات .
الفتاة وراء الزجاج ، نهضت ورفعت زجاج النافذة . كانت نحيلة ، ببشرة
سمراء ، ترتدى سترة قرنفلية اللون ، مشدودة عند العنق بوردة صناعية .

سألتها : « أيمكننى أن أحصل على قطعة شريط لاصق ؟ »

نظرت إلى لحظة وترددت ، ثم قَطَعَتْ شريطاً من لفَّةٍ لاصقٍ بُنِيَّة اللون ،
سلمته لى دون كلمة ، وأعدتْ إنزالَ الزجاج مرة ثانية ، فقلت ووجهى
لزجاج النافذة :
- « شكراً » .

عدت إلى المائدة . . ألصقت الظرف ، وأنزلت قَبْعَتِي على جبهتي ،
وغادرت « البنك » .

كانت السماء تمطر حين خرجت ، وفى الشارع بضع أوراق يابسة تنجرف
على الأسفلت . وقفت فى مدخل « البنك » ، أنتظر . . السيارة رقم (١٢)
تستدير على المنعطف ، قفزتُ فيها ومضيتُ إلى ميدان « توكوف » . كانت
السيارة مَلَأَى بالناس ، وملابسهم تقطر من البَلَل . كان المطر يزداد شدةً
حين قفزتُ نازلاً فى ميدان « توكوف » ولم أدفع ثمن التذكرة . اندفعت تحت
مظلة محل أكالات خفيفة ، تقدمتُ وطلبتُ سجقة مقلية وكوباً من مرق
البقر ، وطلبتُ عشر سجاير ، وصرفتُ الماركات العَشر .

تناولت قِصْمَةً من السجق . . نظرت فى المرأة التى احتلت كل حائط
الكشك . فى البداية ما عرفت نفسى ، وقد رأيت ذلك الوجه المضنى تحت

القُبْعَة الحائلة اللون ، وانتبهت فجأة إلى أنى أبدو مثل واحد من أولئك الباعة المتجولين الذين كانوا يأتون إلى باب أمى ولا يرحون . كان اليأس القاتم فى تلك الوجوه يشخص فى الضوء المعتم لواجهة الصالة . كنت أفتح لهم الباب وأنا إذا ذاك ولد صغير . وحين تحيى أمى - وقد كنت أدعوها بإلحاح وعينى على حاملة المعاطف - تحيى بأسرع ما تستطيع من المطبخ ، وهى تنشف يديها بصدريتها فيشع ضوء غريب على تلك الوجوه والأشكال اليائسة . كانوا يحاولون بيع كسر الصابون ، أو ملمع الأرضيات أو مقصات ، أو أربطة أحذية . . تلوح على تلك الوجوه الرمادية اليائسة سعادة لدى رؤية أمى . لكن لهذه السعادة شىء ما يكدرها . كانت امرأة طيبة ، فهى لا تطرد أحداً عن بابها ، تعطى الشحاذين خبزاً إن كنا نملك بعضاً منه ، ونقوداً إن كان لنا شىء .

تقدم لهم فى الأقل كوباً من القهوة ، وإذا لم يتبق لنا شىء فى الدار تقدم لهم ماءً بارداً فى قدح نظيف . كان حول جرس الباب زحمة إشارات ونداءات متسولين ، متاح لكل شحاذ فرصة طيبة لبيع شىء ، حتى لا يبقى فى البيت ما يكفى لشراء رباط حذاء . لا يشير الباعة ارتياب والدتى ، ولا تستطيع مقاومة أوجه أولئك المعذبين ، فتروح توقع للآخرين على أثمان أشياء تظل ديوناً عليها ، كما توقع لهم وثائق تأمين وكفالات . أتذكر وأنا ولد صغير أرقد فى فراشى فى الليل أننى كنت أسمع والدى يعود إلى البيت ، ولحظة يدخل غرفة الطعام ، يبدأ الشجار ، شجار مخيف لا تقول فيه والدتى كلمة واحدة . كانت امرأة هادئة . أحد الرجال اعتاد أن يأتى إلى مكاننا مرتدياً قُبْعَة حائلة اللون ، مثل هذه التى ألبسها الآن ، كان اسمه « ديتش » ، وكان كاهناً لم يجرّد من سلطته ، كما اكتشفت ذلك بعدئذ ، وكان يبيع كسر

الصابون . الآن ، وأنا أتناول السجق ، وهو ساخن جداً لدرجة أنه أحرق لثتي الحساسة ، اكتشفت في المرآة الممتدة على ظل الجدار أنني صرْتُ أبدو مثل ذلك الديتشي بقبعتي ووجهي المُجْهَد ، واليأس في عيني . لكنّ قريباً من وجهي في المرآة رأيتُ وُجوه رجال آخرين على المقاعد الأمامية وأفواهاً تنفتح واسعة لتلتهم سجقاً . رأيت لثاتٍ معتمة خلف أسنان صفراء يعلّقُ بها فُتاتٌ وردئٌ من لحم السجق ، يتساقط منها في تلك الفتحات السود . رأيت قبعات جيدة ورثة ، وشعوراً مبللة لآخرين بلا قبعات ، وذلك الوجه الوردى وجه النّادِلة التي تقدم على خدمتهم ، والتي تمضى بينهم وتعود . وفي ابتسامة بهيجة تصطاد بشوكة خشبية سجقة من بحيرة الزيت ، وتضع قليلاً من الخردل على صحن ورقى . هى أيضاً تُسَلِّم سجاير وعصير ليمون ، وتتناول بقوداً بتلك الأصابع الوردية . هذا . . والمطر لا يزال يهطل على سقف المحل .

في وجهي أيضاً أرى ذلك المشهد للشراة وأنا ألتهم السجق ، وحين أفتح فمي فيكشف عن بلعوم قاتم وراء أسنان مُصْفَرّة ، أرى ذلك المشهد فيفزعني بين وجوه الآخرين . رءوسنا كانت مسطرة مثل الدّمي . . وجوه تلوح خاوية في البخار الدافئ المتصاعد من المقلاة .

في نوبة اشمئزازي تلك ، اندفعتُ خارجاً مرة أخرى ، مسرعاً خلال المطر في شارع « موزار » . تحت مظلات المخازن وقف الناس منتظرين . وعند الوصول إلى ورشة « فاجنر » كان على شقّ طريقي عبر الزحام إلى الباب الذي فتحته بعسر ، واسترحتُ أخيراً حينما رحت أمشي نازلاً على درجات السلم ، وقد ارتفعت بعدها لتستقبلني رائحة الجلود . كانت هنالك رائحة أحذية عتيقة ، ورائحة جلود جديدة ، ورائحة شمع الإسكافي وكنت أسمع مكنة خياطة الجلود قديمة الطراز .

اجتزت امرأتين تنتظران على مصطبة ، فتحت الباب الزجاجي ، وسرني
أنى أرى زيارتي تجلب ابتسامة إلى وجه «فاجنر» . لقد عرفته مدة خمس
وثلاثين سنة .

اعتدنا العيش في الطابق الأعلى ، فوق محله الخالي ، في مكان ما في
العراء ، فوق السقف الأسمنتي لورشته . هنالك كنا نعيش . وأذكر أنى
حملتُ له يوماً نعلْى أُمى ولم أتجاوز حينها الخامسة . والآن ، مرة أخرى أرى
صورة المسيح المصلوب معلقة على الجدار وراء مقعده ، وإلى جانبها صورة
القديس كريستيان ، ذلك الإسكافي شيخٌ وديع بلحية رمادية يحملها في
يديه ، يدين ليستا خشتين كثيراً بالنسبة ليدى إسكافي .

صافحتُ «فاجنر» ، ولأنه يحمل مسامير في فمه ، فقد اكتفى بهز رأسه
باتجاه المقعد الآخر دون كلمات . جلستُ وأخرجت الظرف من جيبي ودفع
«فاجنر» تبغهُ وورق سجائره عبر المائدة ، لكن سيجارتي لا تزال مشتعلة .

قلت له : « كلا ، شكراً » وقدمت الظرف إليه .

وأضفت : « لعله ... » .

أزاح المسامير من فمه ، مَرَّرَ إصبعه ماسحاً شفثيه ليتأكد من عدم
التصاق مسمار عليهما ، وقال : « رزمة أخرى لزوجتك - حسن ، حسن ! »

أخذ الظرف وهز رأسه قائلاً : « سأهتم به ، سأرسل ابني الكبير إلى
هناك حينها يعود من الاعتراف - ونظر إلى الوقت - خلال نصف ساعة » .

قلت : « يجب أن تصلها اليوم نقود في داخله » .

أجابني : أعرف :

صافحته وودعته ، وأنا أصعد السلم خطري ثانية : كان على أن أطلب منه بعض النقود . ترددت لحظة ، ثم صعدت آخر درجّة ورحت أشق طريقى بمرفقى خلال الناس .

مضت على مغادرتى السيارة خمس دقائق ولا تزال السماء تمطر فى شارع «بنكام» أسرعت قدماً بين «الجملونات» العالية التى تُبنت لحماية المباني الغوطية ، التى بدت مثل تحف أثرية . ومن خلال أطُر النافذة المسودة ، تمكنت من رؤية السماء المثقلة بالسحب . بناية واحدة من تلك البنايات كانت مشغولة ، مشيت مسرعاً تحت سقف مدخلها ضغطت الجرس ، وانتظرت .

استطعت أن أقرأ فى عيني الفتاة البنتين اللطيفتين ذلك العطف نفسه الذى كنت أشعر به أنا نحو ذلك النمط من الناس الذين صرت الآن أشبههم . أخذت سترتى وقبعتى . نفضتهما خارجاً قرب الباب .

قالت : « يا إلهى ، حتماً تحملت المطر ! »

هزرتُ رأسى ومضيت إلى المرأة ، وأجريت كفى فى شعرى .

سألتها : « هل السيدة «بيزم» موجودة ؟ » .

- « كلا ليست ... »

- أسأل إنْ هى تذكّرت أنْ غداً هو الأول من الشهر . . ؟ .

- كلا .

أجابتنى الفتاة وأدخلتنى غرفة « الصالون » . حركت المنضدة قريباً من الموقد الحجري ، ونظرت إلى الساعة الجدارية التى مضت عليها مائة

وخمسون سنة تعلن الوقت لعائلة « بيزم » . الغرفة مزدحمة بأثاث قديم والنوافذ ذات زجاج غوطى أصيل مُؤطَّر بالرصاص .

جاءتني الفتاة بكوب من القهوة ، ساحة « الفونس » وراءها من حمالة بنطلونه - بيزم الصغير الذى تعهدت بتعليمه قواعد حساب الكسور الولد أحمر الخدين ، يهوى اللعب بالبلوط فى الحديقة الكبيرة - يجمعها بشوق ، يجمعها حتى من البنايات المجاورة التى لا تزال فارغة ، فى الأسابيع القليلة الماضية ، صرت أرى ، حين تكون النافذة مفتوحة ، سلاسل طويلة من البلوط تتدلى بين الأشجار .

ضمنتُ كوب القهوة بيدى لأشعر ببعض الدفء ، وبيضاء أعيد قواعد الكسور لذلك الوجه المفعم بالعافية ، وأعلم أن ما أفعله غير ذى جدوى . إنه طفل محبوب ، ولكنه غبى مثل والديه وإخوانه وإخواته ، فى الدار شخص واحد ذكى : الفتاة .

السيد « بيزم » يتاجر بالجلود والأحشاء ، رجل محبوب ، حينما التقى به أحياناً ويبادلنى الحديث ، أحس إحساساً مضحكاً ، ذلك أنه يحسدنى على عملى . لدى انطباع أنه طول حياته يعانى من حقيقة أنه يُتَوَقَّع منه أكثر مما يستطيع أن يقدم : إدارة عمل كبير تتطلب من الفظاظلة قدر ما تتطلب من الذكاء ، و هو يفتقد الاثنين . عندما نلتقى يسألنى عن تفاصيل عملى بعاطفة تجعلنى أظن أنه يفضل أن يقضى كل حياته مغلقة عليه غرفة بدالة مثلى . يريد أن يعرف كيف أدير لوحة الأرقام ، كيف أدخل نداءات المسافات البعيدة ، يسألنى عن رطانة حرفتنا . وفكرة أنى أستطيع أن أتَنَصَّصُ على كل حديث ، هذه الفكرة منحته ابتهاج طفل ،

اندهش قائلاً : « ممتع » وظل يعيد : كم ذلك ممتع ! .

تَقَدَّمَ عقربا الساعة ببطء . كان الولد يعيد على القواعد ، أملتُ عليه
تمارين ، وجلست أدخن حتى يتم حلها . كانت الحالة هادئة في الخارج .
هنا في قلب المدينة صمّت مثل صمت القرى الصغيرة في الشُّهوب التي
ابتعد عنها الرعاة ، فليس فيها بعدهم غير عجائز عليلات : الكسور تقسم
على بعضها بضربها مقلوبة . فجأة ، وَجَّهَ الطفلُ إلى وجهي عينين ثابتتين
وقال :

- . كليمنز نال B . a في اللاتينية .

لا أدري إن كان لاحظَ كم أثارني . فتنوييه سحب وَجْه ابني وألقاه
أمامي ، ذلك الوجه الشاحب لصبي في الثالثة عشرة . وتذكرت أنه يجلس
إلى جانب الفونس .

قلت بجهد : « ذلك لطيف وماذا عنك ؟ »

قال : « d » .

وتركزت عيناهُ المليئتان بالشك فوق وجهي ، كما لو كان يبحث عن
شيء ، وشعرت في الوقت نفسه بأنى ممتلئ باللامبالاة ، فهم جميعاً يحدقون
في وجهي الآن . تجسدت - كاملةً قريبةً من وجهي - وجْوه زوجتي وأطفالي ،
وجوه كبيرة عملاقة كما لو كان وجهي يُضيئها . كان على أن أغطي عينيَّ
وأنا أتلفظ :

« استمر ... كيف نضرب الكسور ببعضها ؟ »

وأعاد القاعدة بصوت خفيض ، ناظرًا إلى ، لكنني لم أسمعه ، فقد لاح
أطفالى يجرون في الحلقة المفرغة التي تبدأ بحمل الحقيقة المدرسية على الظهر

وتنتهى فى مكانٍ مَّا فى مكتب دائرة - وكيت ، زوجتى ، تراقب أطفالنا يخرجون فى الصباح حاملين حقائبهم المدرسية على ظهورهم . . أعدت قواعد الحساب العشرى بوجه الطفل ، بعضها ارتد من وجه الطفل عائداً إلى ، ومرت الساعة ، وإن كانت بطيئة ، وربحتُ ماركين ونصفاً وخمسين فينيكاً .

حددت للصبيّ واجبه البيتى للدرس القادم ، شربتُ بقية ، القهوة ودخلت إلى الصلاة . جففت الفتاة سترتى وقبعتى فى المطبخ ، ومنحتنى ابتسامة وهى تعيننى على ارتداء سترتى .

خطوت خارجاً إلى الشارع ، استعدتُ وجه الفتاة الناشف ، طيب الشمائل ، وفكرت : أيمكن أن أطلب منها نقوداً ! ترددتُ لحظة ، قَلْبْتُ ياقة سترتى ، إذ كانت السماء لا تزال تمطر ، وأسرعت إلى موقف السيارات بجوار كنيسة « أحزان مريم السبعة » .

بعد عشر دقائق ، كنت أجلس فى القسم الجنوبى من المدينة ، وفى مطبخ تفوح منه رائحة الخُل ، وفتاة شاحبة الوجه ذات عينين واسعتين بنيتين كانت تستظهر قائمة من الكلمات اللاتينية . ولحظةً فتحتُ البابَ إلى الغرفة المجاورة أطلُّ وجه الفتاة بعينين واسعتين بنيتين : أَتُعْبِى نَفْسِكَ يا صبية ، فأنتِ تعلمين كم هو عسير إرسالك إلى مدرسة ، والدروس تكلف كثيراً » .

الطفلة أجهدت نفسها ، وأنا أجهدتُ نفسى ، وقد مضت الساعة كلها علينا ونحن نهمس لبعضنا بقوائم من الكلمات اللاتينية ، بجمل وقواعد نحوية ، وأنا على يقين بأن كل ذلك بلا جدوى . . فى الثالثة وعشر دقائق

خرجت إلينا المرأة النحيلة من الغرفة المجاورة تضوع برائحة الخل ، صَفَرَتْ
شعر الطفلة ثم نظرتُ إلَى ، وسألت :

- «هل تعتقد بأنها ستنجح فيها؟ في الاختبار الأخير حصلت على (a.c)
وغذاً اختبارهم الثاني » .

زررتُ سترتى ، وأخرجت قبعتى الرطبة من جيبي ، وقلت لها بهدوء :
«سوف تنجح فيها » . ووضعت يدي على ضفيرة الطفلة الذهبية ، وقالت
المرأة :

- « ستنجح فيها ، إنها كل ما أملك .. زوجي قُتِلَ في فينستا :

تذكرتُ في تلك اللحظة صورةَ محطة القطار القذرة في « فينستا » وهي
مَلَأَى بالجرارات الصدئة ... نظرت إلى المرأة واستجمعتُ هي فجأة
شجاعتهما وقالت ما أرادت أن تقوله كله :

- « هل يضيرك أن تنتظر النقود حتى ... » .

ووافقتُ حتى قبل أن تكمل جملتها . منحتني الطفلة ابتسامة .

حين خرجت ، كان المطر قد توقف ، والشمس الآن مشرقة ، وبضعة
أوراق صفراء كبيرة تجرفها الريح من الأشجار إلى الأسفلت الرطب .

أردت حقيقةً أن أذهب إلى البيت ، إلى « المجمع السكني » حيث أعيش
شهرى الأخير ، لكنني بقيت أستعجل إنجاز الأمور ، أُودَى مهامٌ وأنا أعلمُ
أنها لن تفضي إلى شيء : كان ممكناً أن أطلب من « فاجنر » نقوداً ، وتيسر
لي أن أطلب من عاملة آل بيزم أو المرأة التي تضوع برائحة الخل ، وكنت
واثقاً أنها سيعطيناني شيئاً ، لكنني بدلاً من التوجه إليها ذهبتُ إلى موقف

الترام ، ركبتُ الترامَ رقم (١٦) وتركت نفسي تهتز بين ركابٍ مُبللين حتى «نيكنهايم» وأنا أحس بأن السجق الساخن الذى تناولته بعد الظهر قد بدأ يُصيننى بالغثيان .

فى « نيكنهايم » سرْتُ بين شجيرات المتنزه المهملة حتى وصلت إلى « فيلا » « بولكر » ضغطت الجرسَ وأدخلتني خادمتها إلى الصالة ، حين دخلتُ غرفته قطع « بولكر » شريطاً من جريدة ليجعل منها مؤشراً فى كتابه ، أطبق كتابه بقوة والتفت إلى بابتسامة باهتة ، هو أيضاً قد شاخ ، لقد عاش سنوات مع هذه المرأة « دورا » ، وصار ما بينهما أثقل عبثاً من أى زواج يراقبُ كُلُّ منهما الآخر بشدة ، جَفَّتْ تعابيرهما ، إنهما يتناديان بـ « حبيبى » و « بوسى » ويتشاجران على النقود وهما متعانقان .

فى عودتها إلى الغرفة ، قَطَعَتْ « دورا » أيضاً شريطاً من الجريدة ، ووضعت مؤشراً فى كتابها ، وَصَبَّتْ لى كوباً من الشاي . . على المائدة بينهما بعضُ الحلوى وعلبة سجائر ودورق شاي .

قال بولكر : « حَسَنَ أن أراك مرة أخرى ، هل من سيجارة ؟ »

أجبتة : « أجل ، من فضلك » .

دَخَنَّا بصمت . . « دورا » جالسة جافية الوجه عنى ، ولكنها التفت لأنظر إليها اكتسَى وجهها مظهرًا حجريًا يذوب فى ابتسام حلما تلتقى عيناى بعينها . لم يقل أحدهما كلمة ، ولم أقل . . نَفَضْتُ سيجارتى فجأة ، وقلت وسط ذلك الصمت :

« هل أستطيع اقتراض بعض النقود ، لعل ... »

لكن « بوكلر » قاطعنى بضحكة قائلاً : « إذن تستطيع اقتراض الشيء نفسه الذى نحن دائماً فى حاجة إليه ، يسرنى أن أساعدك ، ولكن النقود كما تعرف ... »

نظرت إلى « دورا » وذاب فى الحال مظهرها الحجرى فى ابتسامة لها غضون عميقة حول فمها ، وتبدو أنها تمتص دخان سيجارتها بعمق أكثر من المعتاد .

قلت : « آسف ، ولكنك تعلم أنها . . »

أجاب : « أعلم ، لا حاجة للاعتذار ، كل واحد يمكن أن يجد نفسه فى حرج »

« لن أضيع وقتك » . أجبتُه ونهضت .

قال لى : « أنت لا تضيع وقتنا أبداً » .

وأستطيع أن أقول ، من الحميمية الفياضة فى صوته ، أنه كان يعنى ما يقول « دورا » نهضت أيضاً ، أعادتني من كنفى ، واستطعت أن أقرأ فى عينيها الخوف من أن أغادر المكان .

أدهشنى أنها كانا فَرَحَيْنِ برؤيتى حقاً . قدمت لى دورا « علبة السجائر ، وصبت لى كوباً ثانياً من الشاي . وجلستُ ملقياً قبعتى على مقعد . لكننا بقينا صامتين ، تبادل بين آونة وأخرى بضع كلمات . ومتى ما نظرت إلى وجه « دورا » الحجرى ذاب فى ابتسامة منها ، على أن أؤكد أنها ابتسامة مخلصه . لأننى حينها نهضت أخيراً وأخذت قبعتى من فوق المقعد ، أدركت أنها كانا خائفين من أن يعودا وحيدين .

إنهما كانا خائفين من الكتب والسجائر والشاي . هما كانا مرعوبين من المساء ، من الضجر الانهائي الذي جلباه على نفسيهما ، والذي هو حصيلة زواجهما الممل .

بعد نصف ساعة كنتُ واقفاً في قسم آخر من المدينة ، عند باب زميل مدرسة قديم ويدي تضغط الجرس . لم أره منذ أكثر من سنة ، والآن ، وأنا أزيح الستار قليلاً وراء النافذة الصغيرة في الباب الأمامي رأيتُ ذلك اليأس على وجهه الممتلئ ، كثير اللحم . فتح الباب ، وقد تهيأ له وقت أثناء ذلك ليرتدى وجهاً آخر ، وإذا نحن نسير معاً في الممر ، وَصَلَ إِلَى البخار المتصاعد من غُرْفَةِ الْحَمَّام ، وصوت يقول :

- « من ؟ »

جلستُ معه نصف ساعة في الغرفة ذات أثاث ضارب إلى الخضرة يضوع برائحة « النفتالين » . تحدثنا عن هذا وذاك ، دَخْنَا ، وحين بدأ يستذكر أشياء عن المدرسة ، توهج وجهه قليلاً ، في حين أدركنى الضجر ، ومع دخان سيجارتي ، نفخت طلباً في وجهه :

- « هي يمكنك إقراضى بعض النقود ؟ »

لم يدهشه ذلك ، لكنه بدأ يتحدث عن الدفع للإذاعة ، وخزانات المطبخ ، والأريكة ، وعن ستره شتوية لزوجته ، ثم مُغَيَّرَ الموضوع ليبدأ الكلام عن المدرس مرة أخرى . أصغيت إليه وابتابنى شعور غريب ، كأنه يتحدث عن شيء حدث قبل ألف سنة . صِرْنَا في حديث غامض مع البواب ، نرْمِي إسفنجات على السبورة ، رأيتنا ندخن في المرافق ، كما لو أن

ذلك في عصور ما قبل التاريخ . كان ذلك غريباً جداً وبعيداً ، بحيث
أرعبني .

فنهضت قائلاً : « آسف ... » واستدرت لأغادرهم .

تجهّمت تعابير وجهه مرة أخرى ونحن نمشي عائدين في الممر ، ومرة
أخرى انطلق زعيق زوجته من داخل الحمام تطلب شيئاً لم أميّزه ، وردّ هو
على الصياح بشيء مثل :

« اقطعها . . هل تستطيعين ؟ »

وأغلقتُ الباب ورائي . وحين نظرتُ إلى الوراء من بين السلام المتسخة
تمكنت من رؤيته يزيخ الستار من النافذة الصغيرة ، ويراقبني وأنا أغادر
المكان .

سرتُ ببطء في البلدة . وبدأت السماء تمطر مرة أخرى بلطف . . هنالك
فاحت رائحة التفسخ والرطوبة ، وقد أوقدت المصابيح الزيتية تواءً . في نُزُلٍ
في الطريق . تناولتُ « شنابن » ، ولاحظتُ رجلاً واقفاً عند صندوق
الموسيقى ، ظل يلقي بقطع نقدية ليصغى إلى نغم يودّ سماعه . نفثتُ دخان
سيجارتى عبر المنضدة ، حدقتُ بالوجه الجليل لربة النُّزُلِ ، التي نظرت إلىَّ
كواحد ملعون ، دفعتُ ثمن شرابي وخرجتُ إلى الطريق .

من أكوام ركام البنايات المقصوفة بالقنابل يتحدثُ ماء المطر إلى جانب
الممشى في جداول طينية مُرَقَّشة باللَّونَيْنِ : الأصفر والبني . وبينما أسير تحت
السقالات ، كانت تتساقط على سترتي منها قطرات طباشيرية .

جلستُ في كنيسة « الدُّمنيكان » وحاولت أن أصلي ، كانت الكنيسة
مظلمةً ، ونقاط صغيرة من رجال ونساء وأطفال يقفون في منطقة الاعتراف .

وفي مقدمة المذبح شمعتان تتقدان . كان المصباح الأحمر الثابت يتوهج مثلما كانت المصابيح الصغيرة في منطقة الاعتراف . شعرتُ بالبرد ، فقد بقيت حوالى ساعة في الكنيسة ، سمعتُ الهمهمات الخفيفة للمعترفين ، راقبت الناس يتحركون إلى الأمام حينما يقتحمهم أحد ليدخل إلى صحن الكنيسة ، مغطياً وجهه بيديه . مرةً رأيت الملفات الحمر المتوهجة للمسحّن الكهربائي ، كان ذلك حين فتح أحد القساوسة باب غرفة الاعتراف ، ونظر إلى ماحوله ، ليرى كمًا من الناس لا يزالون ينتظرون .

بدا عليه أنه أحبطٌ من رؤية ذلك العدد الكبير ، أكثر من دسنة من الناس ينتظرون . عاد ودخل إلى مكان الاعتراف . يمكننى سماع المسحّن الكهربائي يُطفأ ، وتتصاعد ثانية همهمات المعترفين . بدت لى مرة أخرى وجوه كل أولئك الذين ذهب لأراهم بعد ظهر ذلك اليوم ، ابتداءً بالفتاة التى أعطتنى قطعة الشريط اللصق فى المصرف ، إلى المرأة ذات الوجه الأحمر القاتم فى كشك الأكالات الخفيفة ، ووجهى وفمى المغفور ، وفئات السجق يتساقط فى حفرتة والقبعة « حائلة اللون تعلو وجهى . . رأيت وجه «فاجنر»، والوجه اللطيف الناشف لخدمة بيزم . والصغير « الفونس بيزم» الذى همست له بقواعد الحساب ، والفتاة فى المطبخ التى تفوح منها رائحة الخل ، ورأيت محطة القطار فى فينستا ، قذرة ملأى بالجرارات الصدئة ، تلك المحطة التى قُتِلَ فيها أبوها ، رأيت أمها بفمها الدقيق وعينيها السوداوين الواسعتين . رأيت « بوكلر » زميل الدراسة ، والوجه الآخر للرجل الذى كان واقفاً عند صندوق الموسيقى فى النزول .

سرى إلى البرد ، وقفتُ ، وأخذت بعضاً من الماء المقدّس من وعاء فى الممر ، رسمت الصليب، ومضيت خارجاً إلى شارع « بونن » ، وحين

دخلت « حانة بتزنر » وجلست أمام مائدة صغيرة قرب لعبة الكرة أدركت أنى طيلة بعد ظهر ذلك النهار ، ومن اللحظة التى أخرجت فيها العشر الماركات من الظرف ، ما فكرت بشىء غير « حانة بتزنر » الصغيرة .

ألقيت بقبعتى على المشجب وناديت :

- «شنايز كبير ، من فضلك » .

وزررت سترتى ، ورحت أخرج بضع قطع من جيبي . ألقيت قطعة فى شق لعبة الكرة ، وضغطت الزر محرّكاً الكرات الفضية الصغيرة فى مجراها ، ومستخدماً يدي اليمنى فى رفع الشنايز الذى جلبه لى بتزنر ، قاذفاً الكرة إلى اللوح المنحدر ، وأصغيت إلى النغمة التى تطلقها الكرة وهى تلامس المصدّات . وحين بحثت بجديّة فى جيبي وجدت قطعة ذات خمسة ماركات كدت أنساها : لقد أعطانى إياها الصديق الذى أستضافنى فى غرفة البدالة .

انحنيت على اللعبة أراقب دحرجة الكرات الفضية وأصغى إلى نغماتها . وسمعت « بتزنر » يقول لرجل آخر فى البار قريباً جداً منه :

- «سيظل هناك حتى يتخلص من آخر بنس لديه » .

عددت النقود التى أرسلها لى « فريد » مرة ثانية وثالثة : أوراق مصرفية قائمة الخضرة ، خفيفة الخضرة وزرقاء ، مطبوعة عليها رؤوس فلاحات متوجّات بسنابل القمح ، ونساء مُفْعَمَات بالصحة يرمزن إلى التجارة أو الزراعة ، ووراء جُبة بطل ما يختفى رجلٌ يمسك عجلة ، لعله يمثل الحرف ، إلى جانبه عذراء رثة تضم أنموذج المصرف إلى صدرها ، وعند قدميها لفّة ورق وآلات معمارية . فى وسط الورقة المصرفية الخضراء امرأة غير

جذابة ، تمسك وسط ميزان يمينها ، اجتازتني النظرة الآتية من عينيها الجامدتين . أفكار قبيحة توظّر هذه الأوراق المصرفية الشمينة ، الزوايا مطبوعة عليها أرقام تمثل قيمتها . أوراق بلوط وسنابل قمح ، أوراق عنب ومطارق متقاطعة منقوشة على قطع النقود المعدنية . كل قطعة تحمل على ظهرها النسر، رمز الإنذار ، بجناحيه الممتدين ، يكاد يطير ويهجم منقضاً .

كان الأطفال يراقبونى وأنا أفرز الأوراق المصرفية بين يدى ، أصففها . وأجمع القطع المعدنية : الدخل الشهري لزوجى الذى هو موظف بدالة فى إدارة أبرشية : ثلاثمائة وعشرون ماركاً وثلاثة وثمانون فيكاً . عزلت ورقة مصرفية للإيجار ، واحدة للكهرباء والغاز ، وواحدة للتأمين الصحى ، حسبت النقود التى أنا مدينة بها للخباز ، وحسبت ما تبقى : مائتان وأربعون ماركاً . فريد قدّم ورقة مصرفية قائلاً : إنه احتفظ بعشرة ماركات سوف يعيدها غداً . سيشرب بها .

الأطفال يراقبونى . وجوههم وديعة هادئة . لكنى أحمل مفاجأة لهم : سوف يسمح لهم اليوم باللعب فى الممر . فالسيدان فرانك غادر المكان بمناسبة عطلة نهاية الأسبوع ، ولحضور اجتماع عصبة النساء الكاثوليكيات وعائلة « سيلبستانين » التى تعيش تحت سوف تغادر المكان لمدة أسبوعين بمناسبة العطلة ، أما بالنسبة لآل « هوبفز » الذين استأجروا الغرفة المجاورة لنا ، والتى لا يفصلها عن غرفتنا سوى لوح « البلاستر » فلا حاجة للاستئذان منهم . لهذا سيسمح للأولاد باللعب فى الممر ، وذلك امتياز لا يستهان به .

- « هل النقود من والدنا ؟ » -

أجبتهم : « نعم »

- « أهو لا يزال مريضاً ؟ » .

- « نعم ، يمكنكم اللعب في الممر اليوم ، ولكن لا تكسروا شيئاً ،
واتنبهوا للورق الجدران » .

وغمرنى ابتهاج ، إذ رأيت وجوههم تتألق ولا يتأذى منهم وأنا أبدأ أعمال
السبت .

لا تزال رائحة الأطعمة المخترنة عالقة بالممر ، وقد ملأت السيدة فرانك
حتى الآن ثلاثمائة من جرارها ، رائحة الخل الساخن ، التي تكفى وحدها
لإثارة صفراء فريد ، ورائحة الفاكهة والخضار المطبوخة ، الأبواب مقفلة ،
وقبعة السيد فرانك القديمة هي كل ما تبقى على حاملة المعاطف ، يلبسها
حينما ينزل إلى السرداب . الورق الجديد وصل إلى حدّ بابنا ، والصبغ الجديد
إلى منتصف نافذة الباب ، راسماً المدخل إلى شقتنا : هي غرفة واحدة أقمنا
فيها حاجزاً خشبياً وفّرنا به مهجعاً ينام فيه طفلنا ، ونخزن فيه بعض
سلعنا . آل فرانك - من ناحية أخرى - لهم أربع غرف : مطبخ ، غرفة
صالون ، غرفة نوم ، وغرفة مكتب تستقبل فيه السيدة فرانك روادها . لا
أعرف عدد أفراد الجمعية ، ولا عدد مجلس الإدارة ، فلم أنتم لنواديا ، كل
الذي أعرفه أن سلطات الكنيسة قد أقرت بحاجتها لهذه الغرفة ، الغرفة
التي ربما لا تسعدنا ، ولكنها تضم إمكانية استمرار حياتنا الزوجية فيها .

لا تزال السيدة « فرانك » امرأة جميلة وهي في الستين ، الألق الغريب
في عينيها تسحر به أى إنسان ، ويملائني أنا بالخوف هاتان العينان
السوداوان الصليبتان ، شعرها المصفف بعناية والمصبوغ ببراعة ، صوتها

العميق الذى يترنم قليلاً ، الذى يصبح عالياً فقط عندما تحدثنى ، طراز ثيابها وحقيقة أنها تستقبل أعضاء الجمعية المقدسة كل صباح ، وتقبّل خاتم المطران كل شهر ، وهو يستقبل نسوة الأبرشية البارزات - كل هذه الأشياء تجعلها شخصاً لا أمل لى من محاربته . نحن نعلم ذلك من تجربتنا ، فقد حاولنا أن نواجهها سنواتٍ ، وقد استسلمنا الآن .

الأطفال يلعبون فى الممر : اعتادوا الهدوء فهم الآن ، وإن سُمِحَ لهم ، لا يُحدثون صخباً . يندر أن أسمعهم : لقد ربطوا صناديق من الورق المقوى فارغة ليصنعوا منها قطاراً طوله طول الممر ، وهو الآن يتحرك بحرص إلى الوراء وإلى الأمام . لقد شادوا محطات مملوءة علبةً فارغة وعصياً ، وأنا متأكدة من أنهم سيظلون منشغلين بهذا القطار حتى وقت الغداء . الرضيع لا يزال نائماً .

أحصيت النقود مرة أخرى . هذه الأوراق المصرفية الثمينة الحقيمة ، ترعبنى رائحتها الثقيلة ذات العفن الخاص : فى مخيلتي ، أضفت لمجموعها عشرة ماركات اقترضها فريد . سوف يصرفها على الشرب ، فقد غادرنا قبل شهرين ، وهو يقضى ليلاليه مع أصدقاء فى هذا المأوى أو ذاك ، لم يعد يحتمل الأحوال الصعبة فى شقتنا ، وحضور السيدة فرانك وآل هوبفز المرعبين جوارنا . فى هذا الوقت قدمنا طلباً للجنة الإسكان التى كانت تنشئ عمارة متطورة فى طرف المدينة ، رفضوا طلبنا ، لأن فريد يسكر ، ولأن الاستشهاد الذى زودنى به القس لم يكن مشجعاً . إنه مستاء من عدم مشاركتى فى الأبرشية . على كل حال ، رئيسة لجنة الإسكان هى السيدة فرانك ، التى نتيجة لهذا القرار ، رسخت سمعتها امرأةً صلبةً ضد أى مؤثر،

فهى إذا ما ضمنت لنا كسب الشقة الجديدة فستخلو غرفتنا ، التى تفضل أن تجعلها غرفة طعام لها ، وهكذا هى ردتنا إلى ما يضيرها .

أما أنا فقد استولى على رعب يتعذر وصفه ، فأن أكون هدفاً لمثل تلك الكراهة ، ذلك أمرٌ يملأنى رعباً . وانكمشت من المشاركة فى جسد المسيح ، فكان نتيجة ذلك أن صارت السيدة فرانك تزداد تهديداً لنا يوماً بعد يوم . ألقى عينها صار أقسى وأقسى ، وأنا صرت أخاف سماع القداس المقدس ، وإن كانت وداعة القداسات واحدة من أواخر مباحجى ، فحيث أصلى أحسّس السلام اللانهائى الذى يبعثه حضور الإله فى المكان ، لكن السيدة فرانك هناك تظهر أنواعاً من المشاعر تخيفنى أكثر مما تخيفنى كراهيتها ، ففى عيد الميلاد جاءت تدعونى للاشتراك فى احتفال صغير فى غرفة الضيوف ، ورأيتنا نسير فى الممر كما فى أعماق مرآة : أولاً كليمنز وكارلا ، ثم فريد ، وأنا أتبعهم حاملة الرضيع .

كنا نسير فى أعماق مرآة ، ورأيتنا ظهَرنا هنالك فقراء .

فى غرفة الضيوف التى ظلت على حالها ثلاثين سنة . شعرت كأنى غريبة ، كأنى فى عالم آخر ، سَمَكَةٌ خارج الماء : فليس لنا ما نفعله بين أثاث كهذا ، بين عدة لوحاتٍ ، شعرنا بأن علينا ألاّ نجلس لموائد مغطاة بالدمقس ، وزينات شجرة الميلاد التى ادخرتها السيدة فرانك من زمن قبل الحرب ، أجفلت قلبى رعباً تلك الزينات الملتمعات - الزرق والذهبية - ذلك الشعر الملائكى ، والأوجه الزجاجية للملائكة الدُّمى ، ويسوع الطفل مصنوع من الصابون وموضوع فى مهد من خشب الورد ، مريم ويوسف مصنوعان من طين ، مصبوغ وملون، يشعان بعذوبة تحت لفافة جبس فرنسية تعلن : « السلام للبشرية » - هذا الأثاث الذى يضيع من أجله كل

أسبوع ولمدة ثمانى ساعات عرق امرأة عضو في اتحاد الأمهات ، يذْفَع لها خمسين فينيكاً للساعة . . كل هذه النظافة العقيم تفزعنى . السيد فرانك يجلس في زاوية يدخن غليونه . هيكله العظمى صار يمتلىء ، وأنا أسمع خطوه الوطىء وهو يصعد السلم ، مشيته الثقيلة ونفسه المُجْهَدَة ، يجتاز غرفتى ويدخل أعماق الممر .

الأطفال خائفون من ذلك الأثاث الذى لم يعتادوا رؤيته ، فهم خجلون جداً منه ، وصامتون صمتاً أبكائى . صحنون من حلوى أُعِدَّت لكل منهم ، وكانت هناك هدايا : جوارب ووصفُ خنازير من طين ، هى منذ ثلاثين سنة من معالم عيد الميلاد عند عائلة فرانك .

كان فريد مُقَطَّبَ الجبين ، يبدو أنه آسِفٌ على قبول الدعوة كان واقفاً متكئاً على قضبان النافذة . . سحب سيجارة من جيبه بلطف ثم أولعها .

السيدة فرانك ملأت « ملأت الأقداح بالنيبذ ودفعت للأطفال «كاسات» من الخزف ملأى بعصير الليمون . الكاسات الخزفية مرسومة عليها مشاهد حكاية خرافية عن الذئب والمُعِيز السبع الضغيرات .

شربنا . أفرغ فريد كأسه برشفة واحدة ، رفعه متأملاً بيدٍ واحدة وقد اتضح عليه ازدراؤه لمذاق النيبذ . فى لحظات كتلك ، أقدره ، لأن وجهه يعبر عن مشاعره ، فلا يحتاج إلى كلمات . شريحتان من لحم الخنزير وقذح من النيبذ وخمس دقائق من كلام العواطف ، ذلك لا يخفى حقيقة أن شقتنا صغيرة جداً . هذه الزيارة الفاضحة انتهت بوداع فاتر . أكاد أقرأ فى عيني السيدة فرانك كل ما ستقوله لأصدقائها عنها : فوق ما ابتلوا به من شقاء ولعنات عيش لا تحصى فقد أضافوا لأنفسهم الجمود والفظاظة . وتروح تضيف لنفسها طبقتين آخرين فوق إكليل استشهادهما متعدد الطبقات .

أما السيد فرانك ، فنادرًا ما يقول شيئاً ، لكنه حين يعلم أن زوجته خارج البيت ، يحوم حول بابنا ويضع علبة « شكولاته » على المنضدة ، وأحياناً أسمعه يكلم الأطفال في الممر . هو يُوقفهم ويهمهم بيضع كلمات . ويخبرني الأطفال بأنه يرتب رءوسهم ويقول لهم « كلمات حلوة » .

السيدة فرانك ليست كذلك ، فهي كثيرة الحركة ، ومهذّارة ، وخلو من الرقة . انحدرت من عائلة تاجرة قديمة في المدينة ، وظلت تعيّر مواد تجارتها من جيل إلى جيل ، وتتقدم إلى السلع الأغلى : فمن الزيت ، إلى الملح ، إلى الدقيق ، إلى السمك ، والقماش ، ومنها تقدموا نحو النيذ ، ثم مضوا إلى السياسة ، وقد غطسوا من هناك إلى الحكومة الفعلية ، وأنا أظن أحياناً أنهم الآن يتاجرون بأغلى السلع قيمةً : الدين .

في المناسبات النوار ، تبدى السيدة فرانك بعض اللطف : أولها ، حين تتحدث عن النقود ، فهي تلفظ الكلمة برقة تفزعني ، تقولها بالطريقة التي يلفظ بها الناس كلمات : حياة ، حب ، إله ، بتهذيب وبنبرة خشية في أصواتهم . الألق في عينيها يُعتم قليلاً وقسمات وجهها تصير أفتى حين تتحدث عن الذهب وعن جرار مقتنياتها ، وكلاهما كنز ، فلا تسمح بانتهاكهما . يستولى علىّ الخوف أحياناً حينما أكون في السرداب لآتى منه بفحم أو بطاطا ، فيحدث أحياناً أن أسمعها تفرغ الجرار بغية حساب مدّخراتها فيها : تهمهم في الأرقام بنغمة خفيضة مثل نغمة طقس ديني . ويذكرني صوتها بصوت راهبة تصلى - وغالباً ما أترك مكيلتى هاربة إلى أعلى لأحتضن أطفالي ، أحس أن علىّ حمايتهم من شيء ما . ويحدّق الأطفال فيّ « عينا ولدى الذى بدأ يترعرع ، وعينا ابنتى اللطيفتان السوداوان . إنهما يحدقان فيّ ، يفهمان ولا يفهمان - ويترددان وهما يشاركاننى الأدعية التى أشرع

بتدريدها . رتابة الابتهاال التى لا تُملُّ ، وعبارات الصلاة الربانية تنهاوى
واهنةً من شفافها ...

لكنها الساعة الثالثة الآن ، وقد ارتحلت عنا مخاوف الأحد ، فقد تفجر
الضجيج من الساحة الخلفية ، ويمكننى سماع أصوات تعلن عن عصر
سبت بهيج ، وبدأ قلبى بالتجمد داخل جسدى ، مرة أخرى حسبتُ
النقود، نظرت إلى الصور المينة على الأوراق النقدية ، وأخيراً قررت الشروع
بصرفها .

الأطفال يضحكون خارجاً فى الممر ، استيقظ الرضيع ، وعلى أن أمضى
إلى أشغالى ، وحين رفعتُ بصرى من المنضدة التى كنت محنية عليها ، حيث
كانت تطوّف أفكارى ، وقع نظرى على جدران غرفتنا التى علقت عليها
صور مطبوعة رخيصة : وجوه رينوار الحلوة - بدت إلى غريبة لا أستطيع أن
أفهم كيف كنت أحبها قبل نصف ساعة . أنزلت الصور ، مزقتها أنصافاً
بيدين متوترتين ، ورميت المزق فى السلة التى سارعت بإنزالها . مر بصرى
على جدراننا ، لم تلمس عيناى رحمة إلا فى الصليب فوق الباب ، وفى رسم
لرسام لا أعرفه ، حركة خطوطه وألوانه المتناثرة لم تعن لى شيئاً لكن ما
أكتشفته فجأة هو أن أستطيع أن التمس شيئاً فى تلك الرسوم دون أن
أفهمها .

حين غادرت المحطة ، ابتدأ الفجر ينبلع ، والشوارع لا تزال خالية .
هرعوا حذرين يجتازون مجموعة من البنايات التى أصلحت واجهاتها
بلطخات غير منتظمة من الجص . كانت باردة ، وعدد من سائقى
التاكسى واقفون يرتجفون فى ساحة المحطة ، أيديهم مدفونة عميقاً فى جيوب
معاطفهم . وللحظة استدار إلى أولئك السائقون الأربعة أو الخمسة

بوجوههم الشاحبة تحت قبعاتهم مستدقة الرؤوس ، تحركوا مثل رجل واحد ، ممثل دُمى على خيط ، فى لحظة واحدة ، ثم تراجعت الوجوه إلى موضعها الأولى ، استداروا إلى باب المغادرة فى المحطة .

ليس من أحد ، فى الشوارع فى تلك الساعة ، وحين استدرت بثقلٍ حوالى ، رأيتُ عقربَ ساعة المحطة الكبيرة يزحف إلى التاسعة : إنها السادسة إلا ربعاً . انعطفتُ فى الشارع متجهاً إلى اليمين متجاوزاً إحدى البنايات ، أنظر بتمعن فى واجهات المخازن : فى مكانٍ ما ، مَقهى أو نُزلٍ لزامٌ عليه أن يظل مفتوحاً ، أو أنه أحد تلك الأكشاك التى - برغم كراهتى لها - أفضلها على غرف الانتظار فقهوتها فى مثل هذه الساعة فاترة ، وحساء لحمها البقرى المسخن كثيراً ما تفوح له رائحة المبانى المكتظة . . رفعتُ «ياقة» سترتى ، طويْتُ زواياها على بعضها ، أزحت بالفرشاة الأوساخ العالقة فى بنطلونى ومعطفى .

شربت فى الليلة الماضية أكثر مما اعتدت ، وقرابة الواحدة صباحاً ذهبت إلى المحطة لأرى «ماكس» . الذى « يمنحنى » أحياناً مكاناً أنام فيه . ماكس يعمل فى وزن الحقائق ، هنالك مدفأة ماء ساخن كبيرة مثبتة وسط إطار خشبى ، وفى الغرفة أيضاً مصطبة ثابتة . لهذا يقصده العمال من المستوى الأدنى للاستراحة عنده : الحمالون ، العاملون فى غرف الرزم ، وعاملو المصعد . الإطار الخشبى يترك لى ملجأً لكى أزحف وراءه وأنزل إلى الأرضية حيث يتوفر مكان أوسع ، مكان مظلم ودافئ أشعر بأمان حين أنام فيه ، فقلبنى هنالك مطمئن ، والخمر تجرى ساخنة فى عروقى ، وضجيج القطارات يدخل ويغادر المحطة ، بطاقات الحقائق تلطم رأسى مع حفيف أصوات المصاعد ، أصواتها فى الظلام تجعله أكثر ظلمة - تخدرنى بسرعة

فأنا ، أيضاً ، أنا أبكى هناك أحياناً حينما أفكر فى كيت والأطفال . أبكى وأعلم أن دموع السكران لا حساب لها ولا وزن - وأن هنالك شيئاً أدعوه وخزات ضمير ، لكنها وخزات فحسب . اعتدت الشرب حتى قبل الحرب ، لكن الناس - على ما يبدو - قد نسوا ذلك ، فسلوكى المنحط هذا يُنظر له باعتبار خاص ، فيمكنهم أن يقولون غنى بأنى قاتل فى الحرب .

نظفت نفسى قدر استطاعتي ، وأنا أنظر فى المرآة المعلقة قرب نافذة المقهى الصغيرة ، وقد عكست المرآة هيئتي الرثة وأنا فى ذلك الفراغ مرةً ، وأخرى مثل ظل خيالى أجوف ، وحولى الكيك ذو الكريم والشكولاتة التى تلتصق على طول الخطب إلى جانبي . هكذا رأيت نفسى هناك ، شكلاً ضئيلاً ضائعاً يتدحرج بين المعجنات ، يحاول مضطرباً أن يصفف شعره ويعدل «بنطلونه» .

مررت ببائع سجائر ، ومحلات بيع زهور ، ومخازن ملابس « المانيكانات » فيها يحدقن فى وجهى بتفاؤل زائف . تفرّع الشارع إلى اليمين ، فصار طريقى كله أكواخاً خشبية . كانت فى المنعطف لافتة ضخمة تقول :
مرحباً بالدوائيين ! .

أكواخ شيدت من كسر ، تبرز من بين واجهات مدمرة ، محروقة - لكن تلك الأكواخ كانت مخازن سجائر ، ومخازن ألبسة ، ومحلات بيع صحف .
وحين وصلت أخيراً إلى محل الأكلات الخفيفة ، كان ذلك المحل مغلقاً .

حركت قبضة الباب ، استدرت فرأيت فى الأخير ضوءاً ، عبرت الشارع تآليه ، فبدأ أن ذلك الضوء يأتى من كنيسة ، وكانت نافذتها الغوطية العالية سيئة الترميم .

حين توغلت إلى وسط مبنى من حجر ، لاحت لى نافذة صغيرة صفراء ، واضح أنها الغرفة حمام ، زجاجاتها الصغيرة الأربع أضيئت بضوء أصفر شاحب توقفت هناك وتفكرت لحظة ربما لا تكون ، ربما كان هنالك دفء . خطوطٌ إليها خطوات مترددة ، بدا الباب سالماً . . باب مغلف بالجلد ، دافئ داخل الكنيسة ، حركت قُبعتى قليلاً زحفت ببطء إلى الأمام بين المقاعد الطويلة ، فرأيت شموعاً تشتعل في جناح الكنيسة المرمم . مضيتُ في سيري ، اكتشفتُ أن البرد هناك أشد عما هو في الخارج . كان هواءً باردًا ، وتيارات هواء تأتي من كل الجوانب ، لم ترمم جدران بعض الأمكنة بالحجارة ، بل بألواح « فايبر » راحت تنفصل عنها طبقات ، وتقف أغلفة عليها . في بعض ألواح « الفايبر » ثقبوب تنضح ماء . توقفتُ مترددًا إلى جانب عمود .

كان قس شاب ، بشيابه البيضاء واقفٌ بين نافذتين عند مذبح حجرى ، بين شمعتين ، كان يصلى ويداه مرفوعتان . ومع أنى رأيت ظهر القس فحسب ، فقد كنت متأكدًا أنه يشعر بالبرد . بدا لبرهة كما لو أن القس وحيد مع كتاب الترتيل المفتوح . إن يديه الشاحبتين مرفوعتان وظهره مرتجف ، لكننى ميّزتُ خلف الشموع المرتعشة في الأعلى ، رأس فتاة منحنيًا بعيدًا إلى الأمام ، حتى أن شعرها المسترسل انقسم على ظهرها جديلتين . إلى جانبها انحنى صبي يتلّفت من جهة إلى أخرى ، وبالرغم من عتامة الضوء تمكنت من أن أميز في هيئة وجهه أجفانًا متفخخة وفمً أبله فاغرا ، أن أرى الأجفان المحمرة والوجنات المنفوخة والفم البارز الغريب . في لحظات رؤيتى تلك ، كان على وجه الطفل تعبير احتقار فيه دهشة وتحذّر .

التفت القس ، وجهه فلاح شاحب مضنى ، قبل أن يُخفض يديه

المرفوعتين ، انزلت عيناه إلى العمود ، حيث أجلس ، فبسطهما ثانية ، وهمهم بكلمات . بعدها استدار ، انحنى على المذبح الحجري ، وفجأة التوى حوله لحد ما ، وبورع يكاد يكون مضحكاً منح بركاته للفتاة والولد الأبله .

غريب أنى لم أشعر بأننى داخل الكنيسة ، وإن كنتُ فعلاً فيها . استدار القس إلى المذبح ، ارتدى قلنسوته ، حمل كأس القربان وأطفأ الشمعة التى على يمينه . مشى بتؤدة إلى المذبح الرئيسى ، ثنى ركبتيه قليلاً واختفى فى اكتئاب الكنيسة . لم أعد أراه ، وتعذر على سماع صرير مفاصل الباب .

بعد دقيقة ، رأيت الفتاة فى الضوء : وجه لطيف وورعٌ بسيط . ركعت ، ثم عجلتْ حُطاطها لتطفىء الشمعة الأخرى . وقفت فى ذلك الضوء الأصفر فاستطعت أن أراها ، كانت جميلة حقاً ، رقيقة وطويلة وذات ملامح ناعمة ، لاهق فى شدّ شفيتها حينما تنفخ على الشمعة ، ثم هبط الظلام عليها وعلى الولد . ولم أرها بعد ذلك إلا بعد أن لاحت ثانية فى الضوء الرمادى ، فى النافذة المدمرة فوق . مرة أخرى أثرت فى الطريقة التى مسكت بها رأسها ، أمالت عنقها وهى تمرّ بى ، منحتنى نظرةً هادئة ومتطلعة وهى تغادر الكنيسة جميلة كانت ، وتبعتها عند الباب ركعت ثانية وفتحت الباب وسحبت الأبله وراءها .

تبعتها . سارت فى الاتجاه المعاكس ، باتجاه المحطة ، وخلال شارع مهجور ، لا أكواخ تحدّه ولا ركام . لاحظتها تنظر إلى وراء عدة مرات ، كانت رقيقة ، نحيفة إلى حدّ ما ، بدت لا تزيد على الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة . وما اضطربت مشيتها وهى تجرّ الولد على الطريق .

لا تزال هناك بنايات ، وصادف أن رأيت كوخاً ، هنالك خطوط ترام تتجمع في ذلك المكان ، ورأيتُ قسماً من مدينة لم أزره من قبل . لابد من أنه محطة ترام . أسمع صرير العجلات وراء حائط أحمر سىء الترميم . أرى في ذلك الشفق إضاءاتٍ تعشى البصر ، تبعثها ماكينات اللحام ، وأسمع هسيس أسطوانات الأوكسجين .

حدّقت طويلاً في ذلك الجدار حتى فاتنى أن الفتاة قد توقفت ، فأنا الآن جوارها تماماً ، ثم رأيتها تقف أمام أحد الأكواخ ، تبحث في حزمة مفاتيح . كان أبله ينظر إلى المدى الرمادى للسماء . مرة أخرى نظرت الفتاة إلى وراء ، إلّى ، وترددت لحظة وأنا أجتازها حتى رأيت أن الكوخ الذى بدأت تفتح بابه ، هو مطعم أكالات خفيفة .

فُتِحَ الباب ، وفي الداخل في الظلام الرمادى أرى مقاعد ومناضد ، ولمعاناً كامداً لماكنة قهوة ، وتأتى من خلال الباب رائحة فطائر البطاطا المحلاة . استطعت أن أرى في العتمة ، وخلف زجاج ملوث كرات من اللحم مكومة فوق طبقين بعض لحم الضلوع البارد ، ودورقاً كبيراً أخضر ممتلئاً خياراً غاطساً في الخل .

حين توقفت الفتاة ، نظرت إلّى ، تحركت مغاليق الباب الحديدية وحدقت أنا أيضاً في عينيها .

قلت : « معذرة ، هل تفتحين المحل ؟ » .

أجابتنى : « نعم »

ومشت عنى حاملة آخرَ الأقفال إلى الداخل ، وسمعتها تنزله . ومع أنها رفعت الأقفال ، فقد عادت ثانية ونظرت إلّى ، فسألتها :

« أيقظ لي الدخول الآن ؟ »

قالت : « طبعاً ، لكنها لا تزال باردة في الداخل »

« آه ، لا يهمني ذلك » أجبتها ودخلت .

كانت الرائحة في الداخل لا تطاق ، أخرجت سجائري وأشعلت واحدة ، فتحت الكهرباء ، فأدهشني كم كان كل شيء نظيفاً في الضوء .

قالت : « جو مضحك في سبتمبر . فعند الظهر ستكون الأجواء حارة مرة أخرى ، لكنها لأن باردة جداً .

أجبتها : « أجل مضحك ، إن أجواء الصباح باردة » .

قالت : « خلال ثانية واحدة سأوقد النار »

كان صوتها واضحاً ، رفيعاً بعض الشيء ، ولاحظت أنها متحيرة .

هززت رأسي قليلاً ، تطلعت إلى الحائط عن المنضدة ، وتطلعت داخل الغرفة : تتكون الجدران من ألواح خشب عارية ، مغطاة بإعلانات سجاير ملونة ، وهناك رجال مهذبون بسوالب رمادية يقدمون علبة سجائر لسيدات يرتدين فساتين واسعة الفتحات ، يتسمن بإغراء ويحملن في اليد الأخرى زجاجة « شمبانيا » - رعاة بقر على ظهور جياد ، ملامح شر على وجوههم ، يد تمسك اللجام ، وأخرى تمسك السجائر ، يسوقون سحابة دخان زرقاء حجمها غير عادي ، فهي تمتد مثل لافتة حريرية إلى أفق المرج .

الولد الأبله جاثم قرب الموقد ، ينشج قليلاً من البرد . في فمه مصاصة ، وفي يده عود خشبي ، يمتص بجنون قطعة السكر الحمراء المزوقة التي عليه ، وخطان من السائل رفيفان يجريان على جانبي فمه .

قالت الفتاة بركة وهي تنحنى بعطف عليه وتمسح زوايا فمه بمنديلها :
«برنارد» .

ثم رفعت الغطاء عن الموقد وأمسكت بجريدة رمتها ، و وضعت بعض
الفحم في أعلى الموقد ثم حملت عود ثقاب مشتعل إلى الموقد الصدى .

قالت لى : « اجلس ، هل تود؟ »

قلت : « شكراً » ولم أجلس .

كنت أشعر بالبرد وأردت أن أظل واقفاً قريباً من الموقد ، وإن اتجه نظرى
إلى الولد الأبله ومصدر الروائح الطعام الرخيص ، كما أن فكرة قهوة وخبز
وزبد ملأتنى بدفء مبهج . ورحت أنظر إلى أسفل عنق الفتاة الجليدى ،
إلى الجوارب الخشنة على ساقها ، وانتبهت لحركات رأسها اللطيفة حينما
انحنى تتابع سير النار .

فى البداية كان هنالك شىء من الدخان ، ثم بدأت أسمع قرقرة ،
وابتداً اللهب يهدوء وخفت آخر الدخان .

كأت طيلة هذه المدة تحرك النار فى فوهة الموقد . أسمع حركات
أصابعها ، وأحياناً تحنى أكثر لتنفخ فيه ، وكلما فعلت مثل ذلك رأيت ظاهر
عنقها .

فجأة نهضت على قدميها ، ابتسمت لى ونظرت إلى ما وراء المنضدة
استدارت إلى الحنفية ، غسلت يديها ، وأوصلت الكهرباء لمكنة القهوة .
تقدمت إلى الموقد أكثر ، رفعت الغطاء ، فرأيت اللهب يوقد قطع
الفحم . بدأ الدفء فعلاً ومكنة القهوة ابتدأت عملها ، وأحسست بشهيتى
تزداد . وقت الشرب أحس بشهية كبيرة للقهوة والإفطار - لكنى نظرت بقرف

إلى السجق البارد وجلده المتغضن في إناء السلطة . رفعت الفتاة صندوقاً معدنياً لِلْقَنَانِي الفارغة وخرجت ، ملأني وجودي وحيداً مع الولد الأبله باستياء غريب . الطفل أهملني تماماً ، أثارت أعصابي طريقته وهو جاثم هناك يمتص بارتياح وشره عود السكر المقرز .

رميْتُ سيجارتي ، كنت متهاياً ، حين فتحت الباب ، وبدلاً من الفتاة ظهر القس الذي أنهى خطبته تَوْأً : وجهه الفلاحى المدور الشاحب ، تظلمه الآن قبعة سوداء نظيفة .

قال : « صباح الخير »

وألقت الحية ظلاً ثقیلاً على وجهه حينما رأى المكان وراء المنضدة خالياً . تذكرت الآن أن الكنيسة التى كنت فيها هى كنيسة الأبرشية ، « كنيسة أجزان مريم السبعة » ، وأنى ملّم إلماً جيداً بأعمال القس ، كانت درجاته متوسطة ، أدعيته شعبية تفتقد الدرامية ، وصوته جشِب يابس . لم يتميز خلال الحرب ، لم يكن بطلاً ، ولا مقاتلاً فى المقاومة ، ولم تزين صدره ميدالية ، ولم يُتَوَّج بتاج الشهادة السَّنيّ ، بل هو نال عقوبة تأديبية بحرقه قرار منع التجول ، فَلَطَّخ سجله بها . لكن هذا كله لم يصل فى سوئه إلى ما وصلت إليه قضيته الغريبة مع امرأة ، والتى وان اعتبرت قضية أفلاطونية ، فقد نالت درجة من النفخ الروحى هبطت بمراتبه الكهنوتية . إن قس أحزان مريم السبعة واحد من أولئك الذين وسمتهم الكنيسة بأنهم قسس مادون الدرجة (ج) والمنحدرين إلى الدرجة (د) .

كان إخفاق القس المذل واضحاً جدّاً لدرجة أنه أربكنى . أشعلتُ سيجارة أخرى ، وقلت ثانية : « صباح الخير » .

وحاولت النظر إلى ذلك الوجه عديم الملامح . كلما رأيت القسس ،
بقناعتهم البريئة ، أو بفقدانهم البريء للقناعة ، في ذلك الوقت يتتابنى
مزيج من الغضب والرثاء ، مثل ذلك الذى أشعر به نحو أطفالى .

كان القس يحرك قطعاً من فئة ماركين على واجهة المنضدة الزجاجية حينما
فتحت الفتاة الباب ، ودخلت ... تدفق دم خفيف من عنقه صاعداً إلى
وجهه .

قال لحظتها :

« آه ، أردت بعض السجائر » .

راقبته عن كثب وهو يقترب بأصابعه القصار البيض يجتاز - باتجاه
السجائر ، الثقط علبه حمراء ، رمى بقطعة النقود على المنضدة وقال : « مع
السلامة وهو يغادر الكشك متعجلاً » .

تابعته الفتاة بنظراتها ، وقد أنزلت السلة التى كانت تحملها ، وشعرت بأن
لعابى يسيل وأنا أمام تلك اللقات الذهبية الطازجة .

ابتلعت ذلك اللعاب الدافئ ، أطفأت سيجارتى ورحت أبحث عن
مكان أجلس فيه . المدفأة الحديدية تبعث دفئاً لذيذاً ، لا يزال هناك ما يثير
دخان الفحم ، وكنت أشعر بغثيان خفيف يتحرك حامضاً فى معدتى .

فى الخارج كانت عربات الترام تقرقع حول المنحنيات وهى تغادر
المحطة ، العربات البيض المتسخة وصلت معاً - اثنتين اثنتين ، وثلاثات -
وابتعدت مرتجة صاخبة ، ينطلق صريرها من نقاط احتدام مثل عُقَدِ خيوط
تنحلّ وتختفى فى قنوات أبعد .

الماء يغلى فى مكينة القهوة ، الولد الأبله ماض فى امتصاص عود حلواه الذى لم يبق عليه غير طبقة وردية من السكر .

سألتى الفتاة من وراء المنضدة :

- « قهوة ؟ أترغب فى شىء من القهوة ؟ » .

أجبتها فى الحال :

- « نعم ، من فضلك » .

وكان نغمة صوتى أثرت فيها ، أدارت وجهها الهادىء الجميل إلى وأحنت رأسها مبتسمة وهى تدفع الكوب والصحن تحت رغبة المكينة . بهدوء فتحت علبة القهوة . وحين أخذت ملعقة منها هبت على نفحة من الفستق « الأرضى » ، وترددت لحظة قبل أن تسالنى :

« كم ؟ كم من القهوة تود ؟ » .

وبسرعة أخرجت نقودى من جيبى ، سوّيت القطع الورقية منها ، وبسرعة كومت القطع المعدنية ، حسبتها جميعاً وقلت :

- « ثلاثة ، أريد ثلاثة أكواب » . أجابتنى :

- « ثلاثة ؟ » .

وابتسمت مرة أخرى وأشارت برأسها :

- إذن سأعطيك دورقاً ، إنه أرخص » .

راقبتها وهى تضع أربع ملاعق من البن فى « المجزّء المعدنى الصغير » ، دفعته ، أبعدت الكوب ، ووضعت الدورق مكانه . وبهدوء عدّلت القفل ففتحت المكينة ، وبدأ الغليان . هسّ البحار عابراً وجهها ، ورأيت السائل

البنى الغامق ينساب إلى الدورق ، وصار قلبى يخفق بسرعة أكثر قليلاً مما كان .

أحياناً أفكر فى الموت ، وفى لحظة العبور من هذه الحياة إلى الحياة الأخرى ، وأحاول أن أتخيل ما سيظل معى فى الحياة الثانية : وجه زوجتى الضامر ، أذن القس البيضاء ، فى الاعتراف ، بضع جلسات هادئة فى الكنائس المعتمة مملوءة بتراتيل الطقوس ، وجلد أطفالى القرمزى الساخن وفى هذه اللحظة وأنا أراقب الفتاة تعدل قفل مكنة القهوة انتبهت إلى أنها أيضاً ستكون معى هناك . فتحت أزرار سترتى ، رميت قبعتى على كرسى فارغ وسألت :

«- أيمكننى تناول بعض اللفائف ، أهى طازجة ؟ »

أجابت : « طبعاً ، كم واحدة تريد ؟ » .

قلت : « أربع ، وعليها شىء من الزبد » .

«- أوه ، أونس ، أو ما يقارب ؟ » .

تناولت اللفائف من السلة ، وضعتها فى الصحن ، وبدأت تقطع بسكين قطعة من الزبد :

«- ليس لدى ميزان ، أيمكن أن تكون أكثر قليلاً ؟ »

قلت : « بالتأكيد » .

وكان واضحاً أنها وضعت إلى جانب اللفائف أكثر من « أونسين » ، لأن القطعة كانت هى الكبرى بين الأرباع الأربعة ، التى قُسِّمَت العلبه إليها .

وبعناية ، أزاحت الورق عن الزبد وجاءت تحمل الصينية إلى .

رفعتِ الصينيةَ عالياً ، قريباً من وجهي ، لأنه أرادتُ أن تمدَّ الشرشفَ بيدها الأخرى المتحررة ، فرحتُ أساعدها على نَقْضِهِ ، وللحظة رحتُ أشم شذى يديها ، شذى يديها كان زكيّاً .

قالت : « هذا ما أردت » .

قلت : « شكراً » .

صبيْتُ لنفسي كوباً من القهوة ، أضفت لها سكرًا ، حركتها وشربت . كانت القهوة ساخنة وطيبة جدًا . زوجتي وحدها تصنع قهوة مثل هذه ، لكي نادراً ما أنال قهوة في البيت ، ولا أدري كم مضى على من زمن منذ تناولت مثل هذه القهوة الجيدة . ارتشفت عدة رشقات شعرت بعدها في الحال بعودة روحي .

صحت : « مدهشة ، قهوتك مدهشة ! » .

ابتسمت ، وأشارت لي برأسها ، وأدركت فجأة كم أحببت النظر إليها . حضورها ملأني بالرضا والوجود المريح .

« لأول مرة يقول لي شخص إن قهوتي بمثل هذه الجودة » .

قلت : « نعم ، إنها كذلك » .

بعد ذلك سمعت قرقعة القناني الفارغة في الإناء المعدني ، في الخارج . بائع الحليب جاء بقناني ملأى ، ويهدوء عدتها بأناملها البيض : حليب ، شوكولاته ، لبن ، قشطة ، بدأت الحرارة تزداد في الكشك ، ولا يزال الولد الأبله يجلس هناك يمسك بعود السكر العاري في فمه ، يتلفظ أصواتاً تتفق ومناسباتها . يطلقها خطأً من كلمات تبدأ بـ « ز » فتبدو كأنها تبعث نغمًا من

« زوزو - زازا - زَوُزُو » إيقاع وحشى وسرى يثقل هذه البربرة . وإذا ما التفتت الفتاة إلى الأبله انتشرت على وجهه جهامة . دخل بعض مُصلحي الترامات . أزاحوا النظارات الواقية عن عيونهم ، جلسوا ، شربوا حليباً خلال قصبات فى القناني ، تبيّنت سمات المدنية مرسومة على صدورهم . فى الخارج ، كانت الأشياء نابضة بالحياة ، خطوط الترام اختفت الآن ، وعربات بيض مسوّدة ترسل صريها وهى تمر على فراغات منتظمة فى الخطوط الطويلة .

فكرت فى « كيت » زوجتى وبأنى سأكون معها ذلك المساء ، لكن علىّ أولاً أن أهتئ بعض النقود وأن أجد غرفة . ليس سهلاً أن أحصل على نقود ، وتمنيت أن أجد من يقدمها لى . لكن فى مدينة مثل مدينتنا ، مدينة الثلاثمائة ألف نسمة ، ليس سهلاً أن تجد فيها إنساناً يعطيك نقوداً فقط ، لأنك تطلب ذلك منه . أعرف أناساً قليلين من السهل سؤلهم ، وقررت أن أقصدهم ، ويمكنى فى الوقت نفسه أن أتطلع إلى الفنادق وأحاول إيجاد غرفة .

أنهيت قهوتى ، وقد قاربت الساعة . رائحة التبغ ملأت خياشيمى . معوّق عجوز ، خربّ ، هالك ، غير حليق ، جاءنى مبتسماً . جلس أمام المدفأة ، راح يشرب قهوةً ويُطعم الأبله شطائر جُبْن كات ملفوفة بجريدة . جلست الفتاة هادئة قرب الواجهة وبيدها حمالة صحون ، كانت تتسلم النقود وتعيد الباقي ، تبتسم وتهز رأسها ، وهى تضغط على مكنة النقود ، تجفف القناني بقطعة قماش بعد أن تخرجها من الماء الساخن .

كل شئ تفعله يبدو يسيراً ، وبدون جهد ، وإن ألحّ عليها بعض « الزبائن » أحياناً ، لقد تزاخوا حول المنضدة . صبّت حليباً ساخناً ، شراب

كاكاو يارداً وشراب كاكاو ساخناً ، تركبت البخار يتصاعد من مكنة القهوة ، يمر على وجهها ، التقطت بملقاط من خشب قطع مخلل من مكنة القهوة ، يمر على وجهها ، التقطت بملقاط من خشب قطع مخلل من «برطمان» زجاجي قائم - وفجأة فرغ الكوخ «الكشك» . وظل شاب واحد يدين ممتليء الوجه أمام المنضدة ، يحمل قطعة مخلل في إحدى يديه ، وقطعة ضلع ياردة في الأخرى ، . وبسرعة أفرغ كلتا يديه . أولع سيجارة ، وبيبء أخرج بعض النقود من جيب بدلتة الجديدة التي لم تتغصن إلا قليلاً . عرفت واثقاً أن وراءه يوماً من الراحة ، وأدركت أن الأحد بدأ تَوّاً في المدينة ، وهنا تذكرت كم كان صعباً اقتراض نقود يوم الأحد .

بعدها خرج شطائر الشاب ، تاركاً العجوز الملتحي مرتجفاً يضع في فم الأبله قطعاً من شطائر الجبن ، وبينما كان بصوت خفيف يقلد أصوات الطفل « زوزو - زازا - زُوزو » وإن كانت بربرة العجوز لا يملأها ذلك الإيقاع الوحشي المؤثر . استقرت عيناي على الأبله وهو يمضغ قطع خُبزه . وانحنت الفتاة على جدار الكوخ تراقبهما . كانت تشرب حليباً ساخناً ببطء من قلدح فخاري كبير ، وتقضم ملء فمها شريحة خبز جافة . كل شيء هادئ الآن وآمن . وأحسست أنا بلنفعال يتصاعد فيّ .

ناديتُ بشيء من الحزم :

- رجاء . . قائمة الحساب « ونهضت .

شعرت بشيء شبيه بالحيرة حينما رمقني العجوز المعوق بنظرة باردة فاحصة . الأبله هو الآخر التفت إليّ ، لكن نظرتة الواسعة الزرقاء انحرفت وتجاوزتني . في ذلك الصمت قالت الفتاة :

- « يكفى هذا يا أبى ، أظن برنارد أخذ كفايته » .

وأخذتِ الورقة النقدية من يدي وأسقطتها فى صندوق سجائر تحت المنضدة : وببطء عدت الباقي على زجاجة المنضدة . وحين دفعت بقطعة النقد على الزجاجة إليها ، أخذتها وهممت :
- « شكراً » .

ورفعتِ القَدَحَ الفخاريَّ الكبير إلى شفيتها لتشرب منه بعض الحليب .
كانت جميلة حتى فى رحابة النهار ، وترددت لحظة قبل أن أغادرها .
لقد بقيت هناك بضع ساعات جالساً فقط وأنتظر . أدت ظهري إلى ثلاثتهم ، وتوقفت ثم سحبت نفسى وأنا أتمتم :
- « مع السلامة » .

وخرجتُ عَجَلاً .

خارج الباب شابان ، كل منهما يرتدى قميصاً أبيض ، كانا يفتحان لافتة ويثبتانها على عمودين خشبيين . الأزهار متناثرة فى الشارع . انتظرت دقيقة حتى نُشرت اللافتة تماماً ، واستطعت أن أقرأ الكتابة : حروف مُحر على قاعدة بيضاء :

مرحى لراعى كنيستنا !

أشعلت سيجارة ، واستدرت متثاقلاً نحو المدينة لأقترض نقوداً وأجد غرفة لقضاء الليل .



حين ذهبتُ إلى الحنفية لأملأ الدلو ، لم أطق رؤية وجهي في المرأة . أنا امرأة يابسة ، جاءت لتعرف مرارة الحياة . لا يزال شعري كثيفاً ، وآثار الشيب في سالفى ، هذا الشيب الذى يعطى شعري الجميل مظهرًا فضيًا ، هو عامة الحزن من أجل طِفْلَيَّ اللذين أوصانى مَنْ اعترف أبى أمامه ، بأن علىَّ أن أصلى من أجلهما . هما فى عُمر فرائز الآن ، وبدءا يجلسان فى الفراش ليحاولا الكلام معي . لم يلعبا يوماً فى مروج مزهرة ، لكنى أراهما أحياناً فى مرعى مزهر ، فيختلط الحزن بشيء من الرضا - الرضا بأن هذين الطفلين فائضان عن حاجة الحياة ، مع ذلك رأيت أن لى بطفلين آخرين ، تصور - مخلوقين ينموان ، يتغيران سنة بعد سنة ، وتقريباً شهراً بعد شهر وأنها يمران بها مرّة به الطفلان السابقان . يتراءى لعينيَّ الطفلان الآخران ، هما واقفان فى المرأة وراء وجهي ، ويلوحان لى ، حكمة أدركتها دون أن آخذ بها . هذه الابتسامة التواقة فى عينيَّ الطفلين اللذين يلوحان لى فى المرأة ، شفق فضى - أرى فى عينيها صبراً - صبراً لا حدود له ، وأنا ، أنا لست امرأة صبوراً ، وأرفض التخلّى عن المعركة التى أخوضها ، والتى كانا ينصحاننى بالآبداها .

استغرق ملء الدلو وقتاً طويلاً ، وها قد بدأت قرقرة الامتلاء تعلو

وتعلو، بشيء من الإنذار ، إنها السرعة التى أسمع فيها امتلاء الميدان أخرى على عظام وجنتى البارزة قليلاً، هزلت كثيراً ، شحوب وجهى صار الآن اصفراراً ، وأتساءل إن كان علىّ تغيير صبغ شفتى هذا المساء ، قد أستعمل أحمر شفاه أكثر إشراقاً .

كم من آلاف المرات يجب أن تقوم يداى بهذه الحركات ! دونما نظر إلى الدلو ، كنت أسمع قد امتلأ . أغلقت الحنفية وأمسكت يداى بسرعة قبضة الدلو . أحسست بعضلات ذراعىّ تتوتر وأنا أنزل الدلو الثقيل متأرجحاً إلى الأرض .

وضعت أذنّى على باب « جزء » البيت الذى اقتسمناه بقواطع من خشب، أنصت لأتأكد من أن فرانز لا يزال نائماً .

بعدها بدأت معركتى ، معركتى ضد القذارة . لا أدرى كيف أنقذ الأمل بما يميته ، أجّلت الهجوم قليلاً ، مشطّ شعرى بدون النظر إلى المرأة . نظفتُ صحن الإفطار ، وأشعلت نصف السيجارة المتروكة على الدولاب بين كتاب الصلاة ودورق القهوة . استيقظ الجيران فى الغرفة المجاورة ، أستطيع سماع هسيس اشتعال الغاز بوضوح أسمع قهقهات الصباح الباكر، وتلك الأصوات الكريمة التى تنفجر فى بعض الأحاديث . ربما هو لا يزال فى فراشه ، تتهامته غير مفهومة ، أستطيع تمييز الكلمات حينها تبتعد .

« الأحد الماضى أردتُ أشتري بعد المطاطيات ... متى يدفعون لنا ؟ ... »

يبدو أنه راح يقرأ إعلانات السينما ، سيذهبون إلى « بار » . وبدأت أسف قليلاً على أن لى موعداً مع فريد ، فستكون الغرفة المجاورة هادئة هذا

المساء . لكن « فريد » الآن في طريقه ربما ليحصل على غرفة وبعض النقود ، وقد فات الأوان لإلغاء موعدها . وأنا استنفدت سجائري .

لحظة حركتُ الدولار ، تدرجت على من الحائط قطع من البلاستر الجصى ، قطع تهاوت بين أرجل الدولار وانتشرت على الأرض ، يوم طباشيرى جاف وناعم ، يبدأ بالتفتت . أحياناً ينزلق لوح كامل إلى أسفل وتتوالى قرعته بسرعة ، وحين أحرك الدولار يهوى بعاصفة مُحمّدة ،

في حين تنبئني سحابة طباشيرية بأن يوم معركة استثنائية قد طلع على فجره ، استقر الغبار على كل شيء في الغرفة ، طحين ناعم لطيف يضطرنى لأن أمرّ على كل شيء أنظفه مرتين ، وأنه ليلتمّ تحت قدمي ، وأسمع عبر الجدار البسيط لذلك المسكن المجزأ الطفل يسعل ، يحاول التخلص من ذلك الغبار المفرز في حنجرته . تصاعد اليأس في داخلي ، صار المأجسدياً ، حنجرتي أطبقت على غبار غضبٍ حاولت ابتلاعه . أخذته ، لكنّ مزيجاً من غبار ودموع وخيبة انزلق إلى معدتي ، لقد بدأت الآن المعركة فعلاً . وجهي يلتّم من ألم ، كنسّ الثار بعد أن فتحت النافذة ، بعدها مسحت بمنفضتي الغبار عن أوجه الأشياء . أخيراً غطّست ممسحة الأرض في الماء ، وما إن حاولت تنظيف أوّل مساحة مربعة وأغسل ممسحة الأرض حتى بدأت سحابة بيضاء تنتشر في الماء . بعد المساحة المربعة الثالثة ، صار الماء كثيفاً ، وحين أفرغت الدلو ترسب ثقل طباشيرى مقرف ، أزحته بيدي ، وغسلت الدلو ، كان علىّ أن أملأ الدلو مرة أخرى .

أنظر إلى وجهي في المرآة ، عيناى لمحتا شيئاً ، أستطيع رؤيتهما ، طفليّ : ريجينا و روبرت . . تَوَأَم ولدتها كى أتحمل فقط رؤيتهما يموتان . إنَّ يَدَيَّ فريد هما اللتان قطعتا الحبل السرى وغليتا الأدوات ، واستقرتا على جبھتي

حين كنت أصرخ من الألم . لقد ترك المدفأة موقدةً ، لف سيجارتين لكلينا ، وكان هارباً من الخدمة ، وكنت أشعر بمزيد من الحب له حين أدركتُ قَدْرَ كُرْهِهِ للقانون . رفعني بذارعيه . . حملني إلى السرداب ، وكان إلى جانبي حين وضعتها لأول مرة على صدرى ، هنالك ، تحت في السرداب البارد الذى لا يتغير هواؤه ، إلى جانب ضوء شمعة خافت « كليمنز » جالس على كرسيه الصغير ينظر في كتاب مصور والقنابل تتفجر فوق بنايتنا .

تلك الأصداء الكبيرة تذكرنى الآن بمعركتى ضد القذارة والشار المتهاوى ، فما إن ذهبت مرة أخرى يتأرجح الدلو في يدي نازلة إلى الأرض ، حتى رأيت الأمكنة التى غسلتها قد جفت وكشفت عن طبقة طباشيرية بيضاء وبقع كريهة أعرف أنها لا تزاح . هذه اللاجدوى الباهتة تقتل انتباهاتى الحية ، تدمر قُواى ، والتشجيع الذى يمدنى به الماء النظيف فى الدلو الذى أحمله ، قد هبط الآن إلى حده الأدنى .

مرة أخرى ، أخرى أحمل الدلو الفارغ لأضعه تحت ماء الحنفية ضعيف الجريان . وتقع أيضاً عيناى على المساحة البيضاء غير المضاءة فى خلفية المرأة ، ورأى جَسَدى طفلى تغطيهما لسعات البعوض الوارمة ، مثخن جسدهما من عض القمل فيعترينى إيلام فى معدتى وأنا أفكر فى جيش الهوام المشحون إلى الحرب . . بلايين القمل والبعوض والقراد تتحرك حالما تندلع الحرب ، تتبع الأمر الصامت الذى يقول لها :

هنالك طعام يمكن الحصول عليه .

أوه . . إنتى أدرى ! أدرى ولا أظننى يوماً سأنسى أننى كنتُ أدرى أن الموت يأتى إلى طفلى من القمل ، فقد باعوا لنا علاجاً عديم الجدوى من

مصنع يديره ابن عم وزير الصحة ، في حين حُظِرَ العلاج الجيد ، الفعّال ..
أدرى ، ولا أظننى أنسى ، لأننى أراهما ، هناك فى المرأة ، أثمرين من
الحشرات ، قبيحين ، محمومين وبيكيان ، جسداهما الصغيران متورمان من
زرق الإبر اللامجديّة . وفحت الحنفيه يدون أن أرفع الدلو ، فالיום هو
الأحد ، وسوف أجد راحة نفسى ، فى هذه المعركة ضد القنارة التى هيجتها
الحرب .

وأرى وجه فريد شائخاً جافاً ، أتلفته حياة لا طائل وراءها ، ودائماً لا
طائل وراءها . حياة ستظل لا طائل وراءها . فهى خلو من الحب ، لا تثير
أية محبة فى وجه رجل استسلم فى سن مبكرة إلى اللامبالاة بإزاء أى شىء مما
يجهد الناس للحصول عليه . أراه كثيراً ، وأكثر من أى وقت ، وإن لم يعد
يعيش معنا . ابتسم فى المرأة ، تدهشنى رؤية ابتسامتى أنا التى لا أعرف
عنها شيئاً ، أصغى لقرقرة الماء فى الدلو ترتفع ، ترتفع أكثر . أخفق فى
استعادة نظرتى من المرأة لأحيلها إلى وجهى . وجهى الحقيقى الذى أعرفه
غير مبتسم .. وراء وجهى أرى نساء - نساء صُفراً ينجزن غسيلهن جنب
أنهار موحلة ، أسمع غناءهن - أرى نساء سوداً يحفرن فى أرض لفحتها
الشمس ، أسمع قرع طبول لا معنى لها ، ولكنها أسرة ، من رجال عاطلين
أراهم فى خلفية المرأة . أرى نساء سُمراً يطحنّ حبوباً فى رحى حجرية ،
يحملن رُضّعاً على ظهورهن على حين يقبع الرجال بغباء حول النار يدخنون
غلايينهم - وإخواتى البيض فى حجرهن ، فى لندن ونيويورك وبرلين ، فى
تلك الأزقة المظلمة ، فى شوارع باريس الخلفية ، وجوههن مألومة ، يصغين
مرعوبات لصراخ مخمورين . وأرى بعيداً فى المرأة ، أرى جيش الجحيم
يتقدم ، تحرك غامض بلا نشيد للهوام ، إنه يتقدم حاملاً الموت لطفلى .

لكن الدلو قد امتلأ منذ حين ، ومع أنه الأحد ويجب أن أغتسل ، فأنا اليوم على أن أقاتل القذارة . منذ سنين وأنا أقاتل القذارة في هذه الغرفة الصغيرة ، أنا أملأ الدلاء وأعصر الثياب ، أسكب الماء القذر في البالوعة ، وافترض أنى سأكسب معركتى ، فأرانى ثانية أقشع قدراً من التلف الطباشيرى ، وأزيح بقدر ما أضاف البناءون مبتهجين من ملاط على جدران هذه الغرفة قبل ستين سنة . كلما رحت أملأ الدلو تنظر عيناي في المرأة ، وحين ترتدان من الخلف تقعان أمام هى يابستين بلا حياة ، تراقبان اللعبة اللامرئية ، ثم أرى على وجهى ابتسامة قد تكون سقطت من وجوه أطفالى على وجهى وبقيت عليه . أو هى في وجهى تعبير عن قرار قاس ، عن كراهة وقسوة يملاننى بالكبرياء أكثر ممن ينذراننى ، إنها قسوة وجه لا ينسى .

لكن اليوم هو الأحد ، وأنا ماضية لأكون مع فريد . الرضيع نائم . وكليمنز خرج إلى الموكب مع كارلا ، ومن الفناء أستطيع سماع أصداء طقوس ثلاث كنائس يخترقها جميعاً غناء خشن لزنجى .

إن غناء ذلك الزنجى كان الشيء الوحيد الذى يلامس قلبى :

« ... وهو أبداً لم يقل كلمة »

لعل فريداً سيسكب بعض النقود وسنذهب عندئذ للرقص ، سأشتري قلمً حمرة جديداً ، أشتريه ديناً من سيدة مالكة في الطابق الأسفل . وسيكون لطيفاً إن أخذنى فريد للرقص . أستطيع أن أبقي هنا أسمع صراخ الزنجى الخشن الجميل ، أسمعه خلال اثنتين من صلوات الماء ، وأستطيع أن أحس بالكراهية تكبر في قلبى للأصوات الأخرى التى تنقطر قوتها في داخلى مثل تحلل بطيء :

« لقد سمروه على الصليب ، سمروه على الصليب » .

نعم هو الأحد ، غرفتنا ملاءى برائحة « الروست » . إن هذه الرائحة
تبكىني ، تبكىني على فرح الأطفال بها ، والذين نادراً ما ينالون لهما :

« ... لم يقل كلمة » يغنى الزنجى .

« ... ولم يقل كلمة » .



عدت إلى محطة القطار ، أخذت بعض القطع النقدية الصغيرة من محاسب « مطعم الأكلات الخفيفة » ، وقررت أن أسلك أسهل الطرق إلى الخارج ، فقد كان اليوم يوم أحد ، كنت شديد التعب وشديد التعاسة ، لا طاقة لي على الذهاب ورؤية كل أولئك الناس الذين أستطيع أن أفترض منهم نقوداً ، لذلك فكرت أن أتصل هاتفياً بالذين عندهم هواتف ، في الهاتف أحاول أحياناً أن أشيع صوتي بتلك النغمة التي تؤكد الثقة بصاحبها ، والتي تتضح في وجه المقابل وتضغط على سحاب فتح المحفظة . كانت مقصورة الهاتف في المحطة خالية ، دخلت وأدريت أرقام هواتف عدة فنادق ، وأخرجت دفتر ملاحظاتي لأرى أرقام هواتف ناس يمكن أن أطلب منهم مالاً ، كان في جيبى كثير من القطع النقدية الصغيرة ، وترددت قليلاً ، تطلعت إلى ورقة جدول التعليمات المتهرئة ، على جدران المقصورة تعليمات استعمال الهاتف وعليها الكثير من الخربشة ، أسقطت أول قطعتين من النقود في الفتحة .

كلما حاولت الاتصال بأحد ، ضغطت على همّ طلب النقود ، حتى تحول ذلك إلى كابوس ، فلم آسف على أنى كنت مخموراً . أدريت رقم الرجل الأكثر احتمالاً أن يقترضني شيئاً ، لكن رفضه سيجعل كل شيء في أسوأ

حال . فالأشد إخراجاً بعده سؤال الآخرين . وهكذا تركت القطعتين الآخرين تستقران في جوف الجهاز ، ضغطت على الذراع مرة أخرى وانتظرت قليلاً . كان العرق يتجمع على جبهتي ، مما جعل قميصي يلتصق على ظهر عنقي ، وأدركت في ذلك الوقت كم عولت كثيراً على اقتراض النقود ، خارج مقصورة الهاتف ، رأيت ظل رجل بدا منتظراً ، كنت أوشك على ضغط الزر الآخر لأخرج نقودي مرة أخرى ، ففرغت المقصورة الثانية واختفى الظل الذي كان وراء باب مقصورتى . مازلت متردداً . فوق رأسى ترعد القطارات داخلية خارجة ، ومن بعيد أستطيع سماع صوت مذياع المحطة . مسحت العرق وقلت لنفسى :

لن أستطيع في وقت قصير أن أنال النقود التى أحتاج إليها لأكون مع « كيت » .

كنت شديد الخجل وأنا أدعو الله لِيَهَبْ لى أحداً أطلب منها النقود بيسر . جمعت نفسى وأدركت الرقم مرة أخرى ، وأبعدت يدى اليسرى عن الذراع ، فما عدت قادراً على ضغطها مرة أخرى ، حين أدركت الرقم الأخير . مرت لحظة صمت تبعها أزيز ، واستطعتُ تمييز مكتبة سيرجى ، حيث ىرن الهاتف الآن ، أستطيع رؤية كل كتبه - النقوش المثيرة على الجدران ، النوافذ الملطخة الزجاج تطل على القديس كاسيوس ، تذكرت اللافتة التى رأيتها قبل قليل :

« مرحى لراعى كنيسةنا »

وأدركت طبعاً أنه يوم الموكب ، وأن سيرجى ربما لا يكون فى البيت . كنت أنضح عرقاً ، أكثر غزارة من أى وقت مرَّ بى ، ربما أخفقت فى سماع صوت سيرجى أول مرة ، لأنه قال جَزَعاً :

- « هلو ، عَن المتكلم ؟ » .

ومن نغمة صوته ذابت كل شجاعتى ، وأكثرها تسرب عبر رأسى فى
ثانية واحدة . لكنى ، إذا سألته مالاً فسيكون قادراً عندئذ على التمييز بين
مستخدمه وبينى أنا المقترض ، فقلت بأعلى ما يمكن :
- « إنه بوكتر » .

ومسحت العرق البادر بيدى اليسرى وأصغيتُ بدقة لصوت سيرجى ،
ولن أنسى ارتياحى حين سمعت صوته يتخذ نغمة ودية .
قال : « أوه ، هذا أنت ! لماذا تتكلم مضطرباً ؟ »
قلت : « كنت أخشى أن » .

ظل صامتاً ، وكنت أسمع رعد القطارات ، وصوت مذيع المحطة فوق
رأسى ، وكنت أرى امرأة وراء باب المقصورة . تلمست مندىلى .
كان قدراً رطباً . صوت سيرجى صدمنى بين عينى حين قال :
- « حسن ، كم تريد ؟ » .

كنت أسمع خلال الهاتف أجراس كنيسة ييفانى الجميلة الباكية كأنها
ربطوا رنينها الداوى بسماعة الهاتف . بصوت خفيض قلت :
- « خمسين » .

- « كم ؟ » .

- قلت : « خمسين »

ولا زلت مضطرباً من الضربة التى لم يقصدها ، لكن هكذا هى الأمور ،

حين يسمعى شخص ، يرانى ويعرف فى الحال أنى سأطلب منه مالا .

سألنى : « كم الساعة الآن ؟ »

وفتحت باب مقصورة الهاتف ، نظرت أولاً إلى وجه امرأة عجوز مكفهر كانت واقفة هناك هزت رأسها حين أخرجت رأسى ، ثم - فوق لافتة اتحاد الدوائين - رأيت ساعة المحطة ، وأجبت فى الساعة :

- « الساعة والنصف » .

صمت سيرجى ثانية ، سمعت زنين جرس الكنيسة الناحب ، ثم قال :

- « تعالى حوالى العاشرة » .

خشيت من أن يقطع المكالمة فقلت عجباً :

- « هلو ، سيدى ، هلو ؟ »

« نعم ، ماذا ؟ »

« أستطيع أن أعتمد . . . » .

« يمكنك . . وداعاً » .

وسمعتة يضع الساعة ، وضعت سماعتى ، وفتحت باب المقصورة .

قررت أن أوفر ثمن المكالمات وسرت متمهلاً فى المدينة أبحث عن غرفة .

كان صعباً العثور على غرفة بسبب الاحتفال الكبير ، فهناك الكثير من الزوار فى المدينة ، ومجرى السياح الأجانب لم يتوقف . المؤتمر جلب أخيراً مثقفين من جميع أنحاء البلاد . صارت المناسبة معروفة للجراحين وهواة الطوابع والمنظمات الخيرية ، فهم يجتمعون كل سنة فى ظل الكاتدرائية ، لقد

ملأوا الفنادق، رفعوا الأسعار ، وأسرفوا في صرف حساباتهم الكبيرة ، والآن هم الدوائيون ، الذين يجتمعون .

يستعرضون في كل مكان ، يحملون أعلاماً مُحرّماً صغيرة وشارات تنظيماتهم على صدور سترهم ، لا يبدو لبرد الصباح الباكر تأثير في حالتهم الروحية . يتبادلون كلام الباعة البهيج في السيارات وفي الترام ، ويندفعون إلى لقاءات جمعيات وانتخابات هيئات ، ويبدو أنهم قرروا إشغال كل فندق من الفنادق متوسطة الأسعار ، ولأسبوع على الأقل ، كان هناك فعلاً الكثير من الدوائيين ، وكثير من هؤلاء تصحبهم زوجاتهم لمناسبة نهاية الأسبوع ، بما شكل صعوبة في الحصول على عُرف ذات سريرين ، كما أن التجمع أقام معرضاً . وهناك لافتات تدعو الناس لزيارة هذا المعرض الفخم للمنتجات المهجّنة . . مجاميع من العقائديين يظهرون بين حين وآخر في مركز المدينة بمسيرة تتجه إلى موقع التجمع ، قس محاط بمشاعل باروكية وهاجة ، ومنشدون بأرواب مُحرّ ، ورجال ونساء في أناقة يوم الأحد .

منتج معجون أسنان استأجر منطاداً ذا محرك يلقي بمظلات بيض . المظلات طفت ببطء باتجاه الأرض ، حاملة صناديق من معجون الأسنان فوق المدينة ، وعلى السّد كان مدفع ضخّم يفجّر بالونات تحمل ماركات منافسة ، عجائب أكبر أعلنت ، وكان هناك كلام بأن « خدعة » إعلانية عن منتج بضائع مطاطية كبير خربتها الكنيسة .

حين بدأت الاتصال بسيرجى في الساعة العاشرة لم أكن قد وجدت غرفة بعد ، وكان رأسى يترّ بأعذار مالكات النزل ، والأجوبة القاطعة للنوادل ذوى العيون الغائمة من شهر .

المنطاد ذو المحرك اختفى فجأة ، والمدفع الذى كان يُطلق من فوق

السطح ، لم يعد يُسمع ، وحين سمعت ترانيم الأدعية تأتي من القسم الجنوبي للمدينة ، علمت بأن الاجتماع يوشك على البدء الآن .

العاملة بيمتزل سيرجى استقبلتنى فى المكتبة . قبل أن أجلس ، دخل سيرجى عبر غرفة النوم ، ورأيت فى اللحظة نفسها تقوداً فى يده .

رأيت قطعة ورقية خضراء ، وواحدة زرقاء ، وفى الأخرى بعض قطع معدنية ، حذقت فى الأرض ، مستظراً ظله يسقط على ، ثم رفعت بصرى ، وقد دفعه تعبير وجهى إلى القول :

- « تعال ، ليست الأمور بهذا السوء » .

لم أعترض عليه .

- قال : « ها هى ذى »

مددت يدى مبسوطه إليه ، وضع القطعتين الورقتين فى يدى اليمنى ، وكوم القطع المعدنية فوقها قائلاً :

- « خمسة وثلاثون ، هذا أقصى ما أستطيع ! »

قلت : « أه ، شكراً » .

نظرت إليه وحاولت أن أبتسم ، لكن نشيجاً لم أسيطر عليه انبثق منى كمن يتجشأ . لاشك أن مابدا على حَيْرُهُ . نفص رداءه بُعناية . يدها مقلمتا الأظافر جيداً ، وخداه الحليقان ، كل ذلك جعلنى أمام رثاءة شقتنا ، والبؤس الذى تنتفسه طيلة عشر سنوات مثل غبار أبيض لانحس به ولا نلمس له طعماً - ذلك اللامرئى ، الذى لا وصف له . لكننا نعرفه غبار التعاسة الأصيل الذى استقر فى رتى ، فى قلبى ، فى دماغى ، ذلك الذى

تسلط على دمي وتركز في جسدي ، ذلك الذى جعلنى الآن متقطع النفس ،
أسعل قبل أن أستطيع انتشاق الهواء .

قلت بجهد : « حسن إذن ، وداعاً وشكراً جزيلاً » .

- « نحياتى لزوجتك »

- « شكراً » .

تصافحنا ، وسرْتُ نحو الباب ، حينما التفت ، رأيته قد رفع يده مباركاً .
ورأيتُه واقفاً قبل أن أغلق الباب : يذاه تتدليان واهنتين إلى جانبيه ، ووجهه
في حُمرَة البُشْمندر . كانت باردة في الخارج فقلَّبْتُ ياقة سترتى . سمعت تَوّاً
صوت الصلوات ، أصوات « الترمبونات » وأصوات النساء يُغَنِّين ، وقد
تلتهن وأخفت أصواتهن أصوات كورس الذكور . هبَّات الريح قربت الغناء
أكثر ، سياقات موسيقية مزجتها ريح الخرائب بالغبار . كل مرة ترشق
الريح الغبار على وجهى ، وتصدمنى عاطفية الغناء . لكن الغبار توقف
فجأة ، وعلى بعد ياردات وجدتُ نفسى فى الشارع وحيداً حيث اعتاد
الموكب أن يمر . لم يكن هنالك الكثير من الناس على الماشى ، فتوقفت
منتظراً .

راعى الأبرشية، وقد تجلبت باللون الأحمر للشهداء ، سار وحيداً بين
حاملى القربان المقدس وفرقة المنشدين - وجوه المنشدين المتوردة بدت متنفخة
وشبه بلهاء ، كأنهم لا يزالون يصغون إلى الترتيل الذى توقفوا عنه .

راعى الأبرشية كان رشيقياً ، طويل القامة ، شغره الأبيض الكثيف خرج
من تحت قبعته التى يلائم حجمها رأسه تماماً . لقد كان مُسْتَدّاً ، ويداه
مُثَبِّتَيْن ، أستطيع القول إنه لم يكن يصلى ، وإن كانت يداه مثنيتين ، وعينه

تنظران محدقتين إلى أمام . الصليب الذهبى على صدره يتأرجح تأرجحاً لطيفاً وعلى إيقاع مدى خطواته .

كانت للراعى مشية فخمة ، متهايلة ، وعند كل خطوة يحرك قدمه ذات الخف المراكشى الأحمر ، إنها مثل خُطى نوع لطيف من الإوز . كان الراعى ضابطاً عسكرياً . وجهه نورانى حسن التصوير ، يصلح كثيراً لغلاف مجلة دينية .

أعضاء التجمع الكاتدرائى يتبعونه تاركين مسافة صغيرة تفصلهم عنه . من هؤلاء اثنان فقط حظيا بوجهين نيرين ، كل الآخرين كانوا صارمين جُهمًا ، إمّا شاحبون جدًا أو شديدو الحمرة ، وعلى وجوههم تعبير سخط غير محدد السبب .

كانت « الظلَّة » الباروكية كثيرة الأحزمة يحملها أربعة رجال يرتدون ثياباً سوداء شبه رسمية ، ويسير تحت الظلة أسقف الأبرشية حاملاً وعاء القربان المقدس . تتعذر على رؤية مركز التجمع ، بسبب سعته ، ولقد ركعت ورسمت إشارة الصليب وانتابنى إحساس خاطف بأننى منافق ، حتى تذكرت أن الله كان بريئاً ، وليس رياءً أن أركع أمامه . وكل الناس على الأرصفة تقريباً ركعوا إلّا واحداً طويل القامة ، يرتدى جاكِتاً من المخمل المضلع ، وقبعه ظل واقفاً لم يحرك قبعته أو يخرج يديه من جيبيه . أفرحنى أنه لم يدخن . جاره أخيراً رجل أبيض الشعر ، همس له بشىء ، وبهزة كتف رفع قبعته وحملها بيده أمامه ، لكنه لم يركع .

فجأة شعرت بأننى حزين جداً . وتابعت عينائى حاملى أوعية القربان المقدس وهم يبدؤون الحركة فى الشارع الشاسع . كان هنالك الركوع

والاستقامة ونفض السراويل من الأتربة ، كل ذلك يتحرك مثل موجة .
بعد حاملي أوعية القرايين جاءت مجموعة من عشرين رجلاً ثياب سوداء .
كانت الثياب كلها نظيفة ، حسنة الخياطة ، إلا بالنسبة لرجلين ، فلم تكن
ثيابها ملائمة لهما ، علمت لحظتها أنها عاملان . لابد أن يكون أمراً حرجاً
أن يسيرا بين رجال آخرين ثيابهم ملائمة لأصحابها تماماً ، فهذا يعنى أن
أولئك يرتدون ثيابهم الخاصة ، واضح أن العاملين قد استعارا ثوبيهما
السوداوين ، فمعروف جداً أن لراعى الأبرشية وعى اجتماعى عال وقد أصر
على أن يكون بعض العمال بين حاملي الظلة .

مرت مجموعة من الرهبان ، كان منظرهم مؤثراً ، رداؤهم الكهنوتى الأسود
فوق صدرياتهم «الكريم» ، بقع الشعر المحلوقة بدقة تعلو رؤوسهم المحنية
كل ذلك كان مؤثراً جداً ، ولم يكن على الرهبان طى أيديهم ، فقد كان
يمكنهم إخفاؤها فى أكمامهم الطويلة . . تحركت المجموعة إلى الأمام ،
الرؤوس المحنية فى حالة استغراق ، صامته تماماً ، ليسوا مسرعين جداً ،
ليسوا بطيء ، هم يمشون وفق اتساق روحى ، الياقات العريضة ، الأرواب
الطويلة ، والتناسق الجميل بين الأسود والأبيض ، كل ذلك أضفى عليهم
شيئاً هو الشباب والنباهة معاً ، ولابد أن المشهد جعلنى أعنى أن أكون
واحدًا بين صفوفهم ، لكنى أعرف بعضهم وأعلم أنهم فى ثياب القسس
ليسوا أفضل من الآخرين .

الأكاديميون يصل عددهم إلى المائة ، بدوا نابهن جداً ، بعضهم فى
الأقل يبدون كذلك . بعض الوجوه تحمل سحنة النباهة ، كان أكثرهم فى
ثياب سوداء ، لكن بعضهم كان يرتدى ثياباً اعتيادية ، رمادية غامقة .

أعقبهم قسس من مختلف أبرشيات المدينة ، إلى جانبهم مشاعل باروكية كبيرة ، ورأيت حينها كم من الصعب على قس مدنى امتلاك شكل جيد فى تلك الأردية الكهنوتية الباروكية ، بعض القسس لم يكونوا محظوظين جداً إلى إلى حد امتلاك مظهر نورانى ، بعضهم كان ثقيلاً ويبدو غليظاً تماماً .

ومعظم الناس فى الشارع بدؤوا فاقدى العافية ، متضايقين ، بل مُحرجين .

أفراد من جموع الطلبة يرتدون قبعات ملونة بهيجة ، وأولئك الذين يسبرون فى الوسط ، كل واحد يحمل علماً ملوناً بهيجاً يرتخى إلى أسفل حريراً ثقيلاً . كانت هناك سبعة أو ثمانية تشكيلات من الطلبة ، كل واحد يتكون من ثلاثة صفوف ، والمجموعة كلها تبدو ملونة مفرحة ، ومن أجمل ما رأيت ، وجوه الطلبة تبدو ساكنة جداً ، وكلهم يحدقون أماماً لا يطفرف لهم جفن ، ينظرون إلى هدف بعيد جداً ، وفاتن جداً ، ولا يبدو أى منهم عارفاً أنهم يبدون بذلك مضحكين ، أحدهم يرتدى قبة زرقاء وحمراء وخضراء - ينضح وجهه عرقاً ، وإن لم يكن الجو حاراً ، لكنه لا يبدو مضحكاً كثيراً قدر ما يبدو فاقدًا سعادته . أتصور أن هناك شيئاً ، قاعة شرف مثلاً ، وأنه سيُطرد منها بسبب مواصلته نضح ذلك العرق الغزير خلال المسيرة ، وأن هذا قد يعنى نهاية مسار حياته ، إنه فعلاً يعطى انطباعاً عن رجل خسر فرصته فى الحياة ، وكل الآخرين الذين لا ينضحون عرقاً ، يبدون كأنهم لن يعطوه بعد فرصة أخرى .

مرت مجموعة كبيرة من أطفال المدارس ينشدون بسرعة شديدة وبشىء من عدم الانتظام ، وإن غناءهم كان يشبه إنشاد مدفع ، فالكلمات التى ينشدها رؤساء المجموعة يرددها الآخرون عالياً وراءهم ، بعد ثلاث ثوان ،

بضعة معلمين شباب في ثياب سوداء ، جديدة ورَجُلًا ديني كل واحدٍ منهما يرتدى مَدْرَعَةً ذات نطاق ، كانوا يركضون في محاولة لحفظ التزامن في الإنشاد وهم يهزون أذرعهم محاولين تنظيم السرعة والإشارة إلى قواعد الهارموني لأولئك البعيدين عنهم ، ولم يكن لكل ذلك جدوى . فجأة دار رأسي ، فلم أعد أرى الناس في المسيرة ولا المراقبين . فالقطاع الذي أنا فيه قد انكمش كما لو أنه قد ضُغِطَ ، وخلال ضباب كان يتحول رماديًا ، رأيتهما هما فقط ، طفلي ، كليمنت وكلارا ، الولد شاحب جدًّا في بدلته الزرقاء يحمل مقابل صرته الشارة الخضراء لعضو الكنيسة الأول ، ويحمل شمعة . وجهه العزيز ، الوجه الطفولي الوديع ، كان شاحبًا وابتي ، التي تحمل لون شعري الأسود ، واستدارة وجهي وتكوينها الرقيق ، كانت تبتسم قليلاً ، وإن كنت بعيدًا عنهما ، فقد رأيتهما بوضوح تام ، رأيت ذلك الجزء من حياتي ، مثل جزء من حياة رجل غريب مات ودفنت حياته معه . وفي طفلي وهما يسيران قدمًا بهدوء حاملين شموعهما عبر حقل الرؤية الضيق المتاح لي - رأيت ما كنت أظن دائمًا أنني أعرفه ، إننا فقراء .

كان يحملني مد الجموع التي تتالت في أعقاب الموكب ، والتي قررت حضور المراسم الأخيرة في الكاتدرائية .

فكرت لحظة في الإفلات إلى الجانب الآخر . لكنني كنت متعباً لا أتبين طريقى ، تركت نفسي يجرفها المدّ ببطء إلى الخارج ، كان الناس مقرفين ، أنفر منهم ، وقدر ما أتذكر كنت دائماً أضدّ عن العقاب الجسدى ويؤلمنى أن يُضْرَبَ إنسان أمامى ، وأمنع ذلك متى ما كانت لى القدرة على منعه ، حتى بين أسرى الحرب . سبب لى ذلك كثيراً من المتاعب والمخاطر ، فما كنت أستطيع احتمال رؤية الأسرى يجلدون ، لكن لم أكن أستطيع فعل شيء

بإزاء ما أشمئز منه ، حتى إذا هممت أن أفعل شيئاً ، ولم أكن أستطيع احتمال بقائى صامتاً أراقب إنساناً يُضرب أو يُقَسى عليه . وكنت أتدخل ، لا لأنى أشعر بالراء له ، أو بالحلب له فى الأقل ، ولكن ببساطة ، لأنى لا أحتمل ذلك ، لكنى خلال الأشهر الأخيرة صرت غالباً ما أحس برغبة لتوجيه ضربة لأحد ما فى وجهه ، حتى صرت أضرب أطفالى ، إذ تثيرنى ضوضاؤهم بعد عودتى متعباً من العمل . صرت أضربهم بقوة ، وأدرك أنهم يعانون الظلم من خلالى ، لكنى كنت أفقد السيطرة على نفسى .

دائماً ما تسيطر علىَّ رغبة مفاجئة فى ضرب أحد ما فى وجهه : المرأة الناحلة التى تسير الآن إلى جانبى فى الزحام ، هى قريبة جداً منى ، حتى لأشم عطرها الحامض المتبدل . وجهها ملموم القسائم من كراهة ، وتنهر زوجها الذى يتقدمنا ، وإنه ليشبهها هيئة ، ضيق الكتفين ، يرتدى قبعة خضراء من لباد :

هَيَّا عَجِّلِ ، التحقى بى ، ستأخر عن اللقاء !

شققت طريقى بعيداً إلى اليمين ، واستطعت أن أخلص نفسى من المجرى ، توقفت أمام واجهة مخزن ، وتركت مجرى الناس يجتازنى . تحسست النقود التى فى جيبى ، حسبت الأوراق النقدية وقطع النقود المعدنية بدون أن أخرجها من جيبى ، وتأكدت من عدم فقدان شىء منها .

رغبت فى كوب من القهوة لكن تذكرت أن علىَّ أن أحرص على النقود .

فجأة خلا الشارع ، فلم أعد أرى الآن إلا القذارة : الأزهار المسحوقة ، التراب المخلوط بالجلص ، واللافتة المعلقة منحرفة بين أعمدة الترام . بالأسود والأبيض ، كتبوا عليها السطور الأول من التريمة :

الثناء عليك أيها الرب ،

أمنّا المقدسة ، باركي نذورنا .

وبعض اللافتات تحمل رموزاً : حملان ، وكثوسا ، سعفات نخيل ،
قلوباً ومراسى سفن .

أشعلت سيجارة ومشيتُ باتجاه الطرف الشمالى للمدينة . من بعد كانت
تصلنى أناشيد الموكب ، لا تزال تُسمع ، لكن بعد دقائق عمّ الهدوء ،
فعلمت أن المواكب وصل إلى الكاتدرائية ، التى تخلو عادة صباح الأحد .
وجدت نفسى بين مجموعة من المتعلمين الشباب الذين بدأوا يناقشون فيلماً .
كانوا يرتدون معاطف مطرية وقبعات وقد شكوا مجموعة حول فتاة جميلة ذات
بلوزة خضراء براقعة وبنطلون قصير مما يرتديه الجنود الأمريكان :

« . . . عبارة مؤثرة . . . »

« . . . ولكن الوسيلة . . . »

« . . . كافكا . . . »

لم أستطع إبعاد طفلى عن ذهنى . فكأنى أراهما وعينائى مُطبقتان .
طفلاى ، الولد ذو الثلاث عشرة سنة ، والفتاة ذات الحادية عشرة . مخلوقان
شاحبان ، مقدّر عليهما أن يمرّا تحت طاحونة العذاب الكبير . إنها يجبان
الغناء ، لكنى كنت أمنعهما عنه فى البيت .

روحاهما العاليتان تجاوزتا قدرة أعصابى ، علت ضوضاؤهما فانهلْتُ
عليهما بالضرب ، أنا ، ذلك الشخص الذى ما كان قادراً يوماً على احتمال
مشهد عقوبة جسدية ، ضربتهما على وجهيهما ، على ظهريهما ، لأنى أردتهما
هادئتين ، أردت سلاماً وهدوءاً فى الأمسيات حين أعود من العمل .

صوت الإنشاد يعلو في الكاتدرائية ، الريح تأتي إلىَّ بأمواج من الموسيقى الدينية ، وأنا أمشي مجتازاً محطة القطار . رأيت مجموعة رجال في ثياب بيض ينقلون اللافتات ذات الرموز الدينية من أعمدة الأعلام ، ويعلقون مكانها أخرى جديدة تقول :

« اتحاد الدوائيين الألمان ، زوروا المعرض ! » .

« نماذج كثيرة مجاناً »

« أين أكون بغير دوائٍ يهتم بأمرى ؟ » .

مبطناً بدون انتباه توجهتُ إلى كنيسة أحزان مريم السبعة ، اجتزت الباب الرئيسي وبدون أن أرفع بصرى انتهيت إلى محل الأكلات الخفيفة ، حيث تناولت إفطاري . كأن خطواتي كانت محسوبة ذلك الصباح ، كأنَّ إيقاعاً سرّياً كان يتحكم في عضلات ساقى ، أجبرنى على التوقف والنظر إلى أعلى ، فإذا بى عنده - نظرت إلى اليمين خلال فتحة في الستارة ، فرأيت الطبق وشرائع اللحم ، رأيت بوسترات السجاير الخضراء الكبيرة . وصلت إلى الباب ، فتحتها ، دخلت ، أنا في الداخل تماماً ، وأدركت أنها غير موجودة هناك ، الأبلّة غير موجود أيضاً . في الزاوية ، جلس مصلح الترام ، يرشف حساده . وإلى المائدة المجاورة له ، جلس سيد وسيدة أمامهما علبتا شطائر ورقيتان وكوبان من القهوة ، ووراء المائدة كان المحارب القديم المعوق . نهض ونظر إلىَّ ، بدا أنه عرفنى : زاويتا فمه ترتعشان قليلاً . مصلح الترام والزوجان نظروا إلىَّ أيضاً . قال لى المحارب المعوق :

- « ما الذى أستطيع أن أقدمه لك ؟ » .

همهمت :

- « سجناء . خمس - العلبة الحمراء » .

وجهدت لأعثر على قطعة النقود في جيبي ، وضعتها بعناية على المائدة الزجاجية . أخرج المحارب السجناء وناولني إياها ، قلت :
- « شكراً » .

وانتظرت .

نظرت متريثاً حولي . لا يزالون يحدقون بي . . مصلح الترام يحمل ملعته إلى وسط المسافة بين فمه والصحن - أستطيع رؤية قطرات الحساء الصفراء تتساقط من ملعته . . الزوجان توقفاً عن مضغ الأكل ، الزوج وفمه مفتوح ، والزوجة وفمها مطبق ، ثم نظرت إلى المحارب ، كان يبتسم ، ومن تحت بشرة وجهه الداكنة غير الحليقة استحضرت وجهها .

كانت الغرفة هادئة جداً ، وفي الصمت سألتني :

« هل تبحث عن أحد ؟ »

هزرت رأسي ، التفت باتجاه الباب ، تريت لحظة وأحسست بعيون الآخرين على ظهري قبل أن أغادر . كلن الشارع لا يزال خالياً حين خطوات خارجاً إليه .

جاء مخموراً يترنح آتياً من النفق المظلم المؤدى إلى ما وراء محطة القطار . كانت مشيته المتهايلة الخرقاء في اتجاهي ، وحين اقترب رأيت علم الدوائيين الصغير على طية سترته . تهاوى أمامي ، قطع زر سترتي وقاء البيرة الحامضة في وجهي ، تتمم :

- « أين أكون من غير دوائي يهتم بأمرى ؟ » .

أجبتة بلطف :

- « لا مكان لى بدون دوائى ، أنا بلا مكان » .

فقال باحتقار :

- « هكذا أنت إذن . فاغرب عن وجهى »

ومضى يترنح .

مشيت متتداً فى النفق ، كان كل شىء خارج المحطة هادئاً . الأرج المر-
الحلو لحبات الكوكا الأرضية ، ورائحة الكرامل تنتشر فى جو المنطقة كلها ،
مصنع شكولاتة كبير يحتل ثلاثة قطاعات من المدينة ويعطى لهذا القسم من
المدينة منظرًا كثيباً لا علاقة له بمنتجاته الشهية ، هنا يعيش الفقراء ،
الفنادق القليلة فى هذه المنطقة رخيصة ، ومكتب السياحة يتجنب إرسال
الزوار إلى هذه المنطقة لكى لا تثيرهم شدة فقرها ، الشوارع الضيقة ممتلئة
بروائح طبخ قطع « الروست » الكبيرة . أطفال يقفون وفى أفواههم
مصاصاتهم ، وكنت ألح من خلال النوافذ رجالاً مطويى الأكمام يلعبون
الورق ، وعلى حائط مبنى مهدم مسودّ من نار ، رأيت علامة سوداء كبيرة
تمثل يداً سوداء تشير ، وتحت اليد السوداء كانت هذه الكلمات :

البيت الهولندى

غرف ، طبخ منزلى ، رقص أيام الأحد .

تابعت اتجاه اليد السوداء ، وجدت يداً سوداء أخرى فى زاوية اللوحة :

ب ، هـ ، عبر الشارع

وحين رفعت بصرى ونظرت إلى المبنى المقابل ، إلى الطابق الأحمر الملطخ

بدخان مصنع الشكولاتة الأسود، عرفت أن الدوائيين لم يتغلغلوا إلى هذا الطرف من المدينة .

يدهشنى بدون شك ما يسيطر على من شعور كلما سمعت صوت فريد في الهاتف : صوته خشن ، مجهد إلى حد ما ، وله تأثير يجعله مثل صوت غريب يقصد إثارتى ، هكذا سمعته يتكلم خلال الحرب - من أوديسا ، من سيياستبول ، من حانات لا عدد لها حين اعتاد السكر . وكم خفق قلبى وأنا أرفع سماعه الهاتف وأسمعه عبر الخط يضغط على زر « الدفع » وتسقط قطع النقود ليكمل الاتصال ، همهمة التبادل الصامت ، مثلما يتكلم : سعاله ، الرقة التى فى صوته كلها تتسرب إلى من الهاتف .

حين انحدرت إلى الطابق الأسفل كانت صاحبة النزل جالسة فى الزاوية المعتادة من أريكتها ، مُحاطة بالأناث الرث ، كان مكتبها مغطى بكارتونات الصابون ، وبصناديق موانع الحمل ، وصناديق خشب صغيرة تحفظ فيها مواد تجميل غالية الأثمان . كانت الغرفة مفعمة برائحة شعر النساء الذى اکتوى من حرارة أجهزة التصفيف ، تتسرب من « الحانات » المنفردة فى واجهة الغرفة العليا ، ورائحة فظيعة حادة ، لكل ذلك الشعر المحروق يوم السبت . كانت السيدة « ردود » شعشاء ، غير ممشطة الشعر ، أمامها رواية استعارتها من مكتبة ، مفتوحة لا تقرأ فيها طالما هى مشغولة بمراقبتى وقد رفعت سماعة الهاتف إلى أذنى ، بعدها ، ودون أن تنظر إلى طريقها وصلت إلى الزاوية خلف الأريكة ، تناولت قينة الشنايز وملأت قدها دون أن تبعد عينيها المتعبتين عنى .

قلت : « هلو ، فريد » .

قال : « كيت ، حصلت على غرفة وبعض النقود ، متى تأتين ؟ » .

- « فى الخامسة ، أريد أن أصنع كيكة للأطفال . هل سنذهب للرقص؟ » .

- « بالتأكيد، إذا رغبت فيه ، هنالك حفلة رقص فى الفندق » .

- « فى البيت الهولندى »

- « أين ذلك ؟ » .

- « شمال المحطة - تسيرين فى شارع المحطة ، ثم تنعطفين وسترين علامةً ، يداً سوداء تشير . اتبعى الإصبع المؤشر . . كيف الأولاد ؟ »
- « بخير » .

« اشتريت لهم بعض الشكولاتة ، وسنشتري لهم بعض البالونات ، وأود أن أصرف شيئاً لينالوا شيئاً من الآيس كريم أيضاً ، سأعطيك شيئاً من النقود لهم ، أخبرهم أننى آسف على ضربى لهم . كنت مخطئاً » .
« لا أقدر أن أقول لهم ذلك ، يا فريد » .

- « لمَ لا ؟ »

- « لأنهم سييكون » .

- « فلييكونوا ، يجب أن يعرفوا بأنى آسف ، ذلك شىء مهم جداً بالنسبة لى ، أرجوك لا تنسى » .

لم أعرف حينها بماذا أجيبه . لاحظتُ صاحبة التزلّ تملأ قدحها الثانى وعلى وجهها ملامح الخبيرة ، ترفع الكأس إلى شفيتها ، تترك الشنايز يتدحرج ببطء على لسانها ، ورأيت تعبير امتعاض بسيط فى وجهها حينها يجتاز الشنايز بلعومها .

قال فريد : « كيت ؟ » .

- « نعم ؟ »

- « أخبرى الأولاد بكل شىء ، رجاءً لا تنسى ، وأخبرهم عن الشكولاتة ، والبالونات ، والآيس كريم .
عدينى بذلك .

قلت : « لا أستطيع ، هم اليوم سعداء جداً ، فقد سُمِحَ لهم بأن يستعرضون فى الموكب . لا أريد أن أذكرهم بالضرب ، سأخبرهم فيما بعد ، فى وقت ما نتحدث فيه عنك . »

- « هل تتكلمون عني ؟ » .

- « نعم ، هم يسألوننى أين أنت ، وأقول لهم إنك مريض . »

- « مريض ؟ » .

- « نعم أنت مريض . »

ظل صامتاً ، واستطعتُ أن أسمع نَفْسَه فى سِاعة الهاتف .

قامت صاحبة التُّزل وهزت رأسها بعزم .

« قد تكونين محقة ، قد أكون مريضاً فعلاً . إذن ، أراك فى الخامسة .

الإشارة باليد السوداء فى منعطف شارع المحطة . لدى ما يكفى من النقود ، وسنذهب للرقص . . وداعاً يا حبيبتى . »

- « وداعاً » .

وببطء أنزلت سِاعة الهاتف إلى مكانها ، ورأيت صاحبة المنزل تضع

قدحاً آخر على المنضدة ، وتقول لى :

- « تعالى يا فتاتى ، تناولى شراباً » .

تسنى لى أشعر بالجرأة ، أفضيتُ لها بشكواى من أحوال غرفتنا ، لكنها كانت كلما شكوتُ تصدنى ، تسكب لى شراباً وتترك لحكمة عينيهما المتعبتين أن تؤثرا فى ، أكثر من ذلك ، هى تعرف كيف تقنعنى بأن إصلاح الغرفة يكلف أكثر من إيجار ثلاث سنوات لها . إنها هى التى علمتنى شرب الشنايز . أولاً وجدت البراندى موجعاً ، وطلبت اللىكور .

قالت : « لىكور ؟ مَنْ على الأرض يشرب لىكور ؟ »

من ذلك الوقت عرفت أنها على حق : فهذا النوع من البراندى جيد .

« هَلُمّى ، الآن ، أيتها الفتاة ، اشربى » .

جلست قبالتها ، نظرتُ إلى بتحدٍ لسكّير ، واجتازت نظرتى أنا كل وجهها لثقع على صناديق كارتون ممزقة عليها هذه الكلمات :

« بضاعة . . انظر إلى علامة الصقر التجارية »

قالت : « هذه لك » .

ورفعت قدحى ، قلت :

« أنت أيضاً . . »

وتركتُ البراندى اللاذع يجرى فى ، وفى تلك اللحظة فهمت ، فهمت الرجال السكّيرين ، فهمت فريداً ، وكل الآخرين الذين يدمنون الشرب .

وهى غملاً قدحاً آخر بسرعة ، فاجأتنى :

- « أيتها الطفلة المسكينة ، لا تأتى إلى هذا المكان ثانية لتبشى الشكوى .

فلا علاج للفقير . ابعتي الأولاد إلى هذا اليوم ، يمكنهم أن يلعبوا هنا . هل أنت ذاهبة ؟ » .

قلت : « نعم أنا ذاهبة ، لكنى طلبت من رجل شاب أن يظل مع الأطفال » .

- « طول الليل ؟ » .

- « نعم ، طول الليل » . ألمْ واهن تصاعد إلى وجهها ، فأتسع مثل إسفنجة صفراء ، لدقيقة ، والتّم مرة أخرى :

« أوه ، فهمت ، خذى لهم إذن بعض الصناديق الفارغة » .

قلت : « شكرًا » .

كان زوجها سمسار أملاك ، ترك ثلاث بنايات ومحَلّ تجميل شعر ، ومجموعة صناديق ملأى :

- « يمكنك أخذ صندوق آخر » .

- « أوه ، لا ، شكرًا » .

ما إن لامست يداها الراعشتان القنينة حتى تشبّث بها ، ثم امتلأت حركاتها برقة أخافتني ، أعادت ملء قدحى ، قلت :

- « أرجوك ، لا أريد مزيدًا » .

قالت : « أذن سأشربه أنا » .

ونظرت إلى بحدة مضيقة عينيها ، وسألتني :

« أحبلى أنت يا صغيرتى ؟ »

فزعت ، فأنا أحياناً أفكر بأنى حامل فعلاً ، لكننى غير متأكدة حتى الآن . وهزرت رأسى .

« مسكينة أيتها الطفلة ، سيكون ذلك مزعجاً لك ، طفل آخر . . » .

قلت بدون تأكد : « لست أدرى » .

« يجب أن تغيرى لون صبغ شفتيك » .

وأعطتنى قلم حمرة آخر ذا لون حاد ، نهضت يتموج جسدها الثقيل داخل رداء ملون ، شقت طريقها بين كرسى وأريكة ومكتبة :

« تعالى معى » .

تبعتها فى المخزن : رائحة الشعر الذى ألحَّ عليه الكيُّ « السبرى » المعطر يعلِّقُ فى الجو ثقيلًا مثل سحابة وفى الغرفة مسدلة الستائر ، نصف المضاءة ، استطعت أن أرى ماكينات تجعيد الشعر بارزة ، والمجففات ، لنيكلها لمعَّ واهن فى الضوء الرصاصى لعصر يوم الأحد .

« تعالى ، أدخلى ! »

وراحت تبحث فى درج مملوء بلفائف شعرٍ ، تتناثر حواليتها أقلام حمرة وعلب تجميل ملونة .

التقطت قلمَ حمرة وناولتنى إياه قائلة :

- « جرِّبى هذا » .

أدرت الغطاء المعدنى لذلك القلم ، فرأيت الأحمر الغامق ، وقد برز ملتفًا مثل دودة صلبة ، سألتها :

- « الغامق ؟ » .

- « نعم هذا الغامق ، هيّا ضعى بعضاً منه .

المرايا هنا مختلفة تماماً ، تمنعك من رؤية ما فى الخلف ، هى تحمل وجهك إلى أمام تماماً وقريباً من وجه المرأة ، تجعله أكثر جمالاً مما هو عليه - فتحت شفتى ، انحنيت إلى أمام ، وبعناية أمررت عليهما الأحمر الغامق ، لكن عينيّ ما اعتادتتا مثل هذى المرايا ، كانت عيناى تتسعان ، ونظرتى المحدّقة تحاول الانزلاق عابرة وجهى . لكنى نظرى فى هذه المرأة يغادر سطح المرأة إلى الأبد ، يرتد إلى نفسى ووجهى ، شعرت بدوار ، وارتعشت قليلاً ، إذ أحسست بيد صاحبة المحل على كتفى ورأيت وجهها المخمور وشعرها الأشعث ورائى ، فى المرأة همست لى :

« اجعلى نفسك حلوة لحبيبك ، يا حمامتى الصغيرة ، اجعلى نفسك حلوة له ، لكن لا تدعيه يجبلك ، ذلك هو الشىء الصحيح يا صغيرتى ، أليس كذلك ؟ ، ذلك هو المنجى » .

خطوت إلى وراء مبتعدة من المرأة ، وأدزْتُ قلم الحمرة لأدخله فى أنبوبته ، وقلت :

- « نعم ذلك هو الشىء الصحيح . لكنى لا أملك أية نقود لهذا القلم ؟ » .

- « أوه لا تبالى ، يمكن الانتظار - يمكنك الدفع فيما بعد » .

- « نعم فيما بعد » .

أجبتها ومازلت أنظر فى المرأة ، أنزلق فيها كما أنزلق فوق جليد ؛ غطيت عينيّ بيديّ ، وأخيراً خطوت إلى وراء ، وضعتُ بعض صناديق الكارتون

الفارغة على ذراعى الممدودة ، وضَعَتْ قلم الحمرة فى جيب صدرى
وفتحت لى الباب .

قلت لها : « شكراً ، مع السلامة » .

قالت : « مع السلامة » .

لا أفهم كيف يثور فريد بسبب ضجيج الأولاد ؟ إنهم هادئون ، خاصة ،
حين أقف بجوار الأريكة أو المنضدة ، أنصت لهم ، أجدهم ساكتين غالباً ،
حتى أنهم ألتفت فجأة لأتأكد من أنهم لا يزالون هناك ، هم يبنون دوراً من
صناديق الكارتون ، يتهامسون معاً ، وحين التفت يفرعهم الخوف فى عيني
ويدفعهم للسؤال :

« ما الأمر يا أمنا ؟ ما الأمر ؟ » .

فأجيبهم : « لا شىء ، لا شىء » .

وأستدير عنهم لأدحرج عجيتى ، أخشى من تركهم وحدهم بعد ذلك ،
اعتدت أن أتركهم وحدهم عصراً فقط ، مع فريد مرة واحدة قبل كل ليل .
الرضيع نائم ، وأريد أن أغادر قبل أن يستقيظ .

فى الغرفة المجاورة أنين مرعب ، المغازلات والضربات المخيفة التى
تصحب مضاجعتهم ، هدأت الآن . إنها نائمان نومة قبل الذهاب إلى
السينما ، بدأت أننا يجب أن نشترى مدياعاً ، لأدفع بصوته هذا الأنين الذى
يصدر عنها الآن ، صيحات الكلام العالية غير الاعتيادية التى بدأت حال
بدأ ذلك الفعل الشنيع ، هى التى ملأتنى بالقرف - بالرعب ، بالرعب
وحده - تلك الأحاديث غير الاعتيادية شقت طريقها إلى الخارج وتلاشت

فيه . أسأل نفسى إن كان الأولاد لم يبدأوا بعد فى فهم ما يجرى . على أية حال كانوا يسمعون ذلك ، وملاحم تشبه تلك الحيوانات المرتجفة التى تتحسس الموت . سأحاول ارسالهم إلى الشارع إن أمكن ذلك . لكن أوقات العصر المبكرة فى أيام الأحد مثقلة عادة بالكآبة التى تكشف حتى الأطفال . وجنتاى بدأتا تتقدان حين سماعى ذلك الشؤم وبدأ الصمت الممتد من حولى يتشقق ، حاولت أن أغنى حين سماعى ذلك الشؤم ، وبدأ الصمت الممتد من حولى يتشقق ، حاولت أن أغنى حين بدأت الأصوات الأولى ، لكن ابتداء التعذيب واستمرت الضربات المتقطعة على السرير ، وأصوات المضجع ، والصرخات التى تشبه تلك التى يطلقها لاعبو الأكروبات وهم يتأرجحون تحت القبة الكبيرة ويغيرون أراجيحهم وسط الهواء . لكن صوتى تشقق ، وبحث سُدَى عن نغمات بقيت فى رأسى ، فما استعدت واحدة منها . مرت لحظات ، لحظات لا نهاية لها ، فى الكآبة الرصاصية لما بعد ظهر الأحد . سمعتهما يشعلان سيجارتين ، وامتلأ الصمت الذى أعقب ذلك بالاشمزاز . ألقىت العجينة التى كانت فى يدى على المنضدة ، ودرجتها إلى وراء وإلى أمام ، مُحْدَثَةً قَدْرَ ما أستطيع من ضوضاء ، ألقىت العجينة ثانية ورحلت أفكر بملايين من أجيال الفقراء الذين عاشوا دون أن يمتلكوا حتى غرفة يتضاجعون فيها - ودرجتها العجينة ، طويت حافاتها ، وضغطت الفاكهة فى العجين .

كانت الغرفة مظلمة فى آخر الممر الطويل نظرت إلى النافذة ، وقعت عيناى على حجارة الحائط الداكنة ، حمراء ، مزينة بتصميم بُنى غامق كان فى الأصل أصفر ومن طابق مرصوف بصياغة - المفتاح الإغريقى . أنظرُ متجاوزة الحائط الذى يججب حقل رؤيتى ، فتقع عيناى على رصيفى

المحطة الفارغين الآن . كانت هناك امرأة تجلس على مصطبة وتحمل طفلاً ،
والفتاة - من الكشك لطيف الشراب - وقفت خارج الباب تتململ بمئزرتها
البيضاء ، تحركها أعلى وأسفل فخذيهما . كانت الكاتدرائية وراء المحطة ،
والأعلام مثبتة عليها . أحسست بالإحباط من مشهد الناس المزدحمين حول
المذبح الذى يلى المحطة الخالية أخرجنى صمتُ الزحام خارج الكاتدرائية .
ثم رأيت راعى الأبرشية فى رداءه الأحمر يقف قرب المذبح ، وفى اللحظة
نفسها سمعت صوته ينطلق واضحاً وعالياً من مكبرات الصوت عبر المحطة
الخالية .

غالباً ما كنت أسمع راعى الأبرشية ، وتثقل روحى تراتيله - أنا لا أعرف ما
هو أسوأ من غرفة النوم ، لكن الآن بعد سماع صوت راعى الأبرشية يأتى عبر
مكبرات الصوت ، وقعت على الضفة التى كنت أبحث عنها طيل هذا
الوقت . لقد عرفت الآن أنها صفة بسيطة ، وأنها كانت على طرف لسانى
ودائماً ما تنزلق عنه . إن الراعى يستخدم فى لهجته تلك الظلال التى تجعل
صوته شعبياً ، وإن لم يكن راعى الأبرشية شعبياً . مفردات تراتيله مستمدة
دائماً من قوائم كلمات الافتتاح فى الكتب الدينية ، تلك التى افتقدت
حيويتها خلال الأربعين سنة الماضية ، كلمات صارت كليشيات ، أنصاف
حقائق . الحقيقة لا تُضجر ، لكنى راعى الأبرشية له القدرة على جعلها
مضجرة .

« فليكن السيد ، إلهنا فى حياتنا اليومية - نشيد له برجاً فى قلوبنا ... و » .

أصغيت دقائق لهذا الصوت الذى يأتى عبر بالرصيف الخالى ، وأنا أرى
فى الوقت نفسه ذلك الشكل ذا الرداء الأحمر يقف هناك إلى جانب مكبر
الصوت الذى يتكلم بصوت تتضخم اللهجة فيه لأقصى اختلافها ، وفجأة

جاءتني الكلمة ، الكلمة التى بقيت طويلاً أبحث عنها ، وهى بسيطة جداً، إلى حَدِّ أنها لا تخطر لى على بال ، تلك هى : إن الرعى كان «غيباً» . عاد بصرى إلى ما فوق المحطة ، حيث لا تزال الفتاة تتململ من صدريتها البيضاء والمرأة على المصطبة تطعم رضيعها من القينة . جالت نظرتى على صياغة المفتاح الإغريقى ذى اللون البنئى الغامق فوق حجارة الحائط ، واجتازت إطار النافذة الكابية ، عائدة إلى غرفتى . أغلقت بعدها النافذة من فوق السرير وبدأت أَدخن .

لم أعد الآن أسمع شيئاً . لا صوت بعد فى المبنى ، جدران غرفتى مغطاة بورق مظلل بالأحمر ، لكن الرسوم الخضر التى تشبه أشكال القلوب قد تلاشت ، فهى الآن تغطى ورق الحائط مثل خربشات بقلم الرصاص محو، وانتظامات غير متوقعة ، والثابتة الخفيفة من أشياء الغرفة بشعة ، مثل كل الثوابت : قدح بشكل بيضة مملوء بتعرقات رخامية ، فيه مصباح قوة خمسة عشر واطاً . وخزانة الملابس الضيقة لَوْنُهَا الصَّدَأُ . واضح أنها لم تُستعمل ، ولاهى معرضة لذلك . الناس الذين يشغلون هذه الغرفة ليسوا من النوع الذين يفتحون حقائبهم ، إن كانت لهم أية حقائب ، هكذا الأمر . ليس من جاكيتات يعلقونها على مشاجب الملابس ، ولا قمصان ترصف بعيداً ، والمشجبان اللذان أراهما فى الخزانة المفتوحة كانا ضعيفين ، وزنُّ سترتى كاف لكسرهما ، فهنا يمكن أن تعلق سترتك على كرسى ، ترمى سروالك عليه دون اهتمام بطيه ، هذا إذا ما خلعته أصلاً - وانظر إلى أدنى : هذه الأثنى شاحبة ، وربما محمرة الخدين ، ثيابها مرمية على الكرسي الآخر . الخزانة لا ضرورة لها ، فوجودها رمزى ، مثل المشاجب التى لم يستعملها أحد . المغسلة ليست أكثر من منضدة مطبخ اعتيادية يغطس فيها حوض

غسيل ، وإن كان حوض الغسيل هذا لم يغطس . كان مطلباً ، وفي أماكن منه كسور . صحن الصابون من الصيني الرخيص عليه إعلان عن مصنع إسفنج .

لابد أن قدح فرش الأسنان قد انكسر ، وما استُبدِلَ بغيره . ليس من واحد على أية حال . ولابد من أحد قد شعر بضرورة توفير صور للجدران ، وهل أكثر ملائمة من صور مطبوعة للمونايزا ، والتي بدت كما لو كانت يوماً ملحقاً في مجلة شعبية .

الأسيرةُ جديدة لا تزال تضوع برائحة الخشب الجديد ، وهي خفيفة قائمة اللون . شرشف الفراش القطنى لم يُرَخنى . نمت طيلة الوقت الذى مرَّ بكامل ثيابه ، أنتظر زوجتى التى قد تجلب معها شرشفنا الخاص . كانت البطانيات من صوف ، ذات لون أخضر مزرق ، مستهلكة لحد ما ، والرسوم التى عليها - وهى دبية تلعب كرة - قد تحولت بشرًا يلعبون كرة ، لا تُمَيِّزُ بعدُ وجوه الدبية هى تشبه الآن كاريكاتيرًا لرياضيين براقب ثيران ، تقذف فقاعات صابون إلى وراء وإلى أمام . دَقَّ الجرسُ : الثانية عشرة .

نهضتُ لآتى بصحن الصابونة من المغسلة ، وبدأت أدخن . بدا مزعجاً أنى لا أستطيع الكلام عن حالى لأحد ، لا أستطيع شرح الموقف الحقيقى لأحد ، لكنى محتاج للنقود . محتاج للغرفة لأنام مع زوجتى فحسب . نحن نعيش فى مدينة واحدة ، لكننا منذ شهرين نلتقى لقاءات متقطعة فى غرف الفنادق . أحياناً ، حين يكون الجو دافئاً نلتقى فى الحدائق ، فى ممرات البنايات المدمرة ، فى قلب المدينة ، وحيثما نكون آمين لا يكتشفنا أحد . شققتنا جد صغيرة ، هذا كل ما فى الأمر . إضافة إلى ذلك ، الحائط الذى

يفصلنا عن جيراننا خفيف جداً . وشقة أوسع تقتضى مالاً ، تحتاج إلى ما يُعرف بالعزم ، ونحن لا نملك عزماً ولا مالاً .

حتى زوجتي ليست لها بطاقة على شيء .

آخر مرة نمنا معاً كانت في حديقة عامّة في الضواحي ، كان ذلك مساء وكانت تصل إلى أنوفنا من الحقول رائحة جزّ الكرات ، وعلى الأفق تقذف المداخن كتلاً من دخانٍ في السماء المحمّرة . هبطت الظلمة علينا سريعاً ، وصارت السماء الحمراء قرمزية ، ثم سوداء ولم نعد نرى ضربات الفرشاة الجريئة للمداخن نافثات السواد - شذى الكرات صار أقوى ، صار ممتزجاً بحدّة البصل . بعيداً وراء تجويف رملي ، تتقد أضواء ، وقريباً ، في الطريق إلينا ، رجل على دراجة : شعاع ضوء يرتعش على طول الطريق كثير المطبات يقطع الضوء مثلاً مظلماً في السماء مفتوحاً من جهته اليسرى . كان هنالك صرير ليراج سائبة .

ضربات واقية الطين تتلاشى بعيداً بإيقاع يكاد يكون منتظماً . لو بقيت أنظر لرأيت ، بعيداً في المر ، جداراً أكثر عتمة من ظلمة السماء . ومن وراء الجدار تأتي وقوفات إوز، وصوت امرأة متعب تدعوهم لإطعامهم .

كل ما كنت أراه من كيت على الأرض المعتمة وجهها الأبيض والارتعاش الأزرق الغريب لعينيها حين تفتحهما . كان ذراعها أبيضين أيضاً وعارين . بكّت بمرارة ، وحين قبلتها ذقت طعم دموعها . شعرت حينها بدوار ، كانت قبة السماء تميد بي قليلاً إلى الأمام وإلى الوراء . وراحت كيت تبكي بمرارة أكثر ، لم أشهد لها كذلك من قبل .

نفضنا الأوساخ عن ثيابنا ، وعلى مهل سرنا إلى موقف الرقم (٩) . ومن

بُعْدِ سمعنا الترام يستدير على العقدة الكهربائية ، رأينا الشرارات تنطلق من السلك فوقها .

قالت : « بدأت تبرد ؟ » .

قلت : « نعم » .

« أين ستنام الليلة ؟ » .

« في المجمعات السكنية » .

وانحدرنا في زقاق دمرته المعارك يوصلنا إلى الترام .

جلسنا في حانة . طَلَبَ كُلُّ مِنَّا شيئاً من البراندى ، وضعنا قطعة نقد في « مكنة - البنبول » ، ولاحظنا كرات صغيرة تتهاوى في الحوض الخشبي ، ونأخذها واحدة بعد أخرى . إنها تتدحرج حول النوابط الحديدية لترتطم بموصلات معدنية ، فتصدر أزيزاً زجاجياً ناعماً . كيت وصاحبة الحانة كانتا تراقبائنى ، وحين مضيت في اللعب ، ويدى على شعر كيت ، شبكت صاحبة الحانة ذراعيها وأضاءت وجهها الثقيل ابتسامة ارتياح .

مضيت في اللعب ، وكيت تتابعنى ، دخل رجل في الحانة ، انزلق إلى مقعد من مقاعد البار ، وضع محفظته على مقعد وراءه ، وطلب شنابر . كان وجه الرجل ملطّخاً ، ويداه بُنِّيَتَيْنِ ، والضوء الأزرق في عينيه بدا أخف مما هو عليه . نظر إلى يدى التى ما زالت على شعر كيت ، ثم إلىَّ ، وطلب كأسَ شنابر آخر . بعد ذلك بقليل وقف إلى جانبي وراح يلعب بالمكنة الأخرى ، والتى بدت بدائية جداً تشبه مكنة محاسب : كرة . شق ، سطح معزول بلون محمّر يظهر ثلاثة أعداد كبيرة في صف احد . وضع الرجل قطعة

نقد ، سحب العتلة ، ارتجت الكرات فى الأعلى وضجت - ثم ، وفى فترات -
جاءت ثلاث قرقرعات وظهرت الأرقام ٦ ، ٤ ، ١ على ذلك السطح .

قال الرجل : « لا شىء » .

وأسقط قطعة نقد أخرى ، تسارعت الأقراص ، ضربت ومرت ،
ضربت ضربات أخرى - لحظة صمت ، وفجأة جاءت قطع النقود تتصادم
خارجة من فوهة المكنة . قال الرجل :

- « أربعة » .

وابتسم إلى وقال :

- « هذا أفضل » .

نظرت إلى كيت ، أخذتها ويدي فى شعرها ، فقالت :

- « يجب أن أذهب » .

فى الخارج كان الترام يستدير حول المنحنى ، يصرُّ حول عقدة الأسلاك ،
فدفعت ثمن كأسى البراندى وأخذت كيت إلى موقف الحافلة . قبلتها ،
وقد دخلت ، ووقعت هى يدها على خدى ، ولوّحت لى بيدها حتى لم أعد
أراها .

حين عدتُ إلى الحانة كان الرجل ذو الوجه الأسود لا يزال واقفاً إلى
جانب العتلة . طلبت براندى وأشعلت سيجارة ، ورحت أراقبه . فكرت :
بإمكانى تمييز الإيقاع حين تبدأ الأقراص تدور ، شعرت بالقلق حين جاء
صوت التوقف قبل أوانه ، حسب تقديرى ، واستطعت أن أسمع الرجل
يربرب :

« لا شيء - لا شيء - اثنان - لا شيء - لا شيء » .

لم يكن وجه صاحبة الحانة مبتسماً حتى خرج الرجل من الحانة لا عناء ، فتغيرت بعده . وبدأت أسحب العتلة . لا أنسى أبداً لحظة ضغطت العتلة إلى أسفل لأول مرة ، فدارت الأقراص بسرعة بدت خيالية - وكيف كانت ثلاث قرقرعات في فترات مختلفة ، أصغيت بعدها لضجيج تساقط النقود :

لم يخرج شيء ! .

بقيت هناك نصف ساعة تقريباً أشرب شنايز ، وأحرك العتلة ، أصغى إلى الدوران الجنوني للأقراص والقرقرعة اليابسة . وحين غادرت الحانة لم أكن أملك فلساً في جيبي . فكان عليّ أن أقطع كل الطريق مشياً إلى شارع «أختر» حيث المجمّعات السكنية ، ثلاثة أرباع الساعة أقطعها الأقدام تقريباً .

منذ ذلك الوقت صرْتُ أقصد الحانات التي أجد فيها ذاك النوع من المكينات ، أصغى إلى إيقاع الأقراص الساحر ، أنتظر القرقرعات ، وأتلقي صدمة كلما توقفت الأقراص ولم يخرج شيء .

إيقاع لقاء اتنا هو الذى لم نكتشفه بعد . المفاجآت تتحكم في درجته . يمكن أن يحدث لقاءنا في المساء ، قبل أن أبدأ البحث عن مكان أفضى فيه الليل ، غالباً ما أذهب إلى بنايتنا وأدعو كيت لتتزلزل - أقرع الجرس في الممر المؤدى إلى الشقة بحيث لا يعرف الأولاد أنى قريب منهم . الشيء الغريب أنهم بدأوا يحبوننى ويفقدوننى ، ويتحدثون عني ، بالرغم من أنى كنت أصدّم بذلك المظهر الغريب الذى يلوح على وجهى إذا ما ألقى نظرة على

نفسى فى المرأة : شعر غير حليق ووجه شاحب ، سابح فى العرق . يداى
تغطيا أذنى لكى لا أسمع صراخ الولد الذى انهلْتُ عليه ضرباً لأنه كان
يغنى . .

مرة اكتشفتنى كارلا وكليمتر ، عصر يوم سبت ، وقد كنت أنتظر كيت
فى الأسفل ، فى مدخل البناية . فزعتُ لرؤية وجهيهما يتوقدان عند رؤيتى .
اندفعا إلىَّ ، تعلّقَا بى ، تساءلا إن كنتُ على مايرام ، وصعدت معهما إلى
أعلى . ولكن ما إن دخلت غرفتنا حتى تسلّط علىَّ الرعب مرة أخرى - رائحة
الفقر المفزعة - حتى ابتسامة رضيعنا ، الذى بدا يعرفنى ، وسرور زوجتى :
ما كان لأى منهما قوة على إزاحة الهياج الكريه الذى تصاعد فىّ حالما بدأ
الأطفال يرقصون ويغنون . غادرتهم قبل أن يفلت منى ما لا أستطيع رده .

لكن غالباً ، ومتى ما كنت جالساً فى البار تلوح أوجهم حلوة بين
أقداح البيرة والقناني التى أمامى ، كما لم تفارقنى حتى الآن صُورهم هذا
الصباح وهم فى المسيرة . .

قفزت من السرير عند بدء إشارات ترتيلة الختام خارج الكاتدرائية .
فتحت النافذة ورأيت الشكل الأحمر لراعى الأبرشية يمشى خلال الجموع .

فى النافذة أدنى منى ، رأيتُ شعراً أسود لامرأة على ثوبها بعض قشور ،
بدا رأسها وكأنه كان نائماً على النافذة . التفتت إلىّ فجأة ، فكان وجه
صاحبة البيت ، فكان الوجه الزيتى النحيف ، نادى :

« إذا أردت أن تأكل فالأفضل أن تعجّل » .

وأنا أنزل السلم ، بدأت مدفعية شركة معاجين الأسنان بإطلاق قذائفها
على السدّ مرة أخرى .

نضجت « الكيكة » جيّداً ، وأنا أخرجها من الفرن فاحت رائحة النضج الحلوة في الغرفة . كان الأطفال كلهم مبتسمين . أرسلت « كليمنز » لجلب بعض « الكريم » ملأت أنبوبة منه ، لأسرّ الأطفال ، ورحت أرسمُ عليها خصلاً ودوائر . الرسوم ارتفعت قليلاً فوق وجه الكيكة الأرجوانى المزرق رأيتهم يلتقطون بقايا الكريم من الإناء ، وكنت مسرورة لرؤية كليمنز وهو يتهبب أن يلتقط . . . وحين ظل منه ملء ملعقة أعطاه للرضيع الذى جلس في مقعدة العالى يتسم لى وأنا أغسل يدى وأضع على شفتى حمرةً جديدة .

- « هل ستبتعدين طويلاً ؟ » .

- « نعم حتى صباح الغد » .

- « هل سيعود أبونا بسرعة »

- « نعم » .

التنورة والقميص معلقان على جانب دولاب المطبخ - وسمعت الشاب الذى سيرعى الأطفال يصل . هو يستوفى ماركاً واحداً عن كل ساعة ، ولكن من الرابعة بعد الظهر حتى السابعة فى الصباح ، يعنى خمس عشرة ساعة ، أى خمسة عشرة ماركاً ومفهوم أنه يحصل على وجباته ، وفى المساء حين يبدأ واجباته الحقيقية ، يجد سجائر إلى جانب المذايع ، استعرت المذايع من عائلة هوبفز .

بدا « بلرمان و مولعاً بالأطفال ، وهم على أية حال يحبونه . وكلما تركتهم معه حدثونى عن بعض اللعب التى يلعبها معهم ، والقصص التى يروها لهم . لقد زكّاه لى القس ، وأعلمته بوضوح ، بأسباب تركى الأطفال ، قَطَب قليلاً بدون ارتباك ، إذ رأى فى مطلياً بحمرة الشفاه .

ارتديت قميصي ، وشددت شعري ، ودخلت الغرفة .

« بلرمان » أتى بفتاة معه ، فتاة لطيفة شقراء حملت الرضيع في الحال بين ذراعيها ، تدورّ له « خشاشة . بأصبعيها ، فصار يتسلى بها . قدّم لي « بلرمان » الفتاة ، لكنني لم ألتقط اسمها . ابتسامتها ، رقّتها اللامتناهية نحو الطفل ، كانا يتسمان بشيء من الاحتراف ، وقد أخبرتني عيناها أنها تعتبرني غير صالحة لأكون أمًا .

كان لبلرمان شعر أسود جعد ، وبشرة دهنية شاحبة ، وأنفه دائماً متغضن .

سألّني الفتاة : « أيمن أن نخرج مع الأطفال ؟ »

ورأيت عيني كليمنز الراجيتين وهزة رأس كارلا فرضيت . رحّت أنظر داخل الدرج بحثاً عن بعض النقود والشيكلاته ، لكن الفتاة رفضت ذلك . قالت :

« أرجوك ، إن سمحت ، أود أن أدفع أنا ثمن الشيكلاتة و . . » .

« طبعاً . كما تودين » .

وأرجعت النقود إلى الدرج ، وشعرت بالتعاسة أمام هذه الشخصية اللامعة للنسوية اليافة .

قال بلرمان : « يمكنك أن تثقي بكولي ، فهي مجنونة بالأطفال » .

نظرت إلى كل واحد من أطفالى على التوالي : كليمنز ، كارلا ، والرضيع ، وأحسست بعيني امتلأتا بالدموع .

أشار لي كليمنز برأسه وقال :

« الأمر على ما يرام يا أمى ، لاشئ يحدث ، لن نقرب من الماء » .

قلت للفتاة : « أرجوك ، لا تقربوا من الماء » .

قال بلرمان : « طبعاً لا ! » وضحكاً معاً .

ساعدنى بلرمان على ارتداء جاكيتى ، التفتت حقيبتى ، قبلت الأطفال ، وباركتهم . شعرت بعدم أهميتى .

توقفت لحظة وراء الباب ، سمعتهم يضحكون فى الداخل ، وبيطء هبطت على السلم .

كانت الساعة الثالثة والنصف ، ولا تزال الشوارع خالية . كان بعض الأطفال يلعبون « الهوب سكوتش » ، تطلعوا إلى أعلى حين سمعوا خطواتى تصل إليهم ، كان كل شئ هادئاً فى الشارع الذى يسكن فيه مئات الناس . هدوء ، إلا من خطواتى . من أقصى الشارع سمعت ضربات بيانو خافتة ، ومن وراء ستارة لا تكاد تتحرك ، رأيت امرأة عجوزاً بوجه شاحب تحمل لقيطاً بديناً بين ذراعيها . ومع أنا نعيش هنا منذ ثمانى سنين ، فلم أشعر بدوار / كما أشعر الآن ، حين أنظر إلى أعلى ، فالجدران الرمادية التى أصلحت رقعاً رقعاً ، تبدو مائلة إلى أمام ومن قسمها العلوى ، ومن شريط السماء الرمادى الضيق كان يأتى إلى جارى صوت « البيانو » الأصوات حبيسة ، والميلودى تكشف عن أنامل شاحبة لفتاة بحثت ولم تجد . مشيت أسرع ، تعجلت أكثر لأتجاوز نظرات الأطفال التى بدت تحمل تهديداً .

ماكان على فريد أن يتركنى وحيدة ، ومع أنى أتطلع لملاقاته ، فقد أحزننى أننى أترك الأطفال لأكون معه . متى ما سألته عن مكان سكنه ، يتخلص من السؤال ، وهذه المجمعات السكنية التى يقول إنه يسكن فيها

طيلة الشهر الماضي ، فيها ناس لا أعرفهم ، وهو لم يعطنى عنوانه نلتقى أحياناً فى المساء ، فى مقهى لقاء قصيراً لنصف ساعة ، تُعنى صاحبة البيت خلال ذلك الوقت بالأطفال ، نتعانق على عجل فى موقف الترام ، وحين أصعد إلى الحافلة يظل فريد واقفاً يلوح لى هناك . تمرُّ ليالٍ علىّ وأنا مطروحة على الأريكة أبكى وكل ما حولى فى صمت . أستمع إلى تنفس الأطفال ، الرضيع يفز غير مرتاح بسبب ظهور أسنان له . كنت أدعو وأصغى إلى صوت الزمن الأجوف فى الخارج يقرقع فى جريانه من حولى كنت فى الثالثة والعشرين حين تزوجنا - مرت خمس عشرة سنة على ذلك ، سنوات تدرجت واختفت بدون أن أنتبه إليها . وكل الذى أريد الآن هو أن أرى وجوه أطفالى ، مدركة أن كل سنة تضاف إلى حياتهم مأخوذة من حياتى .

فى ميدان « تخوف » ركبت حافلةً ورحت أتطلع للشوارع الصامتة ، لم أر إلا بضعة أشخاص واقفين عند كشك السجائر . نزلت فى شارع «بنكام» ، ودخلت فى رواق كنيسة الأحران السبعة لأسأل عن وقت قداس المساء .

كان الرواق مظلماً ، بحثت فى حقيبتى عن علبة كبريت بين سجائر منفردة ، وقلم حمرة واحتياجات مغاسل ، حتى وجدت أخيراً علبة الكبريت ، وأشعلت عوداً . قفزت : فهناك فى الجانب الآخر من منطقة الضوء شخص ما واقف فى مشكاة مظلمة شخص لم يتحرك . أردت أن أصبح بشيء يشبه الترحيب أهلاً ، لكن صوتى التّم من خوفٍ ، وخذلنى خفق قلبى . لم يتحرك الشكل ، كان يحمل شيئاً فى يديه ، يبدو فى الظلام مثل عصا رميت عود الثقاب المشتعل وأشعلت آخر . وحتى حين أدركت أنه تمثال ، لم يهدأ خفق قلبى . اقتربت منه خطوة ، وفى الضوء رأيت ملاكاً

حجرًا خصل شعره تتدلّى ويحمل في يده زنبقة . انحنيت عليه حتى كان حنكى يلامس صدر التمثال . نظرت طويلاً في وجه الملاك . طبقة كثيفة من الغبار تغطى وجهه وشعره . وحتى فتحنا العينين العمياوين كانتا مملوءتين بقشور سود . بعناية نفخت عليه ، وأزحت ما تراكم فوقه من غبار مغلّصة ذلك الكائن اللطيف منه . وفجأة رأيت أن تلك الابتسامة مصنوعة من جصّ ، وأن تلك الابتسامة الساجرة قد مسحها النفخ مع الغبار . ومع ذلك بقيت أنفخ الغبار عن الخصل الجميلة ، عن صدره ، وعن الرداء المتدلى . وباهتمام زعمت شفتى ودنوت أكثر أنظف الزنبقة . كان فرحى يزداد بازدياد وضوح الألوان المعفّرة ومعها الآلم الجامد للمعبودات التجارية .

استدرتُ مُرَتِّئَةً ، وتقدمت أبعد داخل الرواق لأرى إعلانات الكنيسة . أشعلت عود ثقابٍ آخر ، لاحت وراء اللوحة حمرة معتمة لمصباح دائم الاشتعال . فرعت وأنا أجلس أمام لوحة الإعلانات السوداء : فقد جاءنى هذه المرة شخص من الخلف . التفت ، وتنفس الصعداء إذ رأيت وجه القس الفلاحى الشاحب ، وقف قبالتى ، بدت عيناه حزيتين . انطفأ عود الثقاب ، وسألنى فى الظلام :

« هل تبحثين عن شىء ؟ »

قلت : « قداس ، أين يُقام القداس فى المساء ؟ » .

قال : « القداس المقدس ، فى الكاتدرائية ، فى الخامسة » .

رأيت شعره ، أشقر مرسلًا ، عيناه شعثًا بكدر ، سمعت الترام فى الخارج يستدير على المنعطف ، سمعت سيارات تتصايح ، وفجأة قلت فى الظلام :

« أريد أن أعترف » .

دُهِشْتُ من نفسى ، لكنى استرحت أيضاً . وقال القس ، كأنه كان ينتظر ذلك :

« تعالى معى »

قلت : « كلا ، هنا من فضلك »

قال بودّ : « غير ممكن هنا ، فالموعظة ستبدأ بعد خمس عشرة دقيقة ، وقد يجيئ الناس . كرسى الاعتراف فى الداخل . » .

شعرت بنبض فى الظلام . ممر تيارات باردة ، اقتربت من الملاك الجصى ، المصباح الثالث البعيد واضح فى المشهد أمامى على أن أخبر القس بكل شىء ، أن أهمس فى أذنه فى الظلام ، وأن أسمع الغفران همساً ، ولكن بدلاً من ذلك تبعته طائعة فى الفناء . الحماسة التى اتقدت فى لحظة ، تسربت ونحن سائران بين قطع الجص المتساقطة من المبنى ، جص وكسّر من حجارة رملية تتساقط من حائط الكنيسة باتجاه البيت الرمادى الصغير الذى يقع ملاصقاً لحائط موقف الترام ، حيث صوت طرّق المعادن يخترق سكون عصر يوم الأحد .

حين فتحت الباب ، تطلعت فى وجه مدبرة المنزل المندهش اللفظ ، والتى نظرت إلى بارتياب .

كانت القاعة مظلمة ، وقال لى القس :

« انتظرى لحظة من فضلك . »

لا أستطيع أن أرى شيئاً حول الزاوية ، لا من هذا المكان ولا من ذاك .

وصلت طقطقة الصبحون ، فجأة ميّزت الرائحة الكريهة المُرْضَة تُثْقَلُ في القاعة ، واضح أنها استقرت في الخيش الرطب الذي يغلف الجدار . بخار اللفت الدافئ فاح من الزاوية التي لا بد من وقع المطبخ وراءها . أخيراً جاء الضوء من بابٍ للقاعة ، وتمكنت من تمييز ظل القس في الشعاع الباهت .

ناداني : « إلى هنا »

وصلت غير متيقنة . بدت الغرفة مربعة : وراء ستارة حمراء في الزاوية ، يبدو سرير ، أستطيع القول أنني استطعتُ أن أشمّه . رفوف كتب مختلفة الأحجام ، بعضها منحنى . وهي مُسندَة إلى الحائط . بالقرب منها وحول منضدة كبيرة مجموعة من كراسي قديمة ثمينة ، كلها مغلّفة مقاعدها بالقטיפه السوداء . فوق المنضدة كتب ، عُلبُ تبغ ، سجائر ، أوراق ، كيس خرز ومجموعة من صحف . وقف القس وراء المنضدة ، دعاني إلى الأمام وهو يدفع نحوي كرسيّاً مُسَمَّرَة على ذراعٍ منه ستارة مشبكة من حديد ، عند زوايا المنضدة .

أحببت وجهه ، فأنا أراه كله في الضوء .

قال : « يجب أن أعذر » .

نظر إلى الباب وأشار برأسه .

« نحن ناس قرويون ، ولا أستطيع إقناعها بآلاً تخلّل رءوس اللفت . إنها أكثر كلفة من شرائها مطبوخة جاهزة . لو حسبت الوقود والأوساخ والرائحة والعمل ، لكنني لا أستطيع أن أريها كل ذلك ، اجلسي » .

دفع الكرسي وستارته الحديد قريباً من المنضدة ، جلس عليه ودعاني . سرت حول المنضدة وجلست إلى جانبه ، أقابله من خلال الستارة .

وضع القس شالاً على كتفيه ، ثنى ذراعيه على المنضدة ، وبدت الطريقة التى يخفى فيها صورة وجهه بيده المثنية مدروسة واحترافية .

كانت بعض المرتبات فى الشبكة الحديد مكسورة ، وحين بدأت أهمس : « باسم الرب ، الابن والروح القدس . . . » نظر إلى ساعته ، فوق رسغه ، تابعت نظرتة ، كانت الرابعة وثلاث دقائق - بدأت الكلام ، همست بكل مخاوفى ، بكل ألمى ، كل حياتى ، فى أذنه ، بحث بخوفى من الرغبات ، خوفى من تلقى العشاء الربانى ، وباضطراب زواجنا . أخبرته بأن زوجى تركنى ، وأنى ألتقى به بين وقت وآخر فقط كى أنام معه - وحين ترددت بضع ثوانٍ ألقى نظرة على ساعته ، وكل مرة أتابع فيها نظرتة أرى كم بطيئاً يتحرك عقرب الساعة . رفع بصره ، رأيت عينيه ، نقط النيكوتين الصفر على أصابعه ؛ ثم خفض عينيه ثانية ، وقال :

« استمرى »

قالها برقة آلمتنى ، كان ألماً يشبه ما تحدته يد متمرسة تخرج الصيد من الجرح .

ومضيت أهمس فى أذنه ، أخبرته بكل شىء عن الزمن الذى سبق الستين الأخيرتين ، حين كنا نشرب معاً ، فريد وأنا - عن موت طفلى ، عن أطفالى الأحياء ، عما نضطر لساعة من غرفة عائلة هوبفز المجاورة لغرفتنا ، وعما يسمعه آل هوبفز منا . وترددت مرة أخرى . كانت الساعة الرابعة وست دقائق . رفع أجفانه مرة أخرى ، قائلاً بلطف :

« استمرى »

وأهمس له أسرع من قبل ، أخبرته عن كراحتى للقسس الذين يعيشون فى

دور كبيرة ولهم وجوه مثل تلك التى فى إعلانات كريم الوجوه ، عن السيدة فرانك ، عن خوائنا ووساختنا ، وأخيراً أخبرته بأنى قد أكون حاملاً مرة أخرى . وحين توقفت هذه المرة ، لم ينظر إلى ساعته ، رفع جفنيه لنصف ثانية أطول من قبل .

وسألنى : « هل ذلك كل شىء ؟ » .

وقلت له : « نعم » .

ونظر إلى ساعته ، التى كانت أمام عيني تماماً بعد أن أبعد يديه من وجهه وشبكهما على حافة المنضدة : إنها الساعة الرابعة وإحدى عشرة دقيقة ، ونظرت بدون قصد فى أعماق كُفِّه السائب ، فرأيت من كم قميصه المطوى ذراعه الفلاحى الذكورى المشعر ، وفكرت لماذا لا يحل أكمامه ؟

تحسّر ، وضع يديه فوق وجهه مرة أخرى وهمهم :

- « هل تصلين ؟ »

فأجبت : « نعم »

أخبرته أنى أحياناً أنام الليل كله على أريكتى الرثة ، أقرأ الأدعية التى أتذكرها ، وأنى غالباً ما أوقد شمعة - بدون أن أوقظ الأطفال ، وأقرأ من كتاب الصلاة تلك الأدعية التى لا أحفظها عن ظهر قلب .

لم يسأل أسئلة أخرى ، كنت صامته أنا أيضاً ، ونظر إلى الساعة على رصغه : إنها الرابعة وأربع عشرة دقيقة ، وكنت أسمع فى الخارج الطرَقَ فى موقف الترام وغناء مدبرة المنزل : ترا لا لا ... فى المطبخ وطرقعة القطار فى المحطة .

أخيراً رفع يديه عن وجهه ، شبكهما فوق ركبتيه ، وقال بدون أن ينظر إلى :

« تنالُك في هذا العالم محنة : تقبّلها برضاً طيّب ، فأنا تغلبتُ على العالم هل أدركت ما يعنيه هذا القول ؟ »

وبدون أن ينتظر منى جواباً ، أكمل :

« أدخلك في الباب الضيقة : فباب التهلكة واسعة وطريقها رحيب :

والكثيرون هم الذين يدخلونها ، وضيقة هي الباب : عسيرة تلك التي تؤدى إلى الحياة ، وقليلون أولئك الذين يجدونها »

صمت مرة أخرى ، وضع يديه فوق وجهه ثانية : وهمهم بين أصابعه :

« ضيقة - أضيق طريق نعرفها هي التي على حافة السكين ، ويبدو لي أنك تسيرين عليها ... » .

وفجأة رفع يديه ، ونظر إلى خلال فتحة الستارة الحديد لحظة ، وفزعت من القسوة التي لاحت في عينيه ، عينيه اللتين كانتا من قبل جد حنونتين :

« أمرك ، أمرك أن تسمعى القداس المقدس من قسيسك الذى تكرهينه كثيراً جداً ، أن تتلقى العشاء الربانى من يديه ، حين ... » .

وهنا نظر إلى مرة أخرى وأكمل :

« حين تنتهين من تلقى الغفران . » .

صمت أيضاً ، بدا يفكر ، في حين كنت أنا أحاول في ذهنى أن أردّد الصلوات ، كل الحشرات التى أعرفها ، كنت أسمع هسيس مشاعل

اللحاح في الخارج ، في موقف الترامات ، وفجأة بدأ قرع أجراس كنيسة :
إنها الرابعة وخمس عشرة دقيقة .

قال فجأة :

« لا أدري إن كنت أستطيع منحك الغفران ، يجب أن تنتظري . باسم
الرب ... » .

وفقدت عيناه قسوتهما .

« كيف تستطيعين حل هذا القدر من الكراهية ؟ »

أبدى إشارة يأس ، والتفت إلى :

« أستطيع أن أباركك - ولكن عليك أن تعذريني ، فأنا أريد أن أعطى
الأمر مزيداً من التفكير ، ربما أناقشه مع أخ ، مع قس آخر . هل يمكن
العودة هذا المساء - آه ، لا - أنت ستقابلين زوجك . يجب أن تأملى بعودة
زوجك لك . » .

خيّني جداً عدم غفرانه لي .

قلت له : « أرجوك امنحى الغفران » .

ابتسم ثم رفع يده قليلاً ، وقال : « أتمنى أن أقدر على ذلك ، فأنت
تتوقين للغفران كثيراً ، لكن لي في الحقيقة شكوكاً . ألا تشعرين الآن بمزيد
من الكراهية ؟ »

قلت متعجلة : كلاً كلاً ، إنه فقط أحزننى .

بدا متردداً ، ولم أعرف ما أفعله ، ربما إن ألححت عليه استجاب . لكنى
أردت أن أنال غفراناً حقيقياً ، لا بإقناع منى .

قال لى وابتسم ثانية :

« بشرط ، يمكن أغفر لك بشرط - لدى شكوك - ولكن بشرط ، إن أنا امتلكتُ الحق فعلاً ، ربما . . . » .

لَوْح بيديه أمام وجهى نافذ الصبر :

« بكراهيتك أنتِ تحكمين - ولكن نحن يجب ألا نحكم ، يجب ألا نكره ، كلا » .

وهز رأسه بحزم ، ثم أمسك وجهه بكفيه المجوفين على حافة المنضدة ، صلتى ، ونهض فجأة ، وغفر لى . رسمت علامة الصليب ، ونهضت . وفق إلى جانب المنضدة ، عيناه مسطّتان على ، وفجأة شعرت بالأسى عليه ، حتى قبل أن يتكلم . :

« أستطيع فقط »

ومسح الكلمات بإشارة :

« هل تعتقدين أننى لا أشعر بها - بهذه الكراهية - أنا القس ؟ أنا أشعر بها هنا » . ضرب غفّارته السوداء ، على موضع القلب تماماً ، هذه الكراهية للمتفوقين على أحياناً ، هنا » .

وأشار إلى النافذة ، فى قداسات الكنيسة التى أقوم بها تحت إشراف قُسس زائرين ، يأتون من الجوار ، قرب الفنادق ، رجال مُلمَّعو المظاهر فى طريقهم إلى مؤتمر ، يأتون من مؤتمر ، يدمدمون عن القذارة ، عن قلة التشديد على القداسات ، قداسات العشر دقائق ، قداسات الثلاث عشرة دقيقة ، العشرين ، والمعدل قداسات الخمس والعشرين دقيقة التى تُقام هنا ، خمس مرات ، و عشر مرات ، وغالباً خمس عشرة مرة فى اليوم .

لا فكرة لديك عن عدد القسس الذين يسافرون من حولنا ، إنهم يعودون من المراكز الصحية ، وهم في طريقهم من هناك ، ومن مؤتمرات ومنتجعات ، هنالك الكثير منها . خمسة عشرة قداساً تقام بأقل من خمسة عابدين يشاركون في كل هذا العدد من القداسات في هذا المكان ، حيث كل الأشرطة المسجلة تالفة ، حيث يتراوح أخلاط القادمين منهم بين خمسة عشر إلى خمس ، لك بعد هذا أن تُقدري لهذا أنا أكرههم ، هؤلاء القسس المساكين الذين يخلفون عطور حمامات الفنادق الباذخة وراءهم هنا ، في غرفة ملابسي المهملة .

استدار من النافذة ليواجهني مرةً أخرى ، سلّمني دفترًا وقلماً من المنضدة ، كتبت عنواني وعدّلت قبّعتي . كانت هنالك عدّة ضربات عالية على الباب . صاح :

« أعرف ، أعرف . الموعظة . إني آت ! »

صافحني ونحن نفترق ، نظر إلى متحسراً ، وصحبني إلى الباب .

سرت متبّدة اجتاز رواق الكنيسة باتجاه المجاز السفلى - امرأتان ورجل يتجهون إلى الموعظة في الكنيسة ، ومن الكنيسة ، عبر الشارع علّقت لافتة تقول حروفها الحمر :

أين تكون دون دوائيّ يهتم بك ؟

عاليةً في المساء انزلقت سحابة سوداء ، اجتازت الشمس وكشفت حافتها الأخيرة عن قرصها ، فالشمس الآن كلها معلقة . واصلت سيرى . مرّ بى صبي صغير يحمل في يده كتاباً للصلاة ، بعده خلا الشارع . كان

على الجانبين خطا من الأكواخ وبيوت من حجارة ، وكنت أسمع خلف
الواجهات المحروفة ضجيجاً يصل إلى من موقف الحافلة .

أوقفتى الشذى الدافئ المفاجيء للخبز الذى نضج ، نظرت إلى اليمين
خلال باب مفتوح لكوخ خشبي تتصاعد متخلصة منه لفائف بخار أبيض :
كان هنالك طفلٌ يجلس على عتبة دار في الشمس ينظر شزراً إلى السماء ،
وعلى وجهه تعبير البلاهة الهادىء ، أجفانه حمرة ، وعينه تبدوان مرتحلتين
في الشمس ، شعرت بغصة من تعاطفى وحنوى عليه .

كان الطفل يحمل في يده كعكة محلاة ، وفمه ملطخ كله بالسكر ، وحين
يعضها تنبثق مربى الكعكة وتسيل على بلوزته في الداخل فتاة صغيرة محنية
على قدر ، كان لها وجه لطيف ، وبشرة رقيقة . ومع أن شعرها مُغطى بشالٍ
فإنها شقراء حتماً . كانت تُخرجُ كعكاتها من الزيت المغلى وتضعها فوق
المشواة . فجأة نظرت إلى أعلى ، التقت عيوننا وابتسمت بوجهي . كان
لابتسامتها تأثير السحريّ ، رددت لها الابتسام ، وبقينا كذلك بضع ثوان ،
دونما حركة ، وإذ لم يكن سواها . فقد رأيت نفسى أنظر إليها من مسافة
قصوى ، رأيتنا ، نحن الاثنين ، نقف هناك ، تبسم واحدتنا للآخرى مثل
أختين . وخفضتُ بصرى إذ تذكرت أنى لا أملك نقوداً فأشترى واحدة من
كعكاتها المقلبات بالدهن ، والتي أثارت رائحتها معدنى . نظرت إلى أدنى ،
إلى قسمي رأس الأبله وتمنيت لو أن معى نقوداً . لا يمكن أبداً أن تظل معى
نقود بعد أن التقى بفريد ، فهو لا يستطيع مقاومة رؤية النقود ، وغالباً ما
يقنعنى بصرفها على الشراب . واجهنى مشهد عنق الأبله الغليظ ، فُتات
السكر المتناثر على وجهه وتصاعدٌ في مثل حُمرة الخجل وأنا أتأمل شفثيه
المنفرجتين .

حين رفعت عيني مرة أخرى كانت الفتاة قد دفعت الجفنة جانباً ، وكانت قد بدأت بحل ربطة شعرها ، نفضتها ، وتلامع شعرها في ضوء الشمس : ومرة أخرى لم أرها فحسب ، ولكن أيضاً رأيت نفسى من مكانٍ عالٍ : الشارع مملوء بالأنقاض ، رواق الكنيسة ، اللافته ، وأنا وواقفة في مدخل هذا الكوخ : ناشفة وحزينة ، لكن مبتسمة .

مشيت متأنية ، مررت بالأبله في الكوخ . في الزاوية طفلان يجلسان إلى مائدة ، وإلى جانب الأريكة عجوز غير حليق ، يقرأ صحيفة . أنزل الصحيفة ونظر إلى .

الفتاة الواقفة بجوار مكنة القهوة نظرت إلى المرأة وربّت شعرها ؛ رأيتها صغيرة جداً ، بيضاء ، لها يدا طفلة ، ولأن أراها في المرأة وإلى جوارها وجهٌ فتى ينظر إلى ، ينظر إلى فمى النحيل المزموم قليلاً ، بطلائه الرفيع ، القرمزى المسوح . والابتسامة على وجهى وإن صدرت عني ، لكنها ارتسمت خلافاً لإرادتى ، فبدت ابتسامة كاذبة ، والآن ، فجأة لاح رأسان يتبادلان المكان ، أخذت رأسى ، وأخذت رأسها ، ورأيتني فتاة صغيرة تقف أمام المرأة ، أرتب شعري ، رأيتني ، تلك الطفلة ، يافعةً متفتحة في الليل لرجل تحبه ، والذي سيضخ الحياة والموت فيها ، تاركاً على وجهها آثار ما يُسمّى بـ الحب ، حتى يصير وجهها يشبه وجهى الآن : هزيراً ممصوفاً من مرارة الحياة .

لكنها الآن تستدير ، تخفى وجهى في المرأة ، وخطوت إلى اليمين مستسلمةً لسحرها .

قلت : « مساء الخير » .

قالت : « مساء الخير ، هل تريدان كعكاتٍ ؟ » .

قلت : « كلا ، شكرًا » .

- « لمَ لا ، أليست طيبة رائحتها ؟ » .

- « هي كذلك » .

قلت واضطربت أمام فكرة الرجل المجهول الذى سوف تمنحه نفسها ،
« نعم رائحتها حقيقةً طيبة ، لكنى لم أجلب نقودى » .

عند كلمة « نقود » نهض الرجل الذى بجوار الأريكة ، جاء إلى من وراء
المنضدة ووقف إلى جانب الفتاة ، وقال :

« نقود ؟ ولكنك يمكن أن تدفعى فيها بعد . أنت ترين كعكاتٍ ، ألا
تريدان ؟ » .

قلت : « نعم » .

قالت الفتاة : « أوه ، اجلسى » .

رجعت خطوات إلى وراء وجلست إلى جانب الأطفال ، نادى الفتاة :

- « قهوة أيضاً ؟ » .

- « نعم ، من فضلك . »

وضع الرجل ثلاث كعكات على صحنى وجلبها إلى .

انتظر إلى جوارى قلت :

« شكرًا ، ولكنك لا تعرفنى ؟ »

ابتسم إلى ، أنزل يديه من وراء ظهره ووضعها بهدوء فوق بطنه ،
وهمهم :

« أوه ، لا تهتمى » .

أشرت برأسى إلى الأبله الذى يجلس على العتبة :

« ابنك ؟ »

قال بصوت خفيض : « هو ابنى ، وتلك ابنتى » .

نظر إلى الفتاة وراء المنضدة ، التى كانت تحرك عتلة مكنة القهوة .

قال الرجل العجوز : « ولدى لا يفهم ، لا يفهم لغة البشر ، ولا لغة
الحيوان ، لا يستطيع لفظ كلمة واحدة غير دزو - دزا - ززاي - ونحن » .

وهنا انبسط لسانه الذى كان يجهد لتشكيل تلك الأصوات ، فى فمه مرة
أخرى .

« ونحن نقلده ، بضعف ، بخشونة ، نحن نلفظ تزو - تزا - تزاي .
نحن غير أكفاء » .

قال ذلك بخفوت ثم رفع صوته قليلاً منادياً :

« برنارد » .

فأدار الأبله رأسه ببلادة ، ثم تركه يهطل إلى أمام مرة ثانية مثل بندول ،
ونفض العجوز ، أخذ الولد برفق من يده وقاده إلى المنضدة جلس بجانبى
على الكرسي ، رفع الولد إلى حضنه ، وسألنى برقة « أم أنه خييك ، قولى
ذلك . »

قلت : « كلاً لم يخينى » .

وأنت ابتته بالقهوة ، وضعت الكوب أمامي ، وجلست إلى جانب أبيها: « يجب أن تقولي إن هو ضايقتك ، لا نهم ، أكثر الناس يشعرون بالقرف منه » .

كان الطفل بديناً . ملطّخاً كله ، نظرت فارغة ، يرطن بأصواته : دزو - دزا - دزاي . نظرت إليه ملياً ، رفعت رأسي ثانية ، وقت :

« كلا هو لم يقرني - هو كالطفل » .

رفعت كوب القهوة إلى شفتي ، رشفت بعضاً منه قضمت الكعكة المقلية المحلاة ، وقلت :

« يا عزيزتي قهوتك جيدة ! » .

« حقاً ؟ » ردت على الفتاة باندهاش . « قال لي رجل هذا صباح اليوم - لا أحد عده مثلها » .

« إنها جيدة فعلاً » .

قلت ذلك وشربت أكثر ، وأخذت قَصْمةً أخرى من الكعكة . مالت الفتاة على ظهري كرسى والدها ، نظرت إليّ ، ثم ورائي ، وقالت :

« أحاول أحياناً أن أتصور كيف يجرب الأشياء ، كيف يعيش - هو عادةً مسالم جداً ، سعيد جداً - ربما بالنسبة له ، الهواء ماء ، ماء أخضر ، لأنه يجد من الصعب الخوض فيه - ماء أخضر يتحول بعض الأحيان إلى بني ، مُوشى بأشرطة سود ، مثل شيء قديم . يصرخ أحياناً ، إذا ما كانت حوله ضوضاء معينة ، أو سمع صرير الحافلات أو صافرات المرسلات الحادة . هذا مزعج » ويصرخ إن داهمه مثل ذلك .

قلت : « أوه ، هو يصرخ ؟ » .

قالت : « نعم » .

وردّت نظرَها إلى متطلعة فيّ دون ابتسام .

« هو يصرخ غالباً ، وتنهمر دموعه على بقايا الطعام حول فمه . والشئ الوحيد الذى يجب أكله هو الطعام الحلو والحليب والخبز - أى شئ ليس حلوًا ، غير الحليب والخبز - يتقيؤه ثانية . أوه ، أنا آسفة . لقد قرفت ... » .

قلت : « كلا ، أخبريني عنه . »

نظرتُ ورائي مرة أخرى ، وضعت يدها فوق رأس الأبله . وكما تزعجه تلك الأصوات ، يتعذر عليه تحريك وجهه أو جسمه ضد تيار الهواء . لعل أذنه مملوءة دائماً بإيقاعات لطيفة لأورغنات ، أو بسياقات موسيقية هو وحده يسمعها - لعله يسمع عاصفة تسفّ أوراق شجرٍ خفىٍّ - أوتار كمان ، أوتار غليظة مثل أذرع تضج - أو أنّ أزيزاً بعيداً يدعوه ، أزيز مدمر .

أصغى العجوز إلى سحرها ، وهو يحتضن يديه جسم الأبله تاركاً المربى والسكر يتساقطان على أكمامه . شربت مزيجاً من الهوة ، نلت قُصمةً من الكعكة الثانية وسألت الفتاة بصوت خفيض :

- « كيف تعرفين ؟ » .

نظرتُ إلىّ وابتسمت قائلة :

- « أنا لا أعرف أى شئ - لكن ، لعل فيه شيئاً لا نعرفه نحن ، أحول أن أتخيله - فهو أحياناً يصرخ فجأةً ويأتى راكضاً إلىّ ، فأترك دموعه تهمل على صدرتي - يحدث هذا تماماً - ولمدة نصف ثانية فقط - تختطفه مثل طعنة

رعب حركة الناس ، في الطريقة التي نراهم فيها ، السيارة ، القطارات ، كل أنواع الضوضاء . بعدها يستمر في الصراخ وقتاً طويلاً .

نهض الأطفال الجالسون في الركن ، دفعوا صحتهم ، ساروا بمحاذاتنا ، عندها صاح فتاة صغيرة ورقة ترتدى قبعة خضراء :

« يقول والدي سجّله على الحساب . »

« نعم ، وهو كذلك . » أجاب العجوز وابتسم وراءهم .

سألت بلطف :

« هذه زوجتك ، وهل أمه ميتة ؟ » .

قال الرجل :

« نعم إنها ميتة - نثرتها قبله أشلاء في الشارع ، قذفت الرضيع من ذراعها ، سقط على حزمة قشٍّ وعُثر عليه يصرخ . »

سألت الفتاة :

« هل كان أعنى من الولادة . . ؟ »

قالت الفتاة

« من الولادة ، كان دائماً كذلك كل شيء يمر به بليل لا صوت له إلاّ أصواتنا ، فهي وحدها التي يسمع : أورغانات الكنيسة ، صرير الترامات وتراتيل الرهبان . لكن لماذا لا تأكلين - أوه قرفت . »

التقطت الكعكة ، هزرت رأسى ، وسألت :

- تقولين إنه يستطيع سماع الرهبان ؟ »

فقال بركة وعيناها على :

« نعم لابد من أنه قادر على سماعهم حين يقدمون تراتيلهم هنا - فوجهه يتغير - في كل وقت لي صدمة - وجهه يضيق ، يبدو قاسياً وهو يصغى ، أعرف أنه يسمعهم ، هو يصغى ، يصير مختلفاً تماماً . هو يسمع ألحان الصلوات ويصرخ حين يتوقف الرهبان . مندهشة أنت ! » .

قالت لي ذلك وابتسمت : « استمرى في أكلك ! » .

رفعت الكعكة مرة أخرى ، أخذت قَصْصَةً ملء فمى ، أحسست بالمرى تذوب في فمى ، قلت

« لابد من أنك تمضين به كثيرًا إلى ميدان بلدونر » .

قالت : « أوه ، نعم ، غالباً ما أصطحبه إلى هناك ، وإن كانت الصدمة دائماً تنتظرني منه ، هل تريد من مزيداً من القهوة ؟ » .

قلت : « كلا ، شكرًا ، يجب أن أمضى » .

نظرت إليها مترددة وللأبله ، ثم قلت :

- « أود أن أراه يوماً » .

سألتنى : « في الكنيسة ؟ مع الرهبان ؟ » .

قلت : « نعم » .

- « أوه ، لم لا تمرّين بنا دائماً ، كم مؤسف أن تتركينا - ستعودين ، أليس كذلك ؟ » .

قلت : « سأعود ، ينبغي على أن أدفع ما أنا مدينة به » .

« لا ، ليس من أجل هذا أرجوك ، عودى إلينا » .

وهزّ العجوز رأسه مؤيداً كلماتها .

أكملت قهوتي ، نهضت ونفضت الفُتات قلت :

- « سأعود . لطيف هذا المكان » .

فسألت الفتاة : « اليوم ؟ »

« ليس اليوم ، ولكن قريباً ، لعل صباح الغد - وفي الأكثر سأذهب معك لأستمع إلى الرهبان » .

قالت : « نعم » .

ومدّت لى يدها ، أخذتها بيدي لحظة ، تلك اليد الرقيقة البيضاء النحيلة جداً ، تطلعت في وجهها الفتى ، ابتسمت وأشارت برأسى للعجوز ، قلت بمحبة للأبله الذى كان يفتّت كعكة بين أصابعه :

« برنارد » .

لكنه لم يسمعنى ، حتى لم يبد أنه يرانى ، فقد أطبق أجفانه تماماً ، تلك الأجفان المحمرة ملتهبة الأطراف .

استدرت مغادرةً المكان وسرت باتجاه الممر السفلى الذى يؤدى إلى شارع المحطة .

حين نزلت السلم ، كانت الصحون قد رفعت عن الموائد ، وكانت لا تزال هناك رائحة اللحم البارد والسّلطة حلوى البودنج . جلست في زاوية ورحت أراقب شاوين يلعبان في مكثات التسلية ، وأسمع ذلك الأزيز الذى تطلقه كرات النيكل في ارتطاماتها الجانبية . أثارتنى دوامة الأقراص في شق المكثة ووقفاتها المتقطعة . مسح النادل الموائد بمنديله ، السيدة ، صاحبة المحل رفعت بطاقة صفراء كبيرة مكتوب عليها :

رقص هذه الليلة . الدخول مجاناً .

إلى المائدة التى تجاورنى ، جلس رجل عجوز فى سترة « لودن » وقبعة من لباد خضراء ، وغليونه يدخن فى المنفضة . احتفظ الرجل بقبعته على رأسه وهو يخلط اللحم الغنى بالفلفل .

سألنى النادل : « ماذا تحب ؟ »

صعدت نظرى عليه إلى وجهه الأليف :

« ما عندكم ؟ »

قال : « لحم ، شرائح لحم ، بطاطا ، سلطة ، سجق وشورية تبدأ بها إن شئت » .

« سأتناول لحماً ، وأبدأ بشورية وشنايز »

قال النادل : « كما تحب يا سيدى . »

كان الطعام ساخناً وشهيئاً ، وأدركت أنى ضائع ، طلبت شيئاً من الخبز وغمست الخبز بالصلصة . طلبت شنابز آخر . لا يزال الشابان هناك . شعر أحدهما قافٍ من مقرقه .

دفعت ، انتظرت دقائق أخرى ، لكن المكثنة لا تزال مشغولة . نظرت عن قرب إلى وجه النادل ثانية : ذلك الوجه الشاحب ، ذلك الشعر الخفيف الأبيض تقريباً : الشعر - حتماً رأيتها فى مكان ما .

حين طلبت عند المنضدة سجائر ، نظرت إلى صاحبة المحل وسألتنى :

- « هل ستقضى الليلة هنا ؟ » .

قلت : « نعم » .

« هل تتفضل بالدفع مقدماً ، إنه فقط - وعبست - إنا بهذه الطريقة نشعر باطمئنان أكثر ، فقربنا الشديد من المحطة ، لا نعرف اللغة . . »

قلت : « حسناً » . وأخرجت نقودى .

قالت « ثمانية ماركات من فضلك ، وبللت قلمها لتكتب لى إيصالاً .

« هل تتوقع أحداً ؟ » سألتنى وهى تناولنى الورقة .

- « نعم ، زوجتى » .

- « هذا حسن » .

قالت لى وسلمتنى السجائر ، وتركت لها ماركاً وغادرت إلى أعلى .

اضطجعت على الفراش وقتاً طويلاً ، أفكر وأدخن ، دونها شيء يدور حوله تفكيرى ، حتى تذكرت بأننى كنت أريد تحديد : أين رأيت وجه النادل ، أنا لا أنسى وجهاً ، كل الوجوه تتبعنى ، وأعرفها حالما تقابلنى . إنها تسكع هناك فى اللاوعى ، بخاصة أولئك الذين رأيتهم مرة واحدة ، وباختصار شديد ، هى تسبح فى ذهنى مثل سمك رمادى غير واضح يتسلل بين الأعشاب فى بركة موحلة . أحياناً تخرج وجوهها إلى أعلى السطح ، لكنها تخرج كاملة حين أراها مرة أخرى . دونها هواده أحاول الاصطياد من ذلك السرب فى البحيرة ، مسحبت الخيط ، فكان هو ، النادل : الجندى الذى نام جوارى دقيقة فى مستشفى الميدان ، تذكرت أنى رأيت القمل يزحف من الضمادات حول رأسه ، لقد انعمست فى الدم المتخثر والطازج ؛ قمل يزحف مكشوفاً فوق رقبتة ، فى الصديد وكان شعر أبيض تقريباً فوق وجه ذلك الإنسان فاقد الوعى ، ومخلوقات جريئة تتسلق أذنيه ، تنزلق ، تهبط على كتفيه ، وتختفى ثانية فى الياقة . . وجه ضيق

يتعذب رأيتُه على مسافة ألفى ميل من هذا المكان - ذلك هو الشخص الذى يقدم لى الآن .

فرحت إذ عرفت مكان النادل الأولى ، انقلبت على جنبى ، أخرجت نقودى من جيبى وعددتها فوق الوسادة . لا يزال عندى ثمانون ماركاً وثمانى فينيكات .

بعدها نزلت ثانية إلى البار . كان الشابان لا يزالان واقفين عند المكنتات . يبدو جيب أحدهما مليئاً بقطع النقود ، لقد هطل ثقيلاً ، ويده اليمنى تلمس طريقها خلال النقود . الشخص الآخر الذى تبقى هو الرجل ذو قبعة اللباد الخضراء ، بقى يشرب بيرة ويقرأ الجريدة . تناولت شنايز . عيناى إلى وجه صاحبة المحل الأملس ، وقد كانت جالسة على مقعد تتصفح مجلة .

صعدت فوق مرةً أخرى . اضطجعت على السرير ، دخنت ، وفكرت فى « كيت » وأولاد ، فكرت فى الحرب وفى الطفَّلين اللذين أكد لنا القسس أنها فى الجنة ، أنا أفكر فى هؤلاء الأطفال كل يوم ، لكنى اليوم فكرت فيهم مدة أطول . لأحد ممن يعرفوننى ، ولا حتى كيت ، يصدقون كم أفكر فيهم . إنهم يعتبروننى شخصاً مهزوزاً يغير عمله كل ثلاث سنوات مذ استنفد النقود التى ورثها من أبيه على الخمر ، شخص بالرغم من تقدمه فى السن لا يسعى لاستقرار ، غير مهتم بعائلته ، ولكما وقع على مال أضاعه فى سُكره .

لكنى فى الواقع ما كنت أشرب إلا نادراً ، حتى ولا كل شهر ، ولا يحدث أن أكون مخموراً حتى كل ثلاثة أشهر بشكل منتظم . وأتساءل

أحياناً : ماذا يتصور الناس عملي خلال كل الأيام التي لا أشرب فيها ، وهي تسعة وعشرون من ثلاثين ؟ أنا أسعى كثيراً . أحاول كسب المال . أحمل بعضاً من الكتب التي قرأتها في المدرسة وأبيعها إلى الطلبة المجدين في الصفوف الخامسة . أتسكع في المدينة ، عادةً ، خارجها في الأطراف ، وأزور المقابر حين تكون مفتوحة ، أتمشى بين الأشجار المشدّبة باعتناء ، ومنابت الأزهار المنتظمة ، أقرأ الشواهد ، الأسماء ، أتسبّع برائحة المقبرة ، وأشعر بقلبي يخفق من الحقيقة الثابتة ، حقيقة أنى أيضاً ، سأرقد هناك . مرّ زمن اعتدنا أن نساfer فيه كثيراً ، في تلك الأيام التي كنا فيها لا نزال نمتلك نفوداً - لكنني فعلت في المدن الغربية مثل هذا الذي أفعله هنا ، حيث قررت البقاء : أنام على أسرة الفنادق ، أدخن أو أسير على غير هدى بين وقت وآخر أدخل كنيسة ، أو أمضى مشياً إلى الضواحي البعيدة حيث تكون المقابر . أشرب في حانات رخيصة ، أكوّن صداقات في الليل مع غرباء أعرف أنى لن ألتقى بهم مرة أخرى .

حتى حينما كنت طفلاً ، كنت أحب الذهاب إلى المقابر ، أشبع رغبةً لا يعتبرونها مناسبةً لولد صغير . لكن تلك الأسماء ، وأصص الأزهار تلك حرف ورائحة هناك ، تقول لى إننى أيضاً سأموت : تلك الحقيقة التي ما شككت بها قط أحياناً ، في تلك الصفوف التي أجتازها ببطء ، والتي لا نهاية لها ، أجد أسماء ناس أعرفهم -

طفلاً ، خبرت حقيقة الموت . ماتت والدتي وأنا في السابعة ، وباهتمام شديد راقبت كل شيء أجرّوه لها : جاء القس ، مسحها بالزيت ، باركها - كانت ممددة لا تتحرك . تسلّموا الأزهار ، جاء الأقربون ، بكوا ، وصلوا إلى جانب سريرها - كانت ممددة لا تتحرك . راقبت كل شيء بفضول .

ولأننى أنا الذى فُجِعْتُ فى أُمِّى ، لم يمنعونى من مراقبة الرجال فى « بيت الموتى » . غسلوا أُمِّى ، ألبسوها رداءً أبيض ، وزَّعوا الأزهار حول النعش ، سمَّروا غطاء النعش . حملوا النعش فى سيارة - وكانت الشقة خالية ، ليس فيها أُمِّى . دون أن أخبر أبى ، ذهبت إلى المقبرة . ركبَت السيارة (١٢) - آه لن أنسى - ذهبت إلى ميدان توكوف ، ومنه ركبَت الحافلة رقم (١٠) ، ركبتهَا إلى نهاية الخط البعيد .

كانت تلك المرة الأولى التى أدخل فيها مقبرة ، سألت الرجل ذا القبعة الخضراء عند البوابة : أين أُمِّى ؟

كان له وجه منفوخ أحمر ، تفوح منه رائحة الخمر ، أخذنى من يدى ، وسار بى عبر القبور إلى مبنى الإدارة . كان طيباً جداً معى ، سألتنى عن اسمى ، أدخلنى غرفة ، وطلب أن أنتظر . انتظرت . سرت بين المقاعد حول منضدة بلون بنى فاتح ، تطلعت إلى الصُّور على الجدار ، وانتظرت : إحدى الصور كانت امرأة نحيلة سوداء جالسة فوق جزيرة ، تنتظر . وقفت على أطراف أصابعى ، وحاولت قراءة ما كان مكتوباً تحتها ، وجهدت لأُمِّيز: نانا . صورة أخرى أظهرت رجلاً عجوزاً ملتجئاً ، يكشّر حاملاً عليه بيرة ذات غطاء باذخ الزخرفة مفتوح باتجاه وجهه . لم أستطع قراءة ما تحت الصورة ، ذهبت إلى الباب ، لكنَّ كان الباب مغلقاً . فبدأت أبكى حتى سمعت وقع حُطَى فى الممر : إنه والدى قد وصل : كنت غالباً أسمع حُطاه خلال ممر طويل . فأشفق والدى على . مع الرجل البدين ذى القبعة الخضراء الذى تفوح منه رائحة الخمر ، مضينا عبر المقابر إلى معرض الجثث . رأيتهم هناك واقفين ، ونقوش عليها أسماء وأرقام . قادنا الرجل ذو

القبة الخضراء إلى نعش ، ورفع والدى رقعة باصبغه ، وقرأ : اليزابث بوكنر
١٨ ، ٤ ، ٤ ب : ظ مخطط ٧ / ل .

وسألنى عن تاريخها ، قلت : لا أدرى . فقال السلدس عشر . لن
تُدفن أملك حتى بعد غد .

أردت الاطمئنان عليه ، ألا يحدث شيء للنعش الذى ربما لا نراه ،
وبكى والدى ، وعدنى ، وتبعته . فى الشقة الكثيرة ، ساعدته على تنظيف
المخزن الكبير القديم ، وأخرجنا كل الأشياء التى اشترتها أمى خلال سنواتها
من ياعتها المتجولين : مجموعة من تصول المقصات الصلدة ، صابون ،
مسحوق مبيد للحشرات . مطاط تالف ، وعدة عليـ من دبابيس الأمان .
بكى أبى .

وبعد يومين فعلاً رأيت النعش تماماً كما كان . حملوه على عربة معلقة
عليها أكاليل وأزهار ، تبعنا النعش سائرين وراء القس ، مساعد الكاهن .
إلى حفرة طينية فى المخطط (رقم ٧) ورأيت النعش يُزال ، ويُنزل ، ويرش
عليه الماء المقدس ، ويُتر على التراب . وأصغيت لصلاة القس ، وهو
يتكلم عن التراب والنشور .

وقفنا خلف المقبرة وقتاً طويلاً ، أبى وأنا ، فقد أصررتُ على أن أرى :
ألقي حفارو القبور كثيراً من التراب على أعلى القبر ، ثم رصفوه ،
وبمساحيهم جعلوا منه رابية صغيرة ، ألقيوا الأكاليل فوقها وأخيراً غرس
أحدهم فى التراب صليلاً أبيض صغيراً ، منقوشة عليه حروف سود ، تمكنت
من قراءتها :

« اليزابث بوكنر »

حتى وأنا طفل أدركت معنى كون الإنسان ميتاً : يعى أنه اختفى ، دُفِنَ في الأرض ، وأنه ينتظر النشور . وفهمت ، انتهت بدقة إلى أن جميع الناس يجب أن يموتوا ، والكثير ممن أعرفهم ماتوا ، وأن أحداً لم يمنعنى من حضور دفنهم .

ربما فكرت في الموت كثيراً ، وأولئك الذين يعتبروننى سكيراً مخطئون . فكلما أجهدت نفسى فى شىء ، بدا غير مجيد ، ومملأً ، وبعيداً عنى .

ومنذ غادرت كيت والأطفال بدأت أعاود الذهاب إلى المقابر مرة بعد أخرى ، وأحاول أن أكون هناك مبكراً حتى أشارك فى مراسم الدفن ؛ فأنا أتابع نعوش نائس لا أعرفهم ، أصغى إلى تراتيل الدفن ، وأردّد الشعائر التى يهتم بها القس فوق القبر ، أرمى تراباً فى الحُفَر ، أصل بجانب النعوش ، إذا امتلكتُ نقوداً ، أشتري زهوراً أولاً ، وأثرها زهرات منفردات فوق التراب . الذى سيُهلل فوق النعش . أمشى ماراً بالأقارب الباكين ، وأدعى فى مناسبات إلى الدار ، فأجلس إلى مائدة مع غرباء تماماً . أشرب بيرة ، وأكل بطاطا وسلطة وسجقاً ، أسمح لنسوة باقيات بأن يملأن صحنى بسندويتشات كبيرة ، أأدخن سجائر ، أشرب شنايز ، وأصغى لتاريخ ناس لا أعرف عنهم شيئاً ، غير رؤيتى لنعوشهم . ويرونى صوراً فوتوغرافية لهم قبل أسبوع تَبَعْتُ نعش فتاة شابة ، وجلست بعد ذلك فى غرفة فى ركن ، فى مطعم من طراز عتيق وبجانب أبيها ، الذى أخذنى إلى معجب سرّاً بابنته . أرانى صوراً لها ، صوراً لمخلوقة جميلة حقاً : شعرها يرفرف فى الهواء ، كانت جالسة فوق دراجة بخارية خفيضة فى مدخل شارع مشجر .

أخبرنى والدها : « لقد كانت طفلة ، لا تعرف شيئاً عن الحب » .

نثرت زهوراً فوق نعشها ، ورأيت دموعاً في عيني والدها وهو ينزل
سيجارة للحظة إلى منفضة فخارية ذات لونٍ رمادي ، لكي يمسح عينيه .

لم أهتم بكل تلك المشاغل التي مارستها ، لم أستطع توفير الجَدِّ المطلوب
لشاغل حقيقي . قبل الحرب عملت زمناً طويلاً في مكتب لإنتاج مواد
صيدلية حتى أدركني السأم ، وانتقلت من ذلك العمل إلى التصوير
الفوتوغرافي الذي تعبت منه أيضاً . ثم قررت العمل في مكتبة ، وإن كنت
لا أجد متعة في القراءة ، وفي المكتبة التقيت بـ « كيت » التي تهوى الكتب .

بقيت هناك أن « كيت » كانت هناك ، لكننا قبل أن يمضي وقت طويل
تزوجنا ، وكان عليها أن تغادر حين حملت لأول مرة ، . وجاءت الحرب
أيضاً ، وولد طفلنا الأول كليمنز ، واستُدعيت إلى الخدمة .

لم أشأ التفكير في الحرب ، نهضت من فراشي وهبطت على السلم ثانية
إلى البار : كانت الساعة الرابعة ، تناوت شنايز ، ذهبت إلى المكنتات . لم
يكن حولها أحد ، لك ما إن أسقطت فيها قطعة نقد واحدة وضغطت على
العتلة ، حتى أدركت أنني كنت متعباً . عُدْتُ إلى الغرفة ، اضطجعت على
فراشي مرة أخرى ، دَخْتُ ، فَكَّرْتُ في « كيت » حتى سمعت الأجراس
تُقَرِّع في كنيسة الأحران السبعة ...



لم أجد صعوبة فى رؤية إشارة اليد السوداء ، فتابعته طريقي ، وسرت
وفى اتجاه الإصبع المؤشرة . كان الشارع رمادياً وخالياً ، وأنا ماضية فى
سيرى ، واجهتنى فجأة كتلة بشرية تجرى من بناية ضيقة ، ورأيت صالة
سينما تفرغ من ناسها . فى المنعطف كانت إشارة أخرى ، يد سوداء مصبوغة
والإصبع فيها محنية تشير : صرت أمام الدار الهولندية . صدمتنى
قذارتها .! عبرت الشارع ببطء ، توقفت عند المدخل المصبوغ بالأحمر صبغاً
رخيصاً ، دفعت فاتحة الباب وسرت فى داخل المطعم . كان ثلاثة رجال
واقفين عند المنضدة . نظروا إلىّ وأنا أدخل ، انقطع حديثهم نظروا إلى
صاحبة المحل ، ورفعت هذه نظرها من المجلة ونظرت إلىّ . انتقلت عيناها
من وجهى إلى قبعتى ، بعدها إلى الحقيبة .

التي كنت أحمّلها ، انحنت قليلاً إلى أمام تتفحص حذائى وساقى ، ثم
نظرت فى وجهى ، حدقت طويلاً فى شفّتى ، كما لو كانت تحال معرفة اسم
قلم الحمرة الذى استعملته . مرة ثانية مالت إلى الأمام ، نظرت متشككة إلى
ساقى ، وسألتنى بوهن :

« نعم ؟ »

أزاحت يديها عن عجيزتها ، وضعتها على المائدة المعدنية ، ثم شيكتها فوق يطنها ، واتخذ وجهها التحيل الأبيض تعبيراً غامضاً .

قلت : « زوجي يتوقع مجيئي » .

استدار الرجال عني واستأنفوا حديثهم ، وقيل أن أعطيها اسمي ، قالت صاحبة المحل :

« رقم أحد عشر ، الطالب الثاني » .

وأشارت إلى الباب وراء المائدة . اندفع أحد الرجال نحو الباب وأبقاه مفتوحاً لي . ، كان شاحباً ويبدو سكراناً : شفته ترتعشان ، وياض عينيه محتقن دماً . خفض عينيه حين نظرت إليه ، قلت له :

- « شكرا »

سمعتُ خلال فتحة الباب وأنا أصعد السلام صوتاً يقول :

« هي ليست من خارج البلدة » .

كان لـ « فُرْغَة السَّلَم » جدران خضر ، ووراء زجاجها يمكن أن يرى المرء ظل جدار أسود ، وعلى الطابق الثاني ، في ممر صغير لغرفة الطعام العامة يتوقد مصباح مكشوف .

طرقت على الباب (رقم ١١) ، وإذ لم يأت ردّ من الداخل ، فتحتة ودخلت . كان فريد مضطجعاً غافياً . بدأ هشاً ، طفلاً تقريباً ، ينام في فراشه . ربما لا تصدّق أن ابن الثامنة عشرة ذاك ، قد أظهرت الحياة على وجهه كل هذا التعب . حين ينام ، تنفرج شفته قليلاً ، يتهدّل شعره الأسود على جبينه ويبدو وجهه كما لو كان فاقد الوعي ، إنه ينام عميقاً ،

وأنا صاعدت على السلم إليه كنت غاضبة منه ، إذ اضطررتي لأن أواجه النظرات مثل بَيْغَى .

لكني الآن وصلتُ سريره ، ويحذر سحبُ الكرسي ، وفتحت حقيتي اليدوية ، وأخرجت سجائري .

دَخَنْت وأنا جالسة إلى جانب سريره ، أبعدت عيني عنه ، حين بدأ يتبّه ، تطلعت إلى ورق الجدران الأخضر ورسوم القلوب عليه . نظرت إلى الأثاث الرث ، ونفخت دخان سيجارتي خلال فُرجة النافذة المفتوحة . عدت إلى الماضي ، وأدركت ألا شيء تغير كثيرًا منذ تزوجنا .

ابتدأ زواجنا في تلك الأيام في غرفة مؤنثة ، هي في أيام القبح كانت رديئة نسبةً إلى غرفة الفندق هذه . وما إن انتقلنا إلى شقة مناسبة حتى اندلعت الحرب ما زلت أفكر فيها كما لو لم يحدث شيء : ثلاث غرف ومطبخ وحمام وغرفة لكليمنز على ورق جدرانها رسوم كارتون (ماكس - ومورتز) وإن كان لا يزال صغيرًا لا يميز الصور . بمرور الزمن نما وكبر ، فصار يدرك ويميز ، تلك الغرفة التي على ورق جدرانها رسوم كارتون (ماكس وموتز) لم تعد موجودة ، ومازلت أرى فريدًا واقفًا هناك ، يداه في جيبى بنطلون سترته الرمادية يحرق في كوم الحجارة أمامه وذؤابة من دخان تتصاعد منها . بدا فريد لا يرى شيئًا ، لا يشعر بشيء ، غير قادر على أن يفهم أننا لم نعد نمتلك أي شرشف ، أي قطعة أثاث ، أي شيء - نظر إلى وعلى وجهه تعبير رجل لم يعد يملك شيئًا . أبعد السيجارة من شفتيه ، وضعها بين شفتيّ أخذتُ منها نفسًا عميقًا . وفي أول انفجرت بضحك هستيري .

فتحت النافذة على سعتها ورميتُ عقب السيجارة في ساحة المبنى .

أكوام تقاليينات ترتفع إلى جانب مستنقع اكتسى صفرةً بفعل رقاد الفحم الحجري ، سقطت سيجارتي فيه ، وسمعت هسيسها . قطار يرتج في المحطة . سمعت صوت منيع للحطة يرتفع بدون أن أفهم كلماته ..

استيقظ فريد حين بدأت أجراس الكاتدرائية تهرع ، فزعها جعل زجاج النافذة يتحرك ، يهتز ، وتتلقى هذا الاهتزاز ستارة معدنية فوق قاعدة النافذة ، ورقص الستارة بدوره يتج سقسقات جانبية .

نظر إلى فريد بدون أن يتحرك وبدون أن يقول كلمة ، تحسر . وعرفت أنه بدأ يبطئ يتعد عن النوم .

قلت : « فريد » .

قال : « نعم » .

وسحبني إليه وقبلني .

ظل يدنيني إليه حتى تعانقنا . نظر أحداً للآخر ، وإذا أخذ رأسي بين يديه مبعداً إياه كأنها يتفحص وجهي ، ما كان مني إلا أن أبتسم .

قلت : « لنذهب إلى القديس ، أم أنك كنت . . ؟ » .

قال : « كلا منذ دقيقتين . وصلتُ إليه وقتَ التبريك تماماً .

- إذن دعنا نذهب .

كان راقداً بدون أن يخلع حذاءيه على السرير . واضح أنه نام دون أن يسحب الغطاء عليه ، وكنت أراه برداناً . صبّ ماءً في المغسلة ، فرك وجهه بيدين مبللتين ، غسله ، جفّف نفسه ، ورفع سترته من الكرسي .

نزلنا على السلم يدًا بيد . الرجال الثلاثة ما زالوا واقفين عند المائدة .

يتحدث بعضهم لبعض دون أن ينظروا إلينا . سلم فريد مفتاح الغرفة لصاحبة المنزل التى علّقته على لوحٍ وسألت :

« هل ستغادرون المكان لمدة طويلة ؟ »

قال فريد : « ساعة . »

حين وصلنا إلى الكاتدرائية كانت الصلاة قد انتهت ، وكنا تماماً في وقت مسير موكب التقدمة إلى غلفة الكهنة : بدوا مثل شبوط أبيض يسبح ببطء في ماء رمادى باهت . راهب مُتَعَب أدى الصلاة في مذبج جانبي ، قالها متعجلاً ، ورفع كتفيه نافذ الصبر وهو يتحرك إلى الجهة اليسرى من المذبج ليأخذ الإنجيل . لم يكن مساعد الكاهن حاضراً مع كتاب القدّاس . سحبات من البخور عبرت المذبج الرئيسى . ناس كثيرون يسرون حول المجموعة التى تحضر القداس . كان أكثرهم رجلاً يحملون أعلاماً حمراء صغيرة فوق طيّات صدور ثيابهم . فى « التكريس » فزع البعض من رنين الجرس وتوقفوا . لكن أكثرهم واصلوا سيرهم ، متطلعين إلى الفسيفساء والنوافذ ، متجهين إلى المذابح .

نظرت إلى الساعة المعلقة عالياً على الجدار بجانب الأورغن ، وهى تعطى إشارات لطيفة كل خمس عشرة دقيقة . وإذ سرنا إلى الباب بعد انتهاء التبريك لا حظتُ أن القداس استغرق تسع عشرة دقيقة بالضبط . كان فريد ينتظرني فى الرواق ، ذهبت إلى مذبج العذراء المباركة ، وتلوت «السلام لمريم» .

دعوت ألاّ أكون حاملاً ، مع أن خائفة من أن أصلى لذلك . كانت هناك شموع كثيرة تشتعل أمام العذراء وفى جانب حاملمة شموع حديدية

كبيرة ، وضعت حزمة كاملة من شموع صُفّر . علقت جوارها بطاقة مَوْقَع عليها :

« مقدمة من الدوائيين الكاثوليك »

فرع اتحاد الدوائيين الألمان .

استدرتُ إلى فريد ، وخرجنا . الشمس مشرقة في الخارج ، الساعة الخامسة وعشرون دقيقة . كنت جائعة . أخذت ذراع فريد ، وإذ نحن نسير نازلين بخطوات واسعة ، سمعته يحرك القطع النقدية في جيبه .

سألنى : « هل تحبين أن نأكل في مطعم ؟ » .

قلت : « كلا ، في محل أكلات خفيفة . أحب أن أكل في محلات الأكلات الخفيفة » .

قال : « إذن فلنذهب » .

واستدرنا إلى زقاق بلوشر .

بمرور السنوات ديسَتْ أكوام النفايات فصارت تلالاً كروية صغيرة نَمَتْ عليها الأعشاب غزيرة كثيفة ، وامتدت شجيرات خضر - رمادية بلمعان محمّر تعكسه أعشاب « السفنية » المتباعدة بأزهارها الأرجوانية . كان هنا نصب تذكاري للجنرال بلوشر . وهو تمثال برونزي ضخّم شديد ينظر إلى السماء بغضب - بقي هذا التمثال مطروحاً هنا ، في القناة حتى سُرق .

وراء بوابة حديدية أكوام قمامة لم تترك غير ممر ضيق شق عبر الخرائب . وحين أوصلنى إلى شارع « مومسن » ، حيث لا تزال بضع بنايات قائمة « بدأت أسمع من بعد - وعبر النفايات - موسيقى المعرض . أوقفتُ فريداً ،

وحين توقفنا صرت أسمع تلك الموسيقى بوضوح أكثر : ذلك الضجيج
المجنون لألة « الكاليوب » الموسيقية .

قلت : « فريد ، هل يحدث شيء في المدينة ؟ » .

قال : « نعم ، بسبب الدوائيين ، هل تريد أن نذهب ؟ أنمضى إلى
هناك ؟ »

- « أوه ، نعم » .

أجبت وأسرعنا ، اخترقنا الناس عبر شارع « فيلدا » وحين انعطفنا ثانية
وجدنا أنفسنا فجأة وسط صخب وروائح المعرض . أصوات الأورغانات
اليودية ، رائحة اللحم الحادة ممزوج برائحة الفطائر ثقيلة الزيت ، والمقلية
كثيراً . هسيس أصوات المتجولين العالى والمرح ملأت نفسى بالإثارة ،
وشعرت بقلبي يخفق بشدة - تلك الروائح ، تلك الضوضاء ، كل ذلك
الاضطراب ، ذلك كله يشكل الآن تآلفاً سريعاً .

قلت : « فريد ، أعطني بعض النقود . »

اخرج قطع النقود من جيبه ، سحب القطع الورقية من بين القطع النقدية
طواها ، ووضعها بين أوراقه النقدية الرثة . أهال كل القطع النقدية
الصغيرة على راحتي ، بينها قطع فضية غليظة ، حسبتهما بدقة وفريد يراقبني
مبتسماً .

قلت : « ستة ماركات وثمانون ، هذا كثير يا فريد »

- « احتفظي بها أرجوك » .

ورأيت وجهه الهزيل ، الرمادى المهموم ، رأيت السيجارة ذات البياض

الثلجى بين شفثيه الشاحتين ، وعلمت أنى أحبه حقاً . هنالك عدة أسباب ، لكنَّ واحدًا من هذه أعرفه ، إن الذهاب بصحبته إلى المعرض مُريح .

قلت : « إذن ، سأدفع ثمن الوجبة . »

فأجاب : « أى شىء تقولين ؟ . » ..

أخذت ذراعه ، سحبته جانباً إلى كوخ اللحم ، واجهته مرسوم عليها راقصون هنكاريون ، أولادٌ فلأحون بقبعات مستديرة ، أيديهم على مؤخراتهم ، يتقافزون حول الفتيات . أسندنا مرافقنا على المائدة ، فنهضت المرأة الجالسة على كرسى من النوع الذى يطوى ، إلى جانبٍ قدُر يتصاعد منه البخار ، وقدمت إلينا مبتسمة .

كانت المرأة ممتلئة الجسد ، ذات شعر أسود ، يداها القويتان الجميلتان مزينتان بكثير من الخواتم الرخيصة ، وحول عنقها الأسمر المصفرّ شريط أسود من قطيفة عليه ميدالية .

قلت ، وفريد يدفع لها ماركين :

« اثنين من اللحم » .

تبادلنا الابتسام أنا وفريد ، فى حين مضت المرأة إلى الخلف ورفعت غطاء القدر .

قال فريد : « أنا اليوم تناولت اللحم » .

أجبتّه : « أوه ، آسفة »

« لا تبالي ، فأنا أحب اللحم » .

ووضع يده فوق ذراعى .

أوغلت المرأة مغرفتها عميقاً فى القدر ، ورفعتها مثقلةً باللحم ، ومن القدر يتصاعد البخار الذى نَشَرَ ضباباً على المرايا التى الحائط الخلفى . أعطت كُلاً منا لفة خبز ، ثم مسحت المرأة بقطعة قماش وقالت لى :
- « الآن يمكنك أن ترى كم جميلة أنت ! » .

نظرتُ فى المرأة غير المؤطرة ورأيتنى أبداً جميلة حقاً . بعيداً وراء وجهى فرقة ، رأيت فرقة رماية مضربة ، فرساناً يلهبون ظهور جيادهم ، وقد صُدِمْتُ حين وقعت عيني على وجه فريد ورائى فى المرأة وهو لا يستطيع تناول شئء ساخن ، الساخن يؤذى لثته ، أرى الطريقة التى يقلب فيها الطعام فى فمه حتى يبرد وتعبير الانزعاج الهادىء نفاذ الصبر ، كل ذلك أعطى وجهه نوعاً من التخلّف الحضارى . إنه مشهد شيخوخة يفزعنى كلما بدا عليه . لكن المرأة تضيّبت مرةً أخرى والمرأة أدارت ببطء مغرفتها فى القدر.

وبدا لى أنها تعطى كمية أقل لك من أولئك الذين يقفون إلى جانبنا يمّاً أعطتنا .

دفعنا صحنونا الفارغة ، شكرناها ، وغادرتنا . أخذت بذراع فريد ثانية ، ومشينا على مهلٍ خلال الأزقة بين الأكشاك . قذفت علبة فارغة على دُمنى ذوات ابتسامات جامدة ، تهب عصيرها حين تأتى الضربة على رءوسها ، حين تقفز لى وراء نحو كيس بنى ، حين تندفع آلياً إلى الأمام مرة أخرى . بسعادة ارتضيّت لنفسى أن يخدعنى صوت المنادى المدندن عند الباب ، فاشتريتُ منه تذكرة يانصيب ورحت أتابع عجلة الحظ ، عيني على الدمية

- الدب الأصفر الكبير ، والذي كنت آمل بكسبه ، الذى بقيت آمل بالحصول عليه منذ كنت طفلة . مؤثّر العجلة المهتز يشق طريقه بطيئاً خلال مسامير الشريط ، توقف تماماً قبل الرقم الذى اخترت ، فلم أكسب الدب ، ولم أكسب شيئاً .

ألقيتُ نفسى على المقعد الضيق لحصان الفروسية المهتز ، ضغطت على قطعة ذات عشرين فينيكاً فى باطن الكف وتركت نفسى تنطلق فوق الحصان الدوّار ، وفوق السلاسل ترتفع الدائرة ببطء أعلى فأعلى دائرة حول آلة «الكاليوب» المخفية فى الجفان الخشبية لمحور اللعبة المركزى ، فأطلقت فجأة نغماتها المسعورة فى وجهى .

رأيت برج الكاتدرائية وراء الخرائب يطير من خلالي وأنا على الحصان ، يبعد عنى خضرة العشب الكثيفة المُدْهِمَّة ، رأيت أسطح الخيمة العليا وعليها بقع ماء المطر . وتضاعف أكثر ، أكثر دوران دوامة فرقة الفرسان والتي كانت تسوط حصانى بعشرين فينيكاً . ألقيت نفسى فى حضن الشمس ، كلما لامسنى وهجها جلدنى شبه سوط . سمعت رنين السلسلة، صرخات النساء ، رأيت البخار ، دوامة غبار أرض المعرض تسالت فى تلك الرائحة الدهنية الزنخة ، حتى إذا هبطت من السلم الخشبى مرة أخرى غرقت بين ذراعى فريد وقلت :

« أوه ، فريد ! »

بعشرة فينيكات ، أمكننا أن نحظى برقصة على السطح الخشبى ، يحيط بنا فتیان دون العشرين من أعمارهم ، يحركون بحويّة أوراكهم ، ونحن كل منا أمسك بصاحبه قريباً منه ، ولكما انغمرنا معاً - أنا وفريد - فى إيقاع

الرقص ، وجدت نفسى أنظر إلى الوجه البدين لعازف الترامبيت ، والذى كان نصف ياقته مخفياً تحت آلهة الموسيقى - وكلما رفع رأسه غمز لى ، ونفخ نغمة حادة من « ترامبيته » ، الآلة التى بدت موجهةً لى .

راقبت فريدَ يلعب « الروليت » بعشرة فينيكات ، أحسست بالتوتر الصامت للرجال الواقفين من حولنا لحظة يعطى مدير اللعبة العجلة وخزة فتبدأ الكرة بالوثوب . السرعة التى ثبتوا فيها أوتادهم ، وإلقاء فريد قطعة النقد على الرقعة الصحيحة ، يكشفان عن مهارة ، عن فهم متبادل لم أتوقعه . والكرة تتدحرج ، رأيت مدير اللعبة يرفع رأسه وتجهول عيناه الباردتان بازدياء على أرض العرض . لم يخفض وجهه الصغير والجميل الصلب حتى بدأ الأزيز يخمّد ، فالتقط الأوتاد ، أزلقها فى جيبيه ، ودعا اللاعبين لأن يضعوا أوتادهم ، راقب أصابع الرجال الواقفين حوله ، أعطى العجلة وخزة احتقار ، زمّ شفّتيه ، ونظر إلى ما حوله بضجر .

تكوّمت النقود أمام فريد مرتين ، وأخيراً جمع النقود من المنضدة واتخذ طريقه إلى .

جلسنا على سلام الخيمة عرض ذات ستائر زُرُق . تابعنا الجموع الدائرة ، ابتلعا غباراً واستمعنا إلى موسيقى « الكاليوبات » المتنافرة النغمات ، وسمعنا صرخات « الفرسان » .

نظرت إلى الأرض المغطاة بالأقذار ، متناثرة عليها الأوراق وأعقاب السجائر والزهور الذابلة ، والتذاكر الممزقة . وأنا واهنة أرفع عينيّ رأيت أطفالنا . كان بليرمان يمسك كليمنز من يده ، الفتاة كانت تمسك يد كارلا ، والرضيع فى الحاملة بين بليرمان وصديقه . كانت فى أفواه الأطفال

مصاصات صفر كبيرة ، رأيتهم يضحكون ويتطلعون إلى ما حولهم ، رأيتهم يقفون عند فرقة الرماة ، اقترب بليرمان أكثر ، أخذ كليمنز مقبض الحاملة حينما رفع بليرمان بندقية . كليمنز نظر إلى المشهد من فوق كتف بليرمان . بدا الأطفال فرحين ، كانوا يضحكون حين علّق بليرمان وردة من ورق صفراء في شعر فتاته . استداروا إلى اليمين ، رأيت بليرمان يعد بعض النقود في راحة كليمنز ، رأيت شفتي ابني تتحركان ، يعدّ لنفسه ، رأيت يرفع يده بابتسامة صغيرة ويشكر بليرمان .

- « دعنا نذهب » .

همسْتُ لفريد ، نهضت وسحبت ياقة سترته ،

- « أولادنا هنا » .

سألني : « أين هم ؟ » .

ونظر أحدنا إلى الآخر .

« هم بيننا ، في تلك الاثنتي عشرة بوصة من العراء ، بين عيوننا ، حيث الليلة الألف التي تطارحنا فيها الغرام . »

أبعد فريد سيجارته من فمه وسألني بتردد :

« ما الذي سنفعله إذن ؟ » .

قلت : « لا أدري » .

جَرَّيْ مبتعدًا داخل زقاق ما بين خيمة العرض ودوّارة حيوانات خشبية عاطلة مغطّاة جوانبها المحنيّة بالخيش . توقفنا ، ننظر بصمت إلى أوتاد الخيمة .

قال فريد : « تعالى ، ادخلي » .

وهو يرفع قطعة فاصلة من الخيمة ، جاعلاً منها فتحة بين صفحتين من الخيش ، تسلل منها ، ثم ساعدني لأدخل ، وجلسنا هناك في الظلام ، فريد عن بجعة من خشب كبيرة ، وأنا إلى جانبه على حصانٍ هزاز . وجه فريد الشاحب مقطوع نصفين بشريط من ضوء آتٍ من شقٍّ في الخيش .

قال فريد : « ربما لن أتزوج أبداً . » .

قلت له : « كلام فارغ ، لا تُسمِعي ذلك . فهو ما يقوله كل الرجال » . نظرت إليه ، وأضفت :

- « كم في هذا من ترضية لي - لكن المرأة تنجح في جعل الزواج ممكناً » .

- « نجحتِ أنتِ أكثر من معظم النساء » .

قال ذلك ورفع وجهه إلى رأس البجعة ووضع يده فوق ذراعي .

« خمس عشرة سنة منذ تزوجنا إلى الآن ، ونحن ... » .

قلت : « نعم ، زواج فخم » .

قال : « هائل ، هائل فعلاً » .

أبعد يده عن ذراعي ، وضع كلتا يديه على رأس البجعة كما أسند رأسه ونظر إليّ بتعب :

« إنني على يقين من أنك والصغار أكثر سعادة بدوني » .

قلت : « ذلك ليس صحيحاً ، لو أنك فقط تعرف ... »

- « لو أعرف ماذا ؟ »

- « فريد ، كل يوم يسألنى الأطفال عنك عشر مرات ، وأنا كل ليلة تقريباً أبكى حين أخلد للنوم » .

- « أنتِ تبكين ؟ » .

قال ورفع وجهه مرة أخرى ، وراح ينظر إلى ، فأسِفْتُ إذ قلت له ذلك .
« أقول ذلك ، لا لكى أخبرك ببيكائى ، لكن لكى تعرف فقط كم أنت مخطيء »

سقط ضوء الشمس فجأة من خلال الشق في الخيش ، وامتصه الفراغ الوسطى في الخيمة كأنه مرّ خلال فلتر أخضر ، فكشف ضوءه ، إذ تُسَرَّب أشكالاً دوارة ، خيولاً مكشّرةً ، تنانين خضراء ، بجعاً ، أمهارةً ، ورأيت عربية زفاف مبرّقة بقطيفة حمراء يسحبها حصانان أبيضان .

قلت لفريد : « تعال ، سنترتاح هناك أكثر » .

نزل من بجعته ، ساعدنى على تلك الحصان الهزاز ، وجلسنا ، أحدنا إلى جانب الآخر على قطيفة العربة الناعمة . اختفت الشمس ثانية ، كنا محاطين بظلال الحيوانات الرمادية .

- « أنتِ تبكين ؟ » .

قال لى فريد ذلك ، ونظر إلى ، أوشك على وضع ذراعه حولى ، لكنه سحبها مرة ثانية .

- « هل تبكين لأنى هجرتك ؟ » .

قلت بصوت خافت : « بسبب ذلك ، لكن ليس بسبب ذلك وحده . تعلم أنى أكون أكثر سعادة حينما نكون معا . لكنى أيضاً أرى أنك لا تطيق

ذلك - كما أنك لا تكون هناك أحياناً . كنت خائفة منك ، أخاف من وجهك ، وأنت تضرب الأطفال ، أخاف من صوتك ، ولا أريدك أن تعود مثلما كنت ، ويعود كل شيء كما كان قبل أن تغادرن . أفضل أن أرقد في فراشى وأبكي على أن أعرف أنك تضرب الأطفال ، لسبب واحد بسيط ، هو أننا لا نملك نقوداً . هذا هو سبب ضربك للأطفال ، أليس كذلك ؟ لأننا فقراء ؟ »

قال : نعم ، فقرنا جعلنى مريضاً .

« نعم ؟ » قلت له : « هذا هو سبب قولى لك : الأفضل أن تظل بعيداً - إلا إذا تغيرت الأمور كلياً - دعنى أبكى . سنة أخرى وأصل أنا أيضاً إلى النقطة التى أنت فيها ، إلى ضرب الأطفال ، حيث سأكون مثل واحدة من تلكم النسوة البائسات اللواتى منظرهن وحده يفزعنى مثل طفل ، أولئك الخشنات التاعسات اللواتى يجرجرهن رعب الحياة الذى لا يرحم فى ممرات البنايات القذرة ، فهن إما يضربن أطفالهن أو يتخمنهم بالسكريات ، وفى الليل يفرشن أنفسهن ليعانقهن سكارى مُحطَّمون ، يعودون إلى بيوتهم تفوح منهم رائحة السجق المقل ، وقد يجلب أحدهم سيجارتين مدعوكتين ، يدخانها معاً ، يدخان وأحدهما بجانب الآخر فى الظلام بعد انتهاء المضاجعة . أوه كم أحقرهن - تلكم النسوة - ساعنى الله على ذلك - أعطنى يا فريد سيجارة أخرى . »

سحب العلبة بسرعة من جيبه وقدمها إلى ، أخذ منها واحدة لنفسه ، وحين اشتعل عود الثقاب ، رأيت وجهه التاعس فى ذلك الأصيل المخضر حيث دوارة الألعاب .

قال : « استمرى . أرجوك استمرى . . »

- « ربما أبكى لأنى حامل » .

- « أنتِ حامل ؟ »

« ربما تعرف كيف أكون حين أكون حاملاً . ما زلتُ غير مصدقة أنى حامل . لذا شعرت بالتعب من الخيول . أصلى كل يوم وأدعو الله ألا أكون حاملاً . وإلا ، هل تريد طفلاً آخر ؟ » .

بسرعة قال : « كلا ، كلا » .

قلت له : « لكن إن جاء فأنت أبوه ، أوه يا فريد ، ليس لطيفاً أن تسمع ذلك » .

وأسفت لأنى قلت له ذلك . فقد ظل يدخن ولم يقل شيئاً ، نظر إلى ، وجلس متكئاً يدخن فى العربة . لم يقل غير :

« استمرى ، أرجوك استمرى ، أخبرينى بكل شىء » .

قلت : « أنا أبكى أيضاً بسبب أن الأطفال جد هادئين ، إنهم صامتون يافريد . معلوم أن عليهم الذهاب إلى المدرسة ، وهم يأخذون هذا الأمر بكل جد - إنه أمر يخيفنى ، كذلك الطريقة الآمنة التى يؤدون بها واجباتهم - تلك تخيفنى أيضاً . الحمقى الصغار يقلقون على امتحاناتهم ، يستعملون الكلمات نفسها التى استعملتها أنا حين كنت فى سنهم . إنها مخيفة جداً يافريد كذلك الفرح الذى يعلو وجوههم حين يشمون رائحة الروست فى القدر الصغير يغلى فوق الموقد ، والطريقة الهادئة التى يحزمون بها حقائبهم المدرسية كل صباح ، وكيف يضعونها على ظهورهم ، وسندويشاتهم فى

أكياس غدائهم . وإذ يخرجون إلى المدرسة ، أدبُ أنا غالباً في الممر ، يافريد ، أقف عند النافذة أتابعهم بعيني طالما استطعت أن أراهم : ظهورهم الهزيلة محنية قليلاً من ثقل الكتب والدفاتر . هنالك يذهبون يمشى أحدهم إلى جانب الآخر حتى المنعطف ، فيستدير كليمنز مفترقاً عنهم ، وأقدر أن أرى كارلا مدة أطول قليلاً وهى تتدحرج في شارع «موتسارت» والرمادى ، بمثل مشيتك ، يافريد ، يداها في جيبي سترتها ، ربما هى تفكر كثيراً في رسم الحياكة أو تأريخ وفاة شارلمان . أبكى لأن توقهم يذكرنى بتوق أطفال كنت أكرهم أيام كنت في المدرسة ، أولئك الأطفال يشبهون كثيراً الطفل يسوع في صورة « العائلة المقدسة » . هم يلعبون إلى جانب منصة نجارة يوسف . مخلوقات بسيطة لطيفة مجمدة الشعر ، في الحادية عشرة أو العاشرة ، يسقطون قشارات الخشب الملتفة من بين أصابعهم ، قشارات الخشب تلك تشبه خصلات شعرهم .

قال : « أطفالنا ، يشبهون الطفل يسوع في صور العائلة المقدسة ؟ »

نظرت إليه وقلت : « كلا ، كلا ، لكن حين أراهم يسرون في الطريق تلك المشية ، فكأنهم يمتلكون بعضاً من ذلك التواضع الخالى من الأمل والحس والذى يجعلنى أذرف دموع الخوف والتحدى »

قال : « يا إلهى الطيب - ولكن هذا هراء - أظن أنك ببساطة تحسدينهم على طفولتهم » .

- « كلا ، كلا ، يافريد ، أنا خائفة لأنى لا أستطيع حمايتهم من أى شيء لا من قسوة البشرية ولا من قسوة السيدة فرانك ، هذه التى من أجل تسلمها الكامل لجسد المسيح كل صباح ، تندفع من مكتبها متى ما

استعمل أحد الأطفال المغاسل لتثبت من سلامتها ، وتبدأ بالتذمر في الممر إذا ما قطرة ماء سقطت على ورق حائطها . أنا أخاف قطرات الماء - فكلما سمعت الأطفال يسحبون «السيفون» أتفجّر عرقاً ، لا أستطيع أن أقول لك ، فقد تعرف أنت ما يجعلنى حزينة جداً .

- « ما يجعلك حزينة ، بكل بساطة ، هو أننا فقراء . ولا أستطيع فعل شيء يريحك . لا مفر . لا أعددك بأننا سنمتلك يوماً مالاً أكثر . أوه ، ستعجبين كم هو جميل العيش في دار نظيفة ! أن نكون بلا أية هموم مالية - ستعجبين » .

قلت : « أنا في الحقيقة أتذكر أن كل شيء كان نظيفاً في بيت والدي ، وأن الإيجار كان يُدفع دائماً في حينه . وبالنسبة للنقود - حسناً ، حتى نحن يا فريد ، أنت تذكر ... » .

« أنا تذكر » ، وتفجر منفعلاً : « ولكنى لا أحمل عواطف كثيرة للماضي . ذاكرتى مكونة من ثقب ، ثقب كبير ، يجمعها معاً نسيج رقيق ، رقيق جداً ، مثل خيوط ناعمة ، طبعاً أتذكر ، كانت لنا شقة يوماً ما ، غرفة حمام خاصّة ، وعندنا نقود ندفع منها لأي شيء نريد ، ما الذي كنت أفعله تلك الأيام ؟ » .

قلت : « فريد . أنت لا تتذكر ما كنت تفعله تلك الأيام ؟ » .

قال : « ذلك صحيح ، أنا لا أتذكر ... » .

وطوقنى بذراعه .

« كنت تعمل في مصنع ورق الجدران » .

قال : « طبعاً ، وثيابي تفوح منها رائحة الصمغ ، وكنت أتى بنماذج تالفة من ذلك الورق ، نماذج باطلة ، لكليمنز وكان يمزقها في سريه المعدني . أتذكر ، لكن ذلك لم يستمر طويلاً » .

أجبت : « سنتين ، حتى جاءت الحرب » .

قال : « طبعاً بعدها جاءت الحرب ، ربما كان أفضل لك لو تزوجت رجلاً مقتدراً ، واحداً من أولئك الأشخاص المجدين ، مع درجة محترمة من الثقافة » .

قلت له : « . . توقّف عن هذا . . » .

كنتما نجلسان معاً في المساء ، تقلابان كتباً لطيفة ، لتيسر لك ما تودين ، كانت غرف نوم الأطفال مؤنثة حسب آخر الموديلات ، نفرتيتي على الحائط ، ومذبح آيزنهايم على العوارض الخشبية ، وعبّاد شمس فان جوخ ، طبعةً من الدرجة الأولى فوق سرير الأبوين ، طبعاً إلى جانب مادونا بيورون ، ومسجل في محفظة حمراء ، قوى وبديع ، أصحح ؟ أوه ، كم يزعجني دائماً ذلك الهراء ، تلك البيوت الأنيقة لا أدري لماذا تزعجني » .

وفجأة سألتني : « ما الذي تريدينه فعلاً ؟ »

نظرت إليه وأحسست لأول مرة ، ومنذ زواجنا أنه كان غاضباً .

قلت له : « لا أدري مالذي أريده ؟ »

ورميت سيجارتي على الأرض الخشبية إلى جانب العربة ساحقة إياها .

« لا أدري ماذا أريد ؟ لكنني لم أقل شيئاً عن نفرتيتي ، لا شيء عن مذبح آيزنهايم ، مع أنني أحمل شعوراً ضدّهما . لم أقل شيئاً عن رجال

مقتدرين ، لأننى أكره الرجال المقتدرين ، فشعور الاقتدار فيهم يُتَبَنُّ حتى أنفاسهم . لكننى فى الحقيقة أردت أن أعرف ما الذى تهتم به جدًّا ، لا أرى شيئاً ، أى شىء ممَّا يأخذه الرجال الآخرون بجد ، اسأل إن كانت لك أشياء تهتم بها أكثر من بسواك . فأنت بلا حرفة مثلاً ، وكيل أدوية مرةً ، مصور ، ثم عملت فى مكتبة ، مؤسف أن تُرى فى مكتبة لأنك لا تعرف حتى كيف تمسك الكتاب بصورة صحيحة ، ثم فى مصنع ورق الجدران ، وعامل شحن فى سفينة ، صحيح ؟ وأما كونك عامل بدالة ، فقد تعلمت ذلك فى أثناء الحرب .

قال : « أوه ، كفى عن ذكر الحرب ، إنها تزعجنى » .

قلت : « حسناً ، كل حياتك ، كل حياتنا ، منذ كنت معك ، قضيناها على مقاعد مطاعم الأكلات الخفيفة ، فى أكواخ بيع اللحم فى حانات متواضعة ، فنادق الدرجة الخامسة ، فى ملاعب الأطفال ، وفى تلك الحفرة المغضنة التى نسكر فيها منذ ثمانى سنوات ... » .

« أكمل : وفى الكنائس » .

قلت : « حسناً ، وفى الكنائس ، نعم » .

- ولا تنسى المقابر ! »

- « لست ناسية المقابر ، ولم أنسها حتى فى رحلاتنا ، هل أبديت شيئاً من الاهتمام فى الثقافة ؟ » .

- « الثقافة ، لو أخبرتنى ما هى تلك ، كلاً أنا لا أهتم بها . أنا أهتم بالله ، بالمقابر ، بك ، بالمطاعم السريعة ، بملاعب الأطفال وفنادق الدرجة الخامسة » .

- « لا تنسَ الكحول » .

- « كلا ، لا أنسى الكحول . ألقى نفسي في السينمات وعند مكانات البنبول » .

قلت : « وأطفالنا ؟ » .

- « نعم ، الأطفال ، أنا أحبهم جدًا جدًا ، ربما أكثر مما تظنين ، أنا فعلاً أحبهم كثيرًا جدًا ، لكنى الآن فى الرابعة والأربعين تقريباً ، ولا أستطيع أن أقول لك كم متعب فكرى بذلك » .

قال هذا ، ونظر إلى فجأة وسألنى : « هل تشعرين بالبرد ؟ أنغادر المكان ؟ » .

قلت : « كلا ، كلا ، استمر أرجوك ، استمر » .

قال : « أوه ما جدوى ذلك ؟ لتتوقف . لماذا الإزعاج ، دعينا بعيداً عن الخصام ، أنت تعرفيننى ، وتعرفين أنى مفاوضات ردىء . وفى سنّى . يكون قد فات أوان التغير . لا أحد يتغير أبداً . الشيء الوحيد الذى يقع موقع الاستحسان منى هو أنى أحبك » .

فقلت : « نعم ، وليس كثيراً عليك أن تكتب لبيتك عن ذلك » .

سألنى : « هل نمضى الآن ؟ » .

قلت : كلا ، دعنا نمكث هنا قليلاً ، أم أنت تشعر بالبرد ؟ » .

قال : « كلا . ولكنى أريد أن أرجع للفندق معك » .

قلت : « خلال دقيقة واحدة . لكن هناك أشياء قليلة أخرى يجب أن تخبرنى عنها . أم أنك لا تريد أن ... »

أجاب : « استمرى ، اسأل » .

أملتُ رأسى على صدره ، لم أقل شيئاً ، وبقينا نسمع أصوات
« الكاليوب » صرخات راكبى الخيول الخشبية ، والصيحات الخشنة للمشرفين
على الألعاب .

سألته : « فريد ، هل تأكل بصورة مُرضية ؟ افتح فمك قليلاً » .

أدرتُ رأسى فتح هو فمه ، رأيت اللثة الحمراء الملتهية ، لمست أسنانه ،
وأحسست كم هى رخوة

قلت : « منابت الأسنان ، خلال سنة يتحتم عليك وضع طقم
صناعى » .

سألنى بقلق : « هل تعتقدين ذلك فعلاً ؟ » .

رَبَّت على شعرى ، وأضاف :

- « نسينا الأطفال » -

وصممتنا مرة أخرى ، كنا نصغى إلى الضجيج الآتى من الخارج :
وقلت :

- « سيكونون بخير ، لست قلقة على الصغار ، إنهم يتجولون مع هذين
الشابين ، لن يحدث لهم شيء » .

همهمت وأنا أدنى رأسى ليكون على صدره : « فريد ، أين تسكن
بالضبط ؟ » .

- « فى المُجمّعات فى شارع ايشخر » .

« المُجمّعات ؟ لا أعرفها » .

سألنى : « ألا تعرفين المُجمّعات ؟ والناس الذين يعيشون فى الطابق الأسفل ، فى بناية الأب ، الناس الذين يمتلكون المخزن الدائم ؟ » .

- « آه تلك ، ذو الخصل الشقر ولا يدخن ، هنالك تقيم ؟ » .

« فى الشهر الماضى ، اعترضت طريقه فى بار ، وأوصلنى . كنت مخموراً ، فأوصلنى إلى بيته ومنذ ذلك الوقت بقيت معهم » .

- « أعندهم غرفة لك ؟ »

- لم يجب . بدأت خيمة العرض المجاورة لنا تُفتَح الآن لبدء العمل . شخص بدأ يدق مثلثاً ، وصوت خشن فى مكبر الصوت :

« تقدموا ! تقدموا ! شئ للأولاد ! »

سألته : « فريد ، ألم تسمعنى ؟ » .

- « سمعتك . المبانى فيها كثير من الغرف . ولهم فيها ثلاث عشرة غرفة . »

- « ثلاث عشرة غرفة ؟ » .

- « نعم ، « بلوك » العجوز يعمل مراقباً هناك ، والدار خالية لثلاثة أشهر ، المبنى يعود لرجل إنجليزى يدعى « ستربر » على ما أظن . إنه جنرال أو عضو فى عصابة ، أو كلاهما ، وربما هو شئ آخر ، هذه كل معرفتى عنه ، هو بعيد عند ثلاثة أشهر ، آل بلوك يهتمون بالدار ، يعتنون بالثيل لكى يبدو فى أحسن حالٍ فى الشتاء . فى كل يوم يمضى بلوك العجوز فى الحديقة الكبيرة مع مجموعة من حوادل التسوية وماكينات الثيل ، وكل ثلاثة أيام تصل بآلات من الأسمدة الصناعية . المبنى مكان يادخ المحتويات ،

أخبرك : عدد الحمامات وأشياء ، أربعة ، على ما أعتقد ، وأحياناً يسمحون لي بأن أتمتع الحمام في أحدها . وهناك مكتبة تحتوي كتباً كثيرة ، كميات من الكتب ، إنها كتب جيدة ، كتب فخمة ، وغرفة رسم ، ثم هنالك غرفة للخلوة ، غرفة طعام ، غرفة للكلب ، غرفتنا نوم في الطابق الأعلى ، واحدة للنهاب أو أى شىء آخر هو واحدة لزوجته ، وثلاث للضيوف .

قلت له : « توقف يا فريد ، توقف أرجوك . »

قال : « أوه ، كلا ، لن أتوقف ، لم أخبرك عنها من قبل ، حبيبتي ، لأننى لا أريد إثارتك ، أنا فعلاً ، لا أريد ذلك . لكن الأفضل لك الآن تسمعيه منى . على أن أتكلم عن الدار ، حلمتُ بها ، سكرتُ لكى أنساها ، لكن حتى وأنا سكران لا أستطيع نسيانها . كم غرفة أخبرتك فيها؟ ثمانى أو تسع غرف ، لا أتذكر . وهناك ثلاث عشرة غرفة ، لو تَرَيْنَ فقط غرفة الكلب ، إنها أكبر قليلاً من غرفتنا ، أكبر بقليل ، لا أريد الباطل ، ربما هى أوسع بعشر أقدام مربعة ، ليس أكثر أبداً ، فلنكن منصفين ، ليس أفضل من أن يكون الإنسان منصفاً . سنخط كلمة «إنصاف» على لافتتنا الرقيقة ، أليس كذلك يا عزيزة قلبى ؟ » .

- « أوه يا فريد ، هل تقصد إثارتى ؟ »

- « أنا أثيرك ؟ إننى أحدثك عن الدار ، وهذا فعلاً ما قلتُ . بيت الكلب ، واسع تسعة هذه البوفيات في بيوت صفوة المثقفين ، ومثلها هناك غرف حمام كاملة ، هنالك دشّات معزولة أيضاً ، لم أحصها : أريد أن أكون منصفاً ، أريد أن يأخذنى السكر وأنا على حق ، فأنا لا أحسب حجيرة الدش غرفة . إن ذلك ليس عدلاً ، ونحن نريد تحقيق العدالة إلى

جانب الحق في شعارنا المتواضع . ليس هذا هو الأسوأ يا عزيزتى - لكن القلب خال - أوه كم هو مدهش ذلك الثيل الممتد وراء تلك الفلّل العظيمة ، فقط لو يسمحون لطفل يأن يلعب عليه ، أو حتى لكلب . يجب أن نزرع ثيلاً منبسطاً لكلابنا يا حبيبتي . لكن هذه الدار خالية . هذا الثيل لم يُستعمل ، إذا سأمحوني على استخدام هذه الكلمة في هذا المجال . الأسيرة خالية ، وفي أعلى البيت ثلاث غرف أخرى ، واحدة لمديرة المنزل واحدة للطباخ واحدة للخادم ، الرجل ، والسيدة الطيبة تشكو دائمةً من أن الفتاة الخادمة بحاجة إلى غرفة ، وأنها الآن تنام في غرفة الضيوف . يجب أن تتذكرى هذا يا حبيبتي حينما نبني دارنا ونعلق عليها شعارنا في العدالة الحق .

قلت : « فريد لا أستطيع احتمال المزيد » .

« نعم ، تستطيعين ، لقد أنجبت خمسة أطفال ، وتستطيعين ، يجب أن أنهى كلامى . لا أستطيع التوقف الآ ، يمكنك المغادرة إذا شئت ، ومع أنى لا أريد أن أظل معك ، الليلة ، لك إذا لم ترغبى بالإصغاء إلىّ فيمكنك أن تغادري المكان إنى أعيش منذ شهر في هذه الدار ، وعلىّ ، ببساطة ، أن أحدثك عنها ، أحدثك أنت ، الشخص الذى يسرنى أن أبعده عن مثل هذا الحديث ، أردت أن أبعديك عنه يا عزيزة قلبى ، لكنك سألتنى ، ويجب الآن أن تسمعى كل الجواب .

السيدة الطيبة قامت فعلاً بنوع من محاولات الانتحار بسبب هذه الغرفة التى تحتاج إليها الخادمة . عليك أن تُقدرى مدى الحساسية التى وصلوا إليها ، وأى شخص حسّاس هى ، وأنواع المتاعب التى تعانيتها ، لكنهم ارتحلوا الآن ، رحلوا لثلاثة أشهر ، هم عادة يمضون تسعة أشهر من كل

سنة بعيداً عن بيتهم ، السلاب العجوز ، أو أى إنسان يعيش هناك ، حدث أن كان أحد المهتمين الحقيقيين بدائتي من القلة الذين تبّقوا لنا ، أحد القلة الذين يمكن أن نأخذهم مأخذ الجد ، تماماً مثل راعى أبرشيتنا . هى حقيقة ، أمل باعتبارك مسيحية مثقفة أن تكونى على علم بها . تسعة أشهر فى السنة ، الدار خالية . خلال هذا الزمن يظل العجوز « بلوك » حارساً على الثيل ، وهو الذى يرعاه ، مادام ليس فى الدار ما هو أكثر روعة من الثيل المرتّب . أرضية غرفة الكلب يجب ألا تكون مشمّعة ، وألاً يسمح بدخول أطفال فى الدار » .

صوت خشن فى الغرفة المجاورة صاح :

- « اصعدوا ، هيا أيها القطيع اصعدوا ، لا شىء للأولاد ، مانويلا ، أحلى شىء صغير هذا الجانب من السماء ! » .

همست : « فريد لماذا لا يسمح للأطفال بدخول الدار ؟ » .

« لا يسمح للأطفال بدخول الدار ، لأن الزوجة لا تحبهم ، إنها تنفر من الأطفال ، وهى لديها حساسية لوجود أى منهم فيها ، تشم رائحتهم حتى بعد تسعة أشهر . سبق لبلوك وهو المحارب القديم المعوّق أن ترك مرة طفلين يلعبان على الثيل . تركهما الرجل فى السرداب ، وحين عادت الزوجة اكتشفت ذلك ، فاشتعلت غضباً . هذا هو سبب حذر « بلوك » الشديد . سألته مرة أن كان ممكناً أن يزورنى أطفالى يوماً : فصار لونه أبيض مثل الورقة وقال : أنا مسموح لى أن أسكن معه على افتراض أنى أساعده على الاهتمام بالثيل ، ولأنى أعمل على جعل جهاز التدفئة فى هيئة جيدة . لى حجرة صغيرة فى الطابق الأرضى بعيدة عن الصالة ، هى فى الحقيقة غرفة حفظ

القبّعات والمعاطف . حينما أستيقظ في الصباح ، تقع عيناى على لوحة
ألمانية قديمة ، بألوان ناعمة قديمة : نزل ، أو ما يشبه ذلك .

شعرت برغبة فى سرقة واحدة من هذه الصور - هناك الكثير منها فى
المكتبة - لكنهم يراقبونها مراقبة دقيقة ، كما أنه ليس إنصافاً بالنسبة
لبلوك . .

« مانويلا ستغنى عن الحب ! » ، صاح صوت من الغرفة المجاورة :

- « حتى بلوك يعتقد بأن الزوجة امرأة سحاقية » .

- « أوه ، يافريد ، ألا تكفّ ، هل نذهب إلى الفندق ؟ » .

- « دقيقة أخرى فقط ، عليك أن تستمعى لى دقيقة أخرى ، بعدها
ستمضى وستعرفين أين أعيش ، وكيف أعيش . أحياناً يُفاجئنا راعى
الأبرشية فى الأماسى إنه الشخص الوحيد المسموح له بدخول الدار . كل
أدب دانتي ملك يده . بلوك لديه أوامر بضمان راحته وتوفير التدفئة له ،
وإسدال الستائر ، وقد رأيته أكثر من مرة ، راعى الأبرشية هذا ، وفى وجهه
متعة ناعمة ، وفى يده كتاب ، وإبريق شاي إلى جانبه ، مع دفتر
ملاحظات وقلم . سائقه يجلس منتظراً فى الطابق الأسفل ، تحت معنا فى
السرداب ، يدخن غليوناً ، ويخرج بين وقت وآخر يتفقد السيارة . حين
يتهيأ الراعى للرحيل يقرع الجرس ، فيقفز السائق على قدميه ، ويخرج بلوك
أيضاً ، يسمح لنفسه بدعوته « رجل الطيب » ، فينفحه هذا بشيء . هذا
كل ما عندى . نستطيع الآن أن نمضى إذا شئت . هل تريدان
الذهاب ؟ » .

أشرتُ له برأسى غير قادرة على الكلام : غلبتنى دموعى . كنت مرهقة

جداً ، ولا تزال الشمس مشرقة في الخارج ، بدا كل شيء قاله لى فريد زائفاً
لأنى أحسست بالكراهية فى صوته . وفى الغرفة المجاورة صاح الصوت فى
مكبرة الصوت :

- « أيها السادة ، فى الوقت المحدد لتروا مانويلا ، لتسمعوها ، الصغيرة
العزيزة التى ستفطر قلوبكم ! » .

سمعنا شخصاً يتسلق إلى أرض الألعاب من الجهة الأخرى . نظر لى
فريد : فُتِحَ باب فى العمود الوسطى وأُطْبِقَتْ بقوة ، اشتعل ضوء ،
وابتدأت « الكاليوب » عبر مكبرات الصوت فى أرض الألعاب . جرى
الضوء إلى الداخل ، وكانت هناك يد تلف ستارة الخيش ، وفى العمود
الأوسط فتحت نافذة ، نظر إلينا رجل شاحب طويل الوجه ، وقال :

- « هل تريدان ركوباً أيها الرعاع ؟ الركوب الأول مجاناً طبعاً » .

خلع قبعته ، فانهال شعر أشقر على جبهته ، حك رأسه ، وأعاد وضع
قبعته ، ونظر إلى بهدوء . كان وجهه حزيناً وإن كان يبتسم ، ثم نظر إلى
فريد وقال :

« كلا ، كلا ، لا أظن زوجتك تحبها » .

قال فريد : « حقاً ؟ » .

- « كلا ، لن تحبها » .

حاول أن يبتسم لكنه لم يفلح ، وهز كتفيه . نظر فريد إلى . أغلق الرجل
النافذة ، دار حول « الكاليوب » باتجاهنا ، ووقف إلى جانبنا : كان طويلاً
كما أن سترته قصيرة جداً ، وذراعاها شديداً البياض . نظر إلى نظرة فاحصة ،
وقال :

- « إننى متأكد ، إن زوجتك لا تحبها . لكنى يمكن أن أنتظر إن شئت
أن تترتاحا مدة قصيرة أخرى » .

قلت : « أوه ، كلا ، لقد عزمنا على الرحيل » .

فى أثناء ذلك بدأت قطع الخيش تُطوى وكان بضعة أطفال يتسلقون
ليركبوا الخيول ، وليصعدوا فوق البجع . نهضنا وخطونا نازلين . رفع الرجل
قبعته ، ولوح لنا بيده وصاح :
« حظاً سعيداً ، إذن حظاً سعيداً ! » .
رددت عليه : « شكرًا » .

لم يقل فريد كلمة . سرنا ببطء عبر أرض الألعاب ، بدون أن ننظر إلى
الوراء . قرب فريد ذراعى إليه أكثر ، وقادنى إلى شارع مومسن . سرنا على
مهل فى أمكنة ملأى بكسر الحجارة ، واجتزنا الكاتدرائية باتجاه الفندق . لا
يزال الهدوء يعم الشوارع حول المحطة ، ولا تزال الشمس مشرقة ، ضوءها
يكشف الغبار الذى رقد فوق الحشائش النابتة بين الأنقاض .
وارتفع إيقاع خيول الألعاب فى داخلى ، وأخذت أشعر بالوهن .
همست :

« فريد ، يجب أن أنام أو أجلس .

رأيت قلقه ، أحاطنى بذراعه ، وقادنى داخل بناية مهتمة ، جدرانها
مسودة من حريق ، جدران عالية أحاطت بنا « مختبر أشعة إكس إلى اليسار »
عبارة تشير إلى مكاننا . قادنى فريد خلال باب مفتوح أجلسنى على بقايا
جدار . رحت أنظر إليه بوهن وهو يخلع سترته . ثم أرقدنى وطوى سترته
ليريح رأسى عليها .

أحسست بجسدى على شىء ناعم وبارد ، تلمّست طريقي إلى طرف
المبنى ، تلمست القرميد ، وهمست :

« يجب ألا أمضى إلى الألعاب ، لكنى أحبها كثيراً ، أحب الركوب
عليها » .

« هل أتى لك بشىء ؟ » سألتى فريد برقة وأكمل : أُخِضِرُ لك بعض
القهوة ، لسنا بعيدين عن المحطة »

قلت : « كلا ، حسبك أن تظل معى . أنا متأكدة من أنى سأتمكن من
المشى إلى الفندق خلال دقائق . حسبك أن تظل معى ، يافريد » .
- « أجل » .

قال فريد ذلك ووضع يده على جبينى .

نظرتُ إلى الحائط الرمادى المخضّر ، الملطخ بالطين الأحمر ، حيث يقبع
تمثال محطّم ، ولوحة لم أستطع قراءتها . كنت لحظتها أستدير أولاً ببطء ، فى
دائرة وقدمائى هما المركز الثابت لدائرة يرسمها جسدى ، هو الآن أسرع
أسرع . هى حالة تشبه ما فى السيرك قليلاً ، حيث الفتاة الجميلة يحملها من
قدميها ويدورها مُجالِدٌ قوى .

فى البداية كنت أميز الجدارَ المخضّر ذا اللطخ الحمراء التى خلّفها
التمثال عليه ، وفى الجهة الأخرى كان الضوء الأبيض موقّداً فى النافذة
المفتوحة ، كان يعكس شظايا بيضاً وخُضْراً أمام عيني ، لكن خطوط
حدوده غمضت ، والألوان تداخلت فى بعضها ، والمزيج الشاحب من
الأصفر والأبيض دار أمامى ، أو أنا أمامه ، لا أدرى أى الحالين ، حتى
تسارعت الألوان فكوّنت ومضاً لا لون له تقريباً . وإلى أن تباطأت الحركة .

فأدركت أنى لم أكن أتحرك ، وأن الحركة فى رأسى وحده ، رأسى يدور ، يهتز ، وأحياناً يبدو واقعاً إلى جانب جسدى بدون أن أكون متصلةً به ، ثم هو عند قدمى ، واستمر ذلك لبضع دقائق ، انتمى بعدها إلى واتصل بأعلى رقبتي .

بدأ رأسى يتدحرج حول جسدى ، لكن ذلك لم يك حقيقةً ، تلمّست حنكى يدي ، لمست الكرة العظيمة ، حتى فى اللحظات التى بدا فيها رأسى مطرحاً عند قدمى ، كنت أشعر بحكى . لعل عينيّ هما اللتان تتحركان ، لا أدرى ، الشئ الحقيقى الوحيد هو الدوار ، حموضة لاذعة صعدت إلى بلعومى ، ثم انسحبت تصعد ببطء مرة ثانية . أطبقت عينيّ ، ولا جدوى من ذلك . لا رأسى وحده استدار ، بل أحسست بصدري وساقى يرتبطان بتلك الدورات الحُمقى ، وشكّلت جميعاً دوائر بالية مجنونة جعلت الغثيان أكثر شدة .

لكنى حينما أبقيت عينيّ مفتوحتين ، أستطيع القول : إن ذلك القسم من الجدار ظل فى مكانه ، وكما هو : قطعة من جدار مصبوغة بالأخضر ، حدودها دكناء اللون فى الأعلى . وبعض كلمات ما استطعتُ تمييزها مكتوبة مصبوغة بالأخضر ، دكناء اللون فى الأعلى . بعض كلمات ما استطعتُ تمييزها مكتوبة ومصبوغة بالنبي القاتم فوق الأخضر الخفيف . تلتئم الحروف أحياناً كأنها حروف ضوئية على لوحة فحص البصر ، بعدها تنتفخ سجعاً بنياً قائماً ، تنتشر إلى الخارج بسرعة شديدة ، حتى لا يمكن بعد ذلك إدراك شكلها أو معناها ، تنفجر من بعد لتصبح فقاعة بنية على الجدار ، لا تخضع لأية قراءة ، و من ثم وبعد دقيقة - تلتئم مرة ثانية حتى تصبح هباءات طائفة صغيرة ، لكنها لا ترتعش .

إنه الدوار ، ذلك هو المحرك الذى كان يدورنى ، هو محور خيول الألعاب الدوّارة . وكانت انتباهةً صَادِمَةً ، أدركت فيها أنى كنت نائمة متمددةً عى الأرض تماماً ، وعلى البقعة السابقة التى استرحت عليها دون أن أتحرّك بوصةً واحدة عنها . أدركت هذا حين توقف الدواء لحظة . كل شىء كان هادئاً . . كل شىء كان فى مكانه الملائم مرة أخرى ، رأيت صدرى ، الجلد البنى القدر لأحذيتى ، ووقعت عيناى على كتابة الحائط ، والتى استطعت الآن أن أقرأها :

« طبيبك سيعينك إن أعانه الله »

أطبقت عيني ، بقيت كلمة « الله » معى ، فى البداية كانت ثلاثة حروف كبيرة ، بنية قائمة وراء أجفانى المطبقة ، ثم لم أعد أرى الكتابة ، وبقيت معى بشكل كلمة ، غطست فى ، بدت تسقط أعمق وأعمق ، وأكثر عمقاً ، دون أن تصل إلى القاع ، وفجأةً صعدت إلى أعلى ، صعدت معى إلى السطح ، ليست كتابة ، لكنها فقط كلمة « الله » .

بدا أن الله وحده هو الذى بقى معى فى هذا الدوار الذى غشى قلبى ، وملاً أعصابى ، كان يدور معى مثل الدُمى . . غمرنى عَرَقٌ بارد ورعب مدمر كانت هنالك لحظات فكرت فيها فى فريد ، والأطفال ، رأيت وجه أمى ، والرضيعين ، مثلما أراهم فى المرآة ، لكنهم جميعاً انزاحوا بعيداً فوق هذا المد من الغثيان - ملأتنى لا مبالاة بهم ، بقيت لا شىء معى غير كلمة « الله » .

بكيت ، لم أعد أرى شيئاً ، لم أفكر فى بشىء غير تلك الكلمة المفردة .
دموع ساخنة غزيرة تفجرت من عيني على وجهى . ومن مجرى الدموع

على حنكى وعنقى ، والتى ما أحسست بها ، أستطيع القول أنى كنت نائمة على جنبى . . مرة أخرى بدأت أدور ، أسرع من قبل ، ثم اطرختُ ساكنة تماماً ، وانحنيتُ فوق حافة الجدار المهْدَم وتقيأت فى الحشائش الخضر المعبرة .

لمس فريد جبتهى كما اعتاد أن يفعل . سألنى بحتو :

- « هل تشعرين يتحسن الآن ؟ » .

- « نعم ، أشعر بأنى أحسن » .

أجبهته ومسح حاتياً فمى بمنديله .

- « فقط أشعر بأنى متعبة جداً » .

قال : « يمكنك أن تنامى الآن ، إنها بضع خطوات من الفندق .

قلت : « نعم ، أناام » .

خالطت شحوبَ وجهها عتمة جعلت جلدها يبدو قريباً من السُفرة ، كما أن بياض عينيها اكتسى بلون سىء . سكبت بعض الليمون ، شربته كله ، تأخذت يدى وضغطتها على جبينها .

سألتها : « هل أطلب طبيباً ؟ »

قالت : « كلا ، أنا بخير بالآن . إنه الجنين . كان يقاوم مجريات منطقنا، الفقر بانتظاره » . فأكملت : « المقاومة ، إنه زبون مستقبل للدوائيين ، يصير أبرشياً مدللاً . لكن سادلله » .

قالت : « ربما يصير راعى أبرشية ، وليس أبرشياً عادياً ، قد يصير دارساً لدانتى » .

« أوه » كيت « لا تحاولي أن تكوني فكهة ، كيف تعلمين ما سيؤول إليه أطفالنا ؟ قد تكون لهم قلوب من حجر ، قد يبنون مقصورات لكلاهم ، ويمقتون الأطفال . لعل المرأة التي تمقت الأطفال كانت من قبل واحدة بين خمس عشرة كن يعشن في مكان أخصق مما لكليها الآن ، لعلها . . . » .

لم تتكلم « كيت » صمت ، قَرَع متكرر يلبأ في الخارج ، انفجارات وضربات تشبه الانفجارات . هزعت إلى النافذة وفتحها بقوة . كانت الحرب كلها في ذلك الضجيج : رعد الطائرات ، دوى الانفجارات ، والساء انقلبت رمادية قاتمة تحجبها مظلات في مثل يياض الثلج هبطت ببطء تحمل أعلاماً حمراً خفاقة ، تحمل هذه الكلمات :

« مطاط كريس - يحمى ويمنع من ! » .

اجتازت أبراج الكاتدرائية المستدقة فهبطت من فوق سطح المحطة ، نازلة تطفو في الشوارع هي والأعلام ، وكنت أسمع هنا وهناك الصيحات الاحتفالية للأطفال الحاملين في أيديهم أعلاماً ومظلات . . حتى هبطت .

سألت كيت : « ما الذي يجري ؟ » .

- « أوه ، لا شيء ، بعض وسائل الإعلان » .

لكن جاء الآن سرب طائرات هدر فوق الرؤوس بلمعان مخيف ، وطار منخفضاً فوق الأسطح بأجنحة رمادية مائلة ، وضجيج المحركات يتوجه نحو قلوبنا حتى تطبع عليها علامة الطائرات . رأيت « كيت » ترتجف ، ركضت إلى سريرها ، رفعت يدها :

- « أوه يا إلهي ، ما هذا ؟ » .

سمعنا الطائرات تدور فوق المدينة ، وابتعدت منتظمة مرة أخرى ،

تلاشى أزيزها باتجاهٍ أفقى غير مرئى ، وغطت كل سماء الليلية بطيور حمر تغطس ببطء باتجاه الأرض ، غروب ممزق ، وهما هى حتى طيور مطاطية كبيرة حمراء توزعت فى السماء مثل غروب ممزق . لم نستطع تمييزها حتى وصلت إلى مستوى البنايات : كانت لقالق مكسورة الأعناق ، هبطت وأجنحتها تخفق وميقاتها هاطلة منها بصورة خفيفة كأنها مجموعة من المشنوقين سترلون من السماء : غيوم مطاطية صغيرة حمراء نابضة ، صامتة وبشعة أبحرت نازلة خلال سماء المساء الرمادى . ومن الشوارع انطلقت أصوات أطفالٍ مبتهجين بها ، ضغطت « كيت » على يدى ، ملئتُ عليها وقبلتها .

قالت بصوت خفيض : « فريد ، تحملتُ ديوناً ! » .

قلت : « ومن يبالى ؟ أنا استندت كذلك » .

كثيراً ؟ » .

« نعم ، كثيرًا ، لم تبق يمكن أن تقرضنى شيئاً . ليس أصعب من أن يعطيك أحد ماركاً فى مدينة بها ثلاثمائة إنسان التفكير بهذا وحده يُنْضِجُنِي عرقاً . »

« ولكنك تدرس الآن ، أليس كذلك ؟ » .

« نعم ، لكنى أدخن كثيرًا » .

- « هل عاودت الشرب ؟ » .

- « نعم ، ولكن ليس كثيرًا يا حبيبتي . الحقيقة أنى منذ غادرتك آخر مرة

شربت مرتين ، هل هذا كثير ؟ » .

أجبتة : « ليس كثيراً ، أفهم سبب شربك ، لكنك قد تحاول ألا تشرب بعد مطلقاً » .

« صعب هذا خلال الحرب ، خلال الحرب أشرب من الضجر . أنت لا تصورين حالة السكر على ضجر ، بعده تنامين على السرير ، كل شيء يدور أمام عينيك ، حاولي أن تشربي ثلاثة « بيلات » من ماء فاتر ، ستجدين نفسك أدمنت على الماء ، كذلك بالنسبة لغرفة النوم ، أنت لا تعلمين كم كانت الحرب مضجرة ، أحياناً أفكر فيك ، وفي الصغار ، أتصل بك عن طريق الهاتف قدر ما أستطيع ، فقط لكي أسمع صوتك . كان مرّاً أن أسمعك ، لكن هذه المראה أفضل من أن أكون سكراناً على ضجر » .

« إنها لا تستحق جهد الكلام يا حبيبتي ، تصوّري فقط التلهّف طول النهار في أجهزة الهاتف ، ودائماً تقريباً ، أصوات الضباط الكبار ، أنت لا تصوّرين كم هم مضحكون أولاء الضباط الكبار عبر الهاتف ، ألفاظهم محدودة جداً ، يمكن أن أقول مائة وعشرون إلى مائة وأربعين كلمة ، ليس هذا كافياً لست سنوات من الحرب . يوماً بعد يوم ثمانى ساعات على الهاتف : تقرير - حدث - تقرير . . إلى آخر رجل انتشار الجنود إلى H.Q - قاوم - الفوهرر - لا تضعف . . ثم : قليلاً من الأمومة - نساء . تصوّري الشكنات . .

كنت موظف بدالة لشكنات عسكرية لمدة ثلاث سنوات تقريباً ، سنوات كنت أنقياً فيها ضجراً . وإذا أردت أن أخرج لأسكر ، فحيثما ذهبت وجدت السترات واحدة اللون . لا أستطيع تحمّل منظر السترات تعرفين عني هذا » .

قالت : « أعرف » .

« كان هناك عريف واحد أعرفه ، يقرأ ريلكه لابنته فى الهاتف ، أوشك أن أموت من هذا ، وإن كان فيه قليل من التغيير ، بعضهم كان يغنى ، وأكثر من هذا كان يُعلِّمُ بعضهم البعض الآخر أغنيات فى الهاتف ، لكن معظمهم كانوا يرسلون موتاً فى الهاتف . صوت بعضهم يتلوى خلال الأسلاك ، يزعمون بأصواتهم الرفيعة فى السماعه فى أذن الشخص الآخر الذى يريد أن يتأكد أكثر أن ناساً ماتوا . وإذا مات قِلَّة ، ففى رأى الضباط الكبار أن الحدث قد أنجزَ بشكل سيء . ليس من غير سبب أن تُقاس عظمة المعارك بعدد الموتى ، لم يكن الموتى ضجرين يا حبيبتى ، وليست المقابر . »

نمت إلى جانبها على السرير ، سحبت الغطاء . فى الطابق الأسفل كان الموسيقيون يضبطون آلاتهم ، ومن البار يأتى صوت رجل يغنى ، صوت ناحب وجميل ، وبعده صرخة وحشية من امرأة تحترق غناء الرجل : لم نعد قادرين على تمييز الكلمات ، لكنها كانت تجاوباً مع جمال إيقاعى .

كانت القطارات تقعقع فى المحطة ، وصوت المذيع يصل إلينا من خلال الأصيل المتسرب مثل تذمرات خفيفة لصديق .

- « أنت تشعرين بميل إلى الرقص الآن ، أليس كذلك ؟ »

- « أوه ، كلا ، لطيف جداً أن أنام مرة بهدوء . أتمنى ذلك لو أنك اتصلت بالسيدة « رودر » لنرى إن كان كل شىء على ما يرام ، وأنا أحب أن أكل شيئاً يا فريد ، لكن أخبرنى أولاً بشىء آخر . لو أنك تشرح لى لماذا تزوجتنى ؟ » .

قلت : « بسبب الإفطار ، طيلة حياتى أبحث عن شخص أتناول

الإفطار معه ، هكذا كان اختياري - هذا ما يسمى ، أليس كذلك ؟ - ووقع الاختيارُ عليكِ ، كنت شريكة إفطار رائعة ، ولم أشعر بالضجر معك قط . ولا أنت معي كما آمل . . . » .

قالت : « كلا ، لم أشعر بالضجر معك قط » .

« لكنك الآن تبكين في الليل حينما تكونين وحيدة ، أليكون أفضل إن عدت والأمور على ما هي عليه ؟ » .

نظرت إلىَّ بدون أن تحجب ، قبلتُ بديها ، وعنقها . . لكنها استدارت وراحت تنظر بصمت إلى ورق الجدار . .

توقّف الغناء في البار ، لكن فرقة الموسيقى تعزف في هذا الوقت ، وكنا نسمع أصوات نائس يرقصون في قاعة الطابق الأسفل . أشعلت سيجارة . « كيت » لا تزال تنظر إلى الحائط ، لا تقول شيئاً . قلت لها بهدوء :

« يجب أن تتفهمني أني بكل وضوح لا أستطيع تركك وحيدة إن كنت حاملاً فعلاً . لكنني لا أدري إن كنتُ أجد القوة لأكون محتَملاً ، كما ينبغي أن أكون ، لكنني أحبك ، آمل بالآ يراودك شك في ذلك » .

قالت : بدون أن تلتفت : « لا أشك في هذا ، أنا حقيقة لا أشك . . » .

أردت أن أعانقها ، أمسكتها من كتفيها وأدريتها إلىَّ ، لكنني فجأة علمت أني يجب ألا أفعل ذلك ، قلت :

« إن حدث شيء مثل هذا مرة أخرى فيجب ألا تكوني وحيدة ، أليس كذلك ؟ » .

- « إنني أكره السُّباب الذي يُوجَّهُ إلىَّ حين يراني الآخرون في الشقة حاملاً ، حين كنت أتوقع الطفل ، يا فريد ، أنت تذكر . . . » .

- « أذكر ، كان ذلك مزعجاً ، كان الوقت صيفاً ، ولم يكن لدى سنت واحد ، ولا حتى ما يكفى لأن أشتري لك قنينة صودا » .

قالت : «وقد كنت نائمة جدّاً ، استمتعت حقيقة بدور البغى ، كنت ميالة مثلهن للبصق على الأرض أمام الناس » .

- « أفعلتها حقيقة ؟ » .

- « ذلك صحيح ، بصقتُ على الأرض عند قدمي السيدة فرانك عندما سألتني إلى أى حد مضيت ، إنه لبديع أن يسألك أحد : إلى أى حد مضيت » .

- « هذا هو سبب عدم حصولنا على الشقة » :

- « لا ، لم نحصل على الشقة لأنك تسكر » .

- « أحقاً تعتقدين في ذلك ؟ » .

- «تماماً يا فريد ، المرأة الحامل تُسامحُ على كثير من الأشياء ، أوه كنت سيئة المزاج » .

« سيكون خيراً إذا استطعت أن تديرى وجهك إلىّ ، فأنا نادراً ما أراك » .

- « أوه ، لا تفعل ، جميل أن أنام هنا بهذه الصورة . وأنا ما زلت أفكر أى جواب أقدمه لك » .

قلت لها : « خُذِي فرصتك ، سأحاول الحصول على شيء نأكله ، وأقوم بذلك النداء ، هل تريدین شيئاً تشربينه ؟ » .

« نعم أريد شيئاً من البيرة يا فريد ، وأعطني سيجارتك » .

مدت يدها من فوق كتفها ، أعطيتها سِجارتى ونهضت ، كانت لا تزال مضطجعة ووجهها إلى الحائط وهى تدخن ، أنا غادرت الغرفة .

كان الممرّ ضايجًا ، وكنت أسمعهم يصرخون فى الأسفل ، فى القاعة ، وهم يرقصون . تريتثُ ، تمشيت أسفل السلام فى وقت عزف الموسيقى ، الضوء الوحيد هناك كان يأتى من مصباح صغير عار ، كانت الدنيا مظلمة فى الخارج ، وقليل من الأشخاص يجلسون إلى موائدهم فى البار وراء البار جلست امرأة مختلفة ، كانت أكبر سنًا من صاحبة المحل ، أبعدت أقداحها حين وصلت ، وأنزلت صحيفتها على بقعة البيرة ، انتقعت الصحيفة واسودّت ، وغمرت المرأة لى .

سألتها : « هل يمكن أن نحصل على شىء نأكله ؟ للغرفة رقم أحد عشر ؟ »

- « تعنى أن يُرسل إلى أعلى ؟ » .

أشرت برأسى : « نعم » .

- « لا يمكن ذلك ، نحن لا نقدم خدمات إلى الغرف . إنها عادة سيئة أن يأكل المرء فى غرفته » .

قلت : « أوه ، لم أعرف هذا ، لكن زوجتى مريضة » .

« مريضة ؟ هذا كل ما نحتاج إليه ، آمل ألا يكون شيئاً خطيراً ، لا شيئاً معدياً ؟ » .

قلت : « لا ، إن زوجتى تشعر بأنها مريضة » .

رفعت الصحيفة من بقعة البيرة ونفضتها ، وبهدوء وضعتها على المدفئة ، ثم التفتت إلى بهزة كتف وقالت :

- « حَسَن ، ما تريد ؟ لا شيء ساخنًا الآن . . انتظر ساعة أخرى » .

تناولت صحنًا من رفِّ الصحون وراءها ومضت إلى الحافظة الزجاجية حيث الطعام البارد ، تبعثها ، اخترتُ قِطْعَتَي لحم ، وطلبت خبزًا .
- « خبز ؟ ولماذا الخبز ؟ لِمَ لَمْ تطلب بعض السلطة؟ بعض سلطة البطاطا ؟ » .

- « نحن نفضل أن نأخذ خبزًا ، ربما هو أفضل لزوجتي » .

قالت : « النساء المريضات لا ينبغي أخذهن إلى الفنادق » .

وذهبت إلى مصعد الطعام وصاحت في عمر أسطوانى :

- « خبز . . بضع قطع من الخبز » .

وردَّ صوت مخنوق مستاء : « خبز !! » .

استدارت المرأة : « سيستغرق دقيقة » .

- « أود استعمال الهاتف » .

- « لتطلب طبيباً ؟ »

- « كلا » .

ودفعت الهاتف لى عبر المائدة .

قبل تدوير الأرقام ، قلت :

- « اثنان بيزة من فضلك ، وشنايز الآن » .

دورت رقم السيدة رودر ، سمعت الهاتف يَدُق ، وانتظرت ، دفعت

المرأة الشنايز عبر المائدة ، حملت قدح بيرة فارغاً إلى الحنفية ، وجاء صوت السيدة رودر في الهاتف :

- « هلو - من يتكلم ؟ »

قلت : « بوكنر » .

- « أوه ، هو أنت ؟ » .

قلت : « هل تسمحين ، قط . . . » .

- « كل شيء على ما يرام ، كنت فوق . . . الأطفال سعداء جداً ، كانوا في المعرض مع الشاين ، حتى إنهم حصلوا على بالونات وعادوا تَوّاً . . إنهم يلعبون مع لقاتل حمر مدهشة ، من مطاط حقيقى ، بالحجم الطبيعى » .

- « هل عاد فرانك وصاحبته ؟ » .

- « كلا ، سيعودان فيما بعد ، ربما صباح غد » .

- « إذن كل شيء حقيقة على ما يرام . » قالت : « حقيقة لا تقلق ، تحية لزوجتك كيف وجدت قلم الحمر الجديدة ؟ » .

قلت : « عظيم ، شكراً جزيلاً لك » .

- « عفواً ، مع السلامة » .

قلت : « مع السلامة » .

نهضت . أنهيت الشنايز ، وراقبت كأس البيرة الثانى يمتلىء ببطء ، مصعد الطعام يتحرك أمامى ليوصل صحناً بأربع قطع خبز أبيض ، حملتُ كأسى البيرة وصعدت بهما ، وضعتهما على كرسى بجانب سرير « كيت » . كانت لا تزال مضطجعة هناك ، تحرق فى ورق الحائط ، قلت :

« كل شيء على ما يرام في البيت ، الأولاد يلعبون مع تلك اللقالب » .

لكن « كيت » حركت رأسها بعسر ، ولم تجب حين أتيت بطبق الطعام ، كانت لا تزال مضطجعة هنا وتحديث في ورق الحائط ، لكن إحدى الكأسين أفرغت ، لنصفها . « قالت :

« أنا جذاظمة » .

قلت : « استمرى ، اشربى » .

وجلسْتُ إلى جانبها على السرير . أخرجت منشقتين نظيفتين من حقيبتها ، فرشتها على الكرسي ، وأكلنا اللحم والخبز على المنشقتين النظيفتين ، وشربنا بירתنا :

« لو تيسر لى .. لو تيسر لى أن أكل أكثر يا فريد .. » ونظرت إلى ابنتي . « أنا لا أدري الآن إن كنت أكل كثيراً بسبب الحمل أو لأنى جائعة فعلاً » .

قلت لها : « استمرى ، كلى ، أى شيء آخر تريدين ؟ » .

قالت : « قطعة لحم أخرى ، فلفلة وكأس بيرة آخر . ويمكنك أخذ القدح » .

وأفرغت الكأس وناولتنى إياه . نزلت إلى البار ، وكانت المرأة وراء المنضته تملأ قدحاً ، تناولت شنايز آخر . نظرت إلى المرأة بحنو أكثر من السابق . وضعت قطعة لحم وفلفلة على الصحن ، ودفعته إلى عبر للمنضدة الرطبة .

الظلمة الآن شديدة في الخارج ، والبار خالٍ تقريباً ، والراقصون في الردهة صاخبون ، بعد أن دفعت المبلغ بقى معى ماركان فقط .

- « هل ستغادرون المكان غدًا مبكرين ؟ » .

قلت : « نعم » :

- « إذن من الأفضل أن تدفع أجرة الغرفة الآن » .

- « أنا قد دفعت توًّا » .

- « أوه ، حَسَن ، لكن من فضلك تأكد من جلب الأقداح والصحون قبل أن تغادرونا ، فقد عرفنا المتاعب التي سوف تجلبها إلى هنا ، أليس كذلك ؟ » .

قلت : « طبعاً » .

كانت « كيت » تضطجع على ظهرها ، وتدخن :

- « هائلة الحياة هنا » . قالت وأنا أجلس إلى جانبها : « فكرة مذهشة أن تذهب إلى فندق مرة ثانية ، لم نأت إلى فندق منذ زمن طويل ، هل هو مُكَلِّف ؟ » .

- « ثمانية ماركات ! » .

- « أما زلت تملك هذا المبلغ ؟ » .

- « لقد دفعته ، وبقي لي ماركان » .

أخذت حقيبتها ، نفضت محتوياتها على السرير ، ومن بين فرشة الأسنان . وحافظة الصابونة وقلم الحمرة اصطدنا ما تبقى من النقود التي أعطيتها لها في أرض الملاعب . كانت أربعة ماركات .

قلت : « هذا جيد وكافٍ لأن نذهب وننال إفطاراً » .

قالت : « أعرف مكاناً لطيفاً يمكننا تناول الإفطار فيه إنه وراء النفق تماماً ، إلى يميننا ونحن ذاهبان من هنا » . نظرتُ إليها واستأنفت : « هو مكان لطيف ، هناك فتاة فاتنة ورجل عجوز قهوتهم جيدة ، المكان الذى أنا مدينة له » .

سألتها : « هل الولد الأبله هناك أيضاً ؟ » .

أبعدت سيجارتها من شفيتها ونظرت إلى :

- « هل تذهب غالباً إلى هناك ؟ » .

- « كلا ، كنت هناك لأول مرة هذا الصباح ، أذهب إليه صباح غد؟ »
قالت : « نعم » .

استدارت إلى الجهة الأخرى باتجاه النافذة ونامت وظهرها إلى . أردتُ أن أقدم لها الصحن والبيرة ، لكنها قالت :
- « لا تبالي ، سأكلها فيما بعد » .

بقيت جالساً إلى جانبها ، وإن كانت قد استدارت مبتعدة ، وارتشفت بىرتى . كان الهدوء يسود المحطة . خلال النافذة كنت أرى أعلى البنايات العالية الطويلة وراء المحطة . قنينة البراندى الهائلة واضحة فى الأضواء المعلقة أبداً فى المساء هناك . يمكن المرء أن يرى رجلها يشرب فى جوف القنينة . وفى أعلى البناية تلك الرسائل التى تتغير دائماً حروف مضاءة تتدحرج إلى الخارج ، ببطء قرأت :

استعمل عقلك - يتلاشى الخط - لا تبَقْ فى الفراش .

تخرج الحروف متدحرجة فى الليل المظلم ، بعدها لا شىء بضع دقائق ،

ملأتنى رغبة فى معرفة -

عندما تعلّق فوق

إنها هناك ثانية ، تسقط عائدة فى الفراغ ، ومرة أخرى لا شىء لبضع
ثوان ، ثم فجأة تضاء الحروف جميعها مرة واحدة :

تناول دولورن

ثم فى أصفر حاد :

يمكنك الاعتماد على دوائيك !

قالت « كيت » فجأة : « فريد ، أعتقد بأننا إذا ناقشنا ما تريد أن تعرفه ،
لا أمل لك . لهذا لا أفضل مناقشته . يجب أن تعرف ما يجب عليك
فعله ، وحتى إذا كنت حاملاً ، فلا أريدك أن تعود إلى البيت لتظل تصرخ
هناك ولتضرب الأطفال وأنت تعلم أنهم أبرياء . لا أريد ذلك . لن أشتاق
لصباح بعضنا على بعض » .

كانت لا تزال مضطجعة وظهرها إلى ، وكلانا يحدق بالحروف المضاءة فى
أعلى البناية ، والتي تتغير الآن أسرع وأسرع ، أكثر وأكثر حدة ، وفى ألوان
قوس قزح مرسله فى الظلام كلمات بألوان قزحية :

يمكنك الاعتماد على دوائيك !

- « هل تسمعين ؟ »

قلت : « نعم ، سمعتك . لماذا لا تستطيعين المجئ إلى بعد ؟ » .

- « لأنى لست بغياً . لا أحمل شيئاً ضد البغايا يافريد ، لكنى لست
واحدة منهن . مرعب أن آتى إليك لأنام معك فى مكان ما ، فى عمر بناية

مدمرة ، أو فى حقل ، ثم أركب الترام إلى البيت ، دائماً يَتملكنى الرعب فى الترام ، الخوف من أن تكون قد نسيت أن تضع فى يدي خمسة أو عشرة ماركات ، لا أدري كم يُدفع لأولئك النسوة بعد نومهن مع رجل :
- « يأخذن أقل من هذا بكثير حسبما أعتقد » .

أنهيت ييرتى ، التفّْتُ إلى الحائط ، تطلعتُ لزخرفة أشكال القلوب على ورق الحائط الأخضر وأكملت :
- « أظن أن هذا يعنى أن نفترق » .

قالت : « نعم أظن أن ذلك أفضل . ليست لى أية نية لإحراجك ، فريد أنت تعرفنى - لكن أظن من الأفضل لنا أن نفترق . الأطفال لا يفهمون حتى الآن ، هم يصدقوننى حين أقول لهم إنك مريض ، لكن كلمة مريض بالنسبة لهم تعنى شيئاً مختلفاً ، إضافة إلى ذلك ، كل ذلك التقريع فى البناية يؤثر فيهم . الأطفال يكبرون يافريد . هنالك الكثير من الناس يظنون أنك تزوجت امرأة أخرى ، لم تتزوج ، أليس كذلك يافريد ؟ » .

كنا لا نزال مضطجعين ظهرًا لظهر ، وكانت تخاطبني كما تتحدث لشخص ثالث . قلت :

- « كلا ، لم ألتحق لى زوجة أخرى ، أنتِ تعرفين ذلك » .

قالت : « لا يستطيع المرء أن يكون متأكدًا ، لى شكوكى أحياناً لأننى لا أدري أين تعيش » .

- « لم ألتحق زوجة أخرى ، لم أكذب عليكِ ، تعرفين ذلك » .

بدت مستجيبةً ، قالت :

- « كلا ، لا أظن أنك يوماً كذبت على . لا أتذكر مثل ذلك في أى حال .

- « هكذا إذن تعرفين » .

أخذت رشفة من بيرتها من الكأس التى على الكرسي بجانبى وقالت :
- « فكر فى هذا . لك حياة لطيفة سهلة ، تسكر حين تحب . . أنت تمضى وتمشى فى المقابر ، وليس عليك غير أن تتصل بى وأنا آتى لك حين ترغب فى . وفى الليل تنام فى بيت هذا المتخصص فى دانتى » .

- « أنا لا أنام كثيراً فى المجمعات السكنية ، أنا عادة أجد بقعة فى مكان آخر : أنا لا أحتمل تلك الدار . إنها ضخمة جداً وفارغة وجميلة وراقية . لا أحب الدور الراقية جداً » .

استدرت ، صعدت نظرى من فوق ظهرها إلى الشعار المضاء فى أعلى البناية ، لا يزال كما هو :

يمكنك الاعتماد على دوائيك !

ظلت الكلمات نفسها تتوهج طول الليل ، تزداد توهجاً وبألوان قوس قزح . نمنا هناك وقتاً طويلاً ، ندخن ولا نقول شيئاً . نهضت بعد ذلك وسحبت الستائر ، لكننا كنا نستطيع رؤية الكلمات حتى بعد إسدال الستائر . تعجبت من « كيت » ، لم تتكلم معى بمثل ذلك من قبل . تركت يدي تستريح على كفها ولم أقل شيئاً . استمرت فى نومها مدبرة غنى ، فتحت حقيبتها ، سمعت « تكَّة » ولاعتها ، ورأيت الدخان يتصاعد نحو السقف من حيث تنام .

سألتها : « هل أطفئ الضوء ؟ » .

- « نعم ، ذلك أفضل » .

نهضت ، أطفأت الضوء ، وتمددت إلى جانبها . إنقلبت على ظهرها ، وانتابتنى هزة حين اقتربت لكتفها والتمت يدي فوق وجهها . كان وجهها مبللاً بالدموع ، لم أجد شيئاً أقوله . أبعدت يدي عنها ، بحثت تحت الغطاء عن كفها الصغير وشدت عليه . سررت إذ تركتني أفعل ذلك .

قالت في الظلام : « اللعنة على الموضوع كله ، كل رجل ينبغي أن يعرف ما يفعله حين يتزوج » .

قلت : « سأفعل كل ما أستطيع ، والحقيقة ، كل ما استطعت هو أن أحصل لنا على شقة » .

« لا تكن سخيلاً » قالت وكأنها تضحك : « ليس هو موضوع الشقة . هل تعتقد فعلاً بأنها هي المشكلة ؟ » .

رفعت نفسي محاولاً النظر في وجهها ، تركت يدها ، رأيت وجهها الشاحب دون وجهي ، رأيت طريق ارتحائها إلى البيت ، والذي أنزل إليه غالباً . وحين توهجت الحروف مرة أخرى في أعلى البناية ، رأيت وجهها بوضوح غارقاً في الخضرة : كانت في الحقيقة تبسم . عدت إلى النوم على ظهري ، فأخذت هي يدي وشدت عليها بقوة .

- « هل أنت حقيقة لا ترين أن تلك هي المشكلة ؟ » .

قالت بشيء من الحزم : « كلا ، كلا ، كلا كن الآن أميناً يا فريد . إذا جئت لك وقلت إنني وجدت شقة ، فهل ستُخبط أم سيسرك ذلك ؟ » .

قلت فوراً : « سأكون مسروراً ! » .

« كلا ، ستكون مسروراً لأنى أستطيع عندئذ أعود لكم جميعاً . أوه كيف يمكنك حتى التفكير ... » .

كانت الدنيا مظلمة فى ذلك الوقت ، كنا نائمين ظهراً لظهر مرة أخرى ، وأنا ألتفت بين وقت وآخر لا أرى هل استدارت « كيت » ، لكنها ظلت تحرق فى النافذة نصف ساعة دون أن تقول شيئاً . وحين انصت رأيت الكلمات تتوهج فى أعلى البناية .

يمكن الاعتماد على دوائيك !

يمكن الاعتماد ...

جاءنا من المحطة التهيج المبهج للمذيع ، ومن الباب فى الأسفل جاء صخب الراقصين ، ولم تقل « كيت » شيئاً . وجدت عسيراً على الكلام مرة ثانية ، لكنى خرجت عن صمتى بـ « أخيراً ألا تريدن شيئاً تأكليته ؟ » قالت : « أجل لو أوصلت لى الصحن من فضلك ، وأوقدت الضوء » .

نهضت ، أوقدت الضوء وعاودت النوم وظهرى إليها . سمعتها تأكل الفللفة وقطعة اللحم . أوصلت لها أيضاً قدح البيرة ، فقالت :
- « شكراً » .

وسمعتها تشرب . انقلبى على ظهرى ووضعت يدى على كنفها .

« إنه أمر لا أحتمله يافريد » ، قالت لى يهدوء وفرحت لأنها تكلمنى :
« أنا أفهمك جيداً ، ربما فهماً جيداً جداً . أعرف مشاعرك ، وأعرف كم بديعة هى إذ تزخر بالبذاءة أحياناً . أعرف أنه الشعور ، وربما الأفضل لك

أن تكون لك زوجة لا تفهم ذلك أبداً . لكنك تنسى الأطفال ، هم هناك ، هم أحياء ، أنا لا أحتمل الأمر بسببهم . أنت تعرف كيف كان الحال حين بدأنا ، كلانا ، نشرب أنت الذي رجوتني أن أتوقف . . . » .

- « لقد كان فعلاً أمراً مزعجاً حين مضينا إلى البيت وشم الأطفال .
الرائحة . لكنها غلطتى أنا ، كنت تشربين أيضاً » .

- « لست معنية بتحديد من المذنب في هذا » .

أنزلت الصحن وارتشفت شيئاً من البيرة ،

- « لا أعرف ، لا أعرف أبداً يا فريد إن كانت هي غلطتك أم لا . لا أريد إدانتك يا فريد ، لكني أحسدك » .

- « تحسديني ؟ » .

- « نعم أحسدك ، لأنك لست حاملاً . يمكنك أن تمضى في نزعات ، وتقضى ساعات في المقابر ، وتسكر باكتئابك عندما لا تملك مالاً لتشرب . أنت تسكر بحزنك حين لا تكون معنا . أعرف انك تحب الأطفال وتحبني أيضاً ، أنت تحبنا كثيراً جداً ، لكن لم يخطر لك أن حالاً لا تحتمله وتبتعد عنه ببطء بسبب موتنا . لأنك لست معنا . لا يخطر لك أن الصلاة هي الشيء الوحيد الذى يمكن أن يعيننا . أنت لا تصلى ، أليس كذلك ؟ » .

قلت : « نادراً جداً ، لا أستطيع » .

« كل واحد يرى ذلك يا فريد - أنت تشيخ ، أنت تبدو شيخاً حقيقة ، مثل أعزب عجوز بائس . أن تنام بين حين وآخر مع زوجتك لا يعنى أنك متزوج بها . أخبرتنى مرة خلال الحرب أنك تفضل العيش في زنزانة حقيرة

على أن تكون جنديًا . لم تكن شابًا صغيرًا حين كتبت ذلك - كنت في السادسة والثلاثين . أحياناً أحس بأن الحرب تركت فيك خللاً ، صرت بعدها مختلفاً » .

كنت متعباً جداً ، وكل ما قلته أحزنني لأنى أعرف أنها على حق . أردت أن أسألها إن كانت لا تزال تحبنى ، لكننى خشيت أن يكون سؤالى مضحكاً . إعتدت أن أقول لها كل شيء كما يخطر لى ، لكننى الآن لم أسألها إن كانت لا تزال تحبنى .

قلت بإعياء : « ربما تركت في الحرب ندباً . فأنا دائماً تقريباً أفكر في الموت ، كيت ، إنها تدفعنى للجنون . فى الحرب عدد كبير جداً من الموتى ، عدد لم أر مثله من قبل . كنت أسمع فقط ، كنت أسمع أصوات غير مهمة تقرأ أرقاماً فى الهاتف ، وتلك الأرقام هى أعداد الموتى حاولت تصوّرهم ذلك جيل كامل . مرةً قضيت ثلاثة أسابيع فيما يسمّى الجبهة . رأيت كيف يكون الموتى . أحياناً الخروج خلال الليل لإصلاح الخط ، وفى الظلام أتعثر بالموتى ، الظلام شديد ، لم استطع رؤية شيء . . أى شيء . سواد تام ، على نقطة العيب فيه . أصلحت الأسلاك . ربطت جهاز الفحص ، تفرصت هناك فى الظلام . وأنبطح حين ينبثق وهج أو تُطْلَقُ قذيفة ، وتكلمت فى الظلام مع آخر يجلس فى موضع على بُعد ثلاثين أو أربعين ياردة - لكن ما أخبرك عنه كان بعيداً .

قالت بلطف : « ليس الله عنا ببعيد » .

قلت : كنت أتحدث بصوت يختبر الخط ، إن كان قد عاد يعمل ثانية ، ثم كان على أن أزحف ببطء عائداً ، أمسك الكابل بيدي ، تعثرت مرة

أخرى فى ذلك الظلام فوق الموتى ، وأحياناً أظل مطروحاً إلى جانبهم . مرة قضيت الليل بطوله . ظن الآخرون أنى أحد الموتى . بحثوا عنى ، حتى تخلوا عنى أخيراً .

لكنى بقيت مطروحاً طول الليل بجانب الموتى الذين لم أستطع رؤيتهم ، كنت أحس بهم - بقيت بجانبهم ، لا أدرى لماذا - والوقت لا يمر لصالحى . وحين وجدونى ظنوا أنى كنت مغموراً . وأحسست بالضجر حينما وجبت على العودة للعيش - أنت لا تصدقين كم كان الناس بعدها يُضجِرُوننى . الموتى هم الرائعون » .

قالت ، دون أن تترك يدى :

- « أنت مزعج يافريد ، أعطنى سيجارة » .

بحثت عن سجائر فى جيبى ، أعطيتها واحدة أشعلت كبريتاً . وانحنيت عليها لأرى وجهها . بدت لى أكثر شباباً ، وأنها تشعر بتحسن ، ولم يعد جلدها أصفر .

سألتها : « ألا تشعرين بعد بأنك مريضة ؟ »

قالت : « كلا ، أبداً أنا بخير . لكنى خائفة منك ، أنا فعلاً خائفة » .

- « لا تخافى منى . ليست هى الحرب التى أتعبتنى ، فسيكون الشئ نفسه تماماً - أننى ببساطة أضجر - يجب أن تسمعى ما يمر فى أذنى طيلة النهار : أكثره هواء ساخن »

قالت : « يجب أن تصلى ، فعلاً يجب أن ... إنها الشئ الوحيد الذى لا يُضجِرُ » .

قلت : صَلِّ أَنْتِ مِنْ أَجْلِ ، كُنتِ قَادِرًا عَلَى الصَّلَاةِ ، فَقَدْتَ الْقُدْرَةَ
الآنَ » .

- « نَحْتَاجُ إِلَى مِرَانٍ . يَجِبُ أَنْ تَتَابِرَ . ابْدَأْ وَابْدَأْ مَرَّةً أُخْرَى . السَّكْرَ لَيْسَ
جَيِّدًا » .

- « حِينَ أَكُونُ سَكْرَانًا أَسْتَطِيعُ أحيانًا أَنْ أَصِلِيَ جَيِّدًا » .

- « لَأخِيرَةَ فِي ذَلِكَ يَا فَرِيدَ ، الصَّلَاةُ لِلصَّاحِي . إِنَّهَا مِثْلُ الْوُقُوفِ أَمَامَ
وَاحِدٍ مِنْ ذَلِكَ النَّوعِ مِنَ الْمَصَاعِدِ الْمُتَحَرِّكَ وَأَنْتِ تَحْشَى أَنْ تَقْفِزَ عَلَيْكَ يَجِبُ
أَنْ تُبْقِيَ نَفْسَكَ مَشْدُودَةَ الْقُوَى ، وَفَجْأَةً تَكُونُ فِي الْمَصْعَدِ وَهُوَ يَحْمِلُكَ إِلَى
أَعْلَى . » أحيانًا أَشْعُرُ بِهَا وَاضِحَةً جَدًّا يَا فَرِيدَ ، حِينَما أَضْطَجِعُ يَقْظَانَةٌ فِي
الْإِلِيلِ وَأَبْكِي ، وَحِينَ يَكُونُ أَخِيرًا قَدْ صَمَتَتْ كُلُّ شَيْءٍ . أَشْعُرُ غَالِبًا بِأَنْيَ
مَاضِيَةٍ خِلَالِ ذَلِكَ . بَعْدَهَا لَا أَعْنَى بِأَيِّ شَيْءٍ آخَرَ . لَا الْغُرْفَةَ وَلَا الْقُدْرَةَ ،
وَلَا حَتَّى التَّعَاسَةِ ، وَحَتَّى بَعْدَكَ عَنَّا لَا يَعُودُ يَمْنَى . بَعْدَ كُلِّ شَيْءٍ يَا فَرِيدَ ،
لَيْسَ مِنْ أَجْلِ تِلْكَ الثَّلَاثِينَ سَنَةَ الْآخِرَى الطَّوِيلَةَ أَوْ الْأَرْبَعِينَ ، وَالتِّي مِثْلَهَا
هِيَ طَوِيلَةٌ جَدًّا ، فَإِنْ فِيهَا مَا يَجْعَلُنَا نَحْمِلُ مَشَقَّاتَهَا مَعًا إِلَى نَهَائِهَا .
وَأَشْعُرُ بِأَنْ عَلَيْنَا تَحْمِلُهَا مَعًا . لَكِنْ يَا فَرِيدَ أَنْتِ تَصْغُرُ نَفْسُكَ ، أَنْتِ حَالِمٌ
وَاصْطِنَاعُ الْأَحْلَامِ خَطَرٌ .

كُنْتُ فَهَمْتُ الْأُمَّ لَوْ أَنَّكَ تَرَكْتَنَا مِنْ أَجْلِ امْرَأَةٍ أُخْرَى ، سَيَكُونُ ذَلِكَ
مَزْعَجًا لِي أَكْثَرَ بِكَثِيرٍ مِمَّا هُوَ الْآنَ ، لَكِنِّي سَافَهُمُ . وَإِنْ كَانَ بِسَبَبِ تِلْكَ
الْفَتَاةِ الَّتِي فِي كُوخِ الْأَكْلَاتِ الْخَفِيفَةِ يَا فَرِيدَ لَا اسْتَطَعْتُ فَهْمُهُ أَيْضًا .

قلت : « أَرْجُوكَ ، لَا تَتَحَدَّثَنِي عَنْ ذَلِكَ » .

أكملت : « لكن ابتعدت في أحلامك . هذا ليس جيداً ، أنت تحب رؤيتها ، أليس كذلك ؟ الفتاة التي في الكوخ ؟ »

- « نعم ، أحب أن أراها . أحب كثيراً أن أراها . سأذهب كثيراً إلى هناك وأراها ، لكنني لا أحلم أبداً بهجرتك من أجلها ، إنها تقيّة جداً » .
- « تقيّة ؟ كيف عرفت ذلك ؟ » .

- « لأنني رأيته في الكنيسة . إنني رأيته هناك تركع فقط وتتلقى البركة ، لم أبق في الكنيسة أكثر من ثلاث دقائق ، كانت تركع هناك مع الأبله ، وقد باركهم القس معاً . فرأيت كم ورعة هي ، رأيته ورعها في حركاتها ، تبعته لأنها لا مست قلبي » .

- « ما الذي فعلته ؟ »

- « لامست قلبي » .

- « هل أنا أيضاً لامست قلبك ؟ » .

- « أنت لم تلامس قلبي ، أنت قلبت قلبي عالياً سافلاً ، هذا ما يُعبّر عنه حسيماً اعتقد بـ « أحبك كثيراً » .

- « هل من نساء أخريات لا مَسَنَ قلبك ؟ »

قلت : « نعم ، قليلات جداً . قليلات أولئك اللاتي لامسن قلبي . وفي الحقيقة أنا لا أريد وصف الأمر بهذا المعنى ، لكنني لا أعرف تعبير أفضل . . لامسنني بلطف ، هو ما يجب أن أقوله . في برلين رأيت امرأة لامست قلبي . كنت واقفاً عند نافذة القطار . فجأة دخل قطار من الرصيف الثاني . توقفت نافذة فيه قبالة نافذتي ، وكانت النافذة مفتوحة -

كانت مضَيِّبة - وصرت أتطَّلَع في ووجه امرأةٍ لامست قلبي في الحال . كانت شديدة السُّمرة طويلة ، وابتسمتُ لها . ثم بدأ قطارى يتحرك ، انحنيت إلى الخارج ، لوحت لها طويلاً قدر ما استطعت رؤيتها . لم أرها مرةً أخرى ، ولم أَرِد أن أراها مرةً أخرى » .

- « لكنها لامستُ قلبك . أخبرنى بكل قصص الملامسات هذه يا فريد . هل لوحت لك أيضاً مُلامسةُ القلوب ؟ »

قلت : « نعم ، لوحت لى . لأفكر قليلاً ، أنا متأكدة من أنى سأتذكر الأخرى . لى ذاكرة جيدة للوجوه » .

قالت : « استمر يا فريد ، تذكر » .

قلت : « غالباً ما يحدث لى هذا مع الأطفال ، مع الرجال الشيوخ ، والنساء العجائز أيضاً ، للسبب نفسه » .

- « وأنا قلبتُ قلبك عالياً وسافلاً فحسب ؟ » .

- « أنتِ لامسته أيضاً . أوه يا حبيبتى . لا تضطرينى على ترديد هذه الكلمة . حين أفكر فيك ، فكثيراً ما يحدث هذا : أراك تنزلين على السلم ، تتجولين وحدك خلال المدينة ، أراك تتسوقين ، تُطعمين الطفل . إذن ، هذه هى حالى معك » .

- « لكن الفتاة فى الكوخ قريبةٌ جداً » .

- « ربما اختلف الأمر إذا رأيتهَا مرةً أخرى » .

قالت : « ربما ، هل تريد أن تنهى بيرتى ؟ » .

قلت : « نعم » .

وأوصلت كأسها إلى فأنهيتها ، ثم نهضت ، رفعت الأقداح والصحون الفارغة ونزلت بها . رجلان شابان كانا يقفان عند المنضدة ، كشرًا في وجهي وأنا أضع الأقداح والصحون الفارغة على المنضدة .

مرة أخرى كانت هناك صاحبة المحل ذات الوجه الأبيض عديم المسام . أشارت برأسها إلى ، وصعدت حالاً إلى الطابق العلوى . حين دخلت الغرفة نظرت إلى كيت وابتسمت . أطفأت النور ، خلعت ملابسى فى الظلام ودخلت الفراش . قلت :

- « إنها فقط العاشرة » .

قالت : « بديع ، نستطيع أن ننام تسع ساعات تقريباً » .

- « كم سيقى الرجل الشاب مع الأطفال ؟ » .

- « إلى ما قبل الثامنة » .

قلت : « لكننا لا نريد أن نسرع بعد الإفطار » .

- « ألا يوقظنا أحد » .

- « كلا ، سأستيقظ أنا فى الوقت » .

قالت : « أنا متعبة يا فريد ، لكن أخبرنى أكثر . ألا تعرف مزيداً من قصص الملامسة ؟ » .

قلت : « قد أفكر فى قليل منها » .

قالت : « استمر ، أنت رفيق لطيف ، لكن هناك أوقاتاً أود أن أضربك فيها . أنا أحبك » .

— « إننى مسرور لأنك قلتِ هذا . أحسست بأن على أن أسألك . . » .

— « اعتدنا أن يسأل أحدهنا الآخر كل ثلاث دقائق » .

— « لسنوات » .

قالت « لسنوات ، استمر ، أخبرنى » .

وأخذت يدى متشبثة بها .

سألتها : « أعن نساء ؟ » .

قالت : « كلا ، أفضل أن أسمع عن رجال أو أطفال ، أو عن نساء كبيرات السن . لا أهرى إن كنت متأكدة من أمر الشابات » .

— « لا شىء تحشين منه » .

قلت هذا واتحيت عليها ، قبلتُ فمها ، حين اضطجعت ثانية ذهب
بصرى إلى الخارج ، ورأيت شعاراً مضاً :

يحكن الاعتماد على دوائيك !

قالت : استمر .

قلت : « فى إيطاليا . كثير من الناس لامسوا قلبى . رجال ونساء ،
شباب وشيب .. أطلقال أيضاً . وحتى نساء ثريات ، ورجال أثرياء أيضاً »

— « قبل دقيقة مضت ، قلت إن الناس مُضجرون » .

— « أشعريأتى مختلف جداً ، أنا أفضل كثيراً منذ عرفتُ أنك لا تزالين

تحسيننى . لقد قلتِ لى أشياء مزعجة » .

— « لن أسحب منها كلمة ، نحن الآن نلعب قليلاً يا فريد . لا تنس أننا

نلعب . قريباً سنعود إلى الجلد - ولن أسحب منها كلمة - وحقيقة أنى أحبك لا تعنى شيئاً ، فأنت تحب الأطفال أيضاً ، لكن لا تهتم حتى بـ كيف يحبون .

قلت : أوه ، أعرف ، لقد كشفت عن نفسك تماماً . لكن حذى الآن اختيارك أياً تحبين ، رجلاً ، أو امرأة ، أو طفلاً ، وأى بلد ؟

قالت : « هولندا ، ألمانيا »

قلت : « أوه ، هنا يعنى أنك تتوقعين منى أن أجعلك المملكتا للامس قلبك؟ أنت وضيعة ، فأنا خلال الحرب مرة واحدة فقط رأيت ألمانيا لامس قلبى ، و كان شرباً فى ذلك الوقت . لكنه لم يعد غنياً - كان ذلك ونحن نُساق عبر روتردام » كانت تلك أول مدينة مدبرة أراها ؛ لطيف أنى وصلت الآن مرحلة أن مدينة غير مدبرة تحبطنى - فى ذلك الوقت كنت مشوشاً تماماً . رأيت الناس ، رأيت الخرائب ... » .

أحسست الآن أن قبضتها على يدى قد تراخت ، انحنيت عليها . رأيت أنها نائمة : فى النوم يبدو وجهها متغطرساً ، مهموماً جلتاً ، شفتاها منفرجتان قليلاً فى مظهر المعاناة .

اضطجعتُ ثانية ، دَخنت سيجارة أخرى وبقيت مضطجعاً يقظاناً فى الظلام وقتاً طويلاً ، أفكر فى الأمر كله . حتى أنى حاولت أن أصلى ، لكن لم أستطع ، وللحظة فكرت فى النزول مرة أخرى إلى الطابق الأرضى فقد أحظى برقصة على الأقل مع تلك الفتاة من مصنع الشيكولاته ، لأشرب شنايز آخر ، لألعب بالملكات قليلاً - مؤكداً أنها الآن مجاناً - لكنى بقيت فى النهاية حيث كنت . كل مرة أرى الشعار فى أعلى البناية يتوهج ، فيضاء

ورق الجدران المخضّر والمزخرف بقلوب . أرى ظل المصباح قُبالة الحائط ، وأرى نقوش البطانيات : دبية تلعب كرة ، وقد استحالت رجالاً يلعبون كرة : رياضيون بأعناق ثيران ينطحون لبعضهم فقاعات صابون فائقة الحجم . كا الشعار هناك في الأعلى :

يمكن الاعتماد على دوائيك !

ذلك هو الشيء الأخير الذي رأيته قبل أن أغرق في النوم .

مازالت مظلمة في الخارج استيقظت . لقد نمت نوماً عميقاً ، ولحظة استيقظت كنت أتمتع بشعور عظيم بالحياة الطيبة ، فريد مازال نائماً وجهه إلى الحائط ، وكنت لا أرى غير رقبة النخيلة ، نهضت سحبت الستارة جانباً ، فرأيت الفجر الرمادي الباهت فوق المحطة . قطارات معاكسة تصل . صوت المذيع المخنوق يمر عبر الخرائب حتى يصل إلى الفندق . ويمكن سماع ضربات القطارات . كل شيء في البناية هادئ . كنت جائعة ، تركت النافذة مفتوحة ، عدت إلى الفراش وانتظرت . لكنني كنت غير مستقرة . أفكر دائماً بالأطفال ، اشتقت لهم ، أفكر في الوقت ، مادام فريد لا يزال نائماً فهي ليست السادسة والنصف - لدى وقت كثير . نهضت ثانية ، ارتديت الجاكيت الخاص بي ، لبست حذاءي وانسللت خلال الممر نصف المضء إلى المغاسل ، حتى وجدتها أخيراً في زاوية غير مضاءة ، كريمة الرائحة . لا يزال فريد نائماً ، وكنت أرى الساعات المتلامعة في المحطة - مصفرة متوهجة الأقراص - لكنني لم أستطع قراءة الوقت . في أعلى البناية السامقة ، توهج الشعار ثانية ، سطع حاداً في الظلمة الرمادية :

يمكنك الاعتماد على دوائيك

اغتسلتُ جيّدًا بدون إحداث ضجّة ، ارتديتِ ملابسى ، وحين نظرت
حولى رأيتُ فريدًا يراقبنى : اضطجع هناك يطرف بعينه ، أشعل سيجارة ،
وقال :

- صباح الخير .

قلت : « صباح الخير » .

- « هل تشعرين بعد بمرض ؟ » .

- أبدًا ، أشعر بأنى بخير تمامًا .

قال : « حسن ، لا حاجة للتعجل » .

قلت : « يجب أن أغادر المكان يا فريد ، قد بدأت أقلق » .

- « ألا نمضى لتناول الإفطار معاً ؟ » .

قلت : « كلا » .

صاحت صَفَّارَةٌ مصنع الشيكولاته عاليًا ، صوتها الحاد شق الفضاء
ثلاث مرات فى ذلك الصباح .

جلست على حافة السرير ، شددت أشرطة حذائى ، وأحسست بفريد
يمرّ يده فى شعرى من الخلف ، تركه يتهدل بلطف من بين أصابعه وأشار :

- « إن كان كل أمس صحيحاً ، فافتضى أنه يعنى : أن يرى أحَدنا
الآخر مرة أخرى زمنًا . . ولكن ألا نشرب فنجانَ قهوة معاً على الأقل ؟ » .

لم أقل شيئاً ، شددت تنورتى ، وزررتُ قميصى ، تطلعت إلى المرأة
ومشطت شعرى ، ما كنت أنظر إلى نفسى فى المرأة ، لكنى مشطتُ شعرى ،
وأحسست بخفقان قلبى . أدركت الآن كل شىء قلته أمس ، ولم أشأ .

استرجاعه . شعرت شعوراً كاملاً بأنه سيعود ، لكن كل شيء بدأ الآن غير أكيد .

سمعتة ينهض ، رأيته في المرأة يقف إلى جانب السرير تماماً ، وألمنى كم بدا مدمراً . كان قد نام في قميصه الذي كان يرتديه خلال النهار . شعره كان أشعث ، وقد بدا نكدًا بدون قصد سحبت المشط خلال شعري ، لم أضع في اعتباري جديدًا أنه قد يهجرنا فعلاً ، لكنني أعتقد ذلك الآن .

سكن قلبي ، بدأ يسرع ، توقّف ثانية . راقبته عن قرب وهو واضع سيجارة في فمه ، ويزرر بملي بنطلونه البالي ، شد حزامه ، ارتدى جوربيه وحذائيه : إنه هنالك واقف في حجرة مرّ يديه على جبهته وحاجبيه ، ولم أستطع تصديق أنني قد تزوجته لخمس عشرة سنة : كان غريباً على ذلك الرجل الضَّجِرُ ، الملول ، الذي جلس الآن على حافة السرير ، يمسك رأسه بيديه ، تركت نفسي تهوى في المرأة وتعيش على رؤيا حياة أخرى أنا فيها دونما زواج : إنها ستكون رائعة ، حياة لا زواج فيها ، لا أزواج مجهدى العيون ، يندر أن يكونوا يقظين ، يبدؤون نهارهم بالزحف إلى سجاثرهم . سحبت عيني من المرأة ، مَشَطْتُ شعري في ذلك المكان ومضيت إلى النافذة . هي أخفّ الآن . الرمادي الشاحب فوق المحطة ، حَلَّ فيّ أنا بدون أن أدري : فقد كنت لا أزال أحلم بتلك الحياة التي لا زواج فيها ، هذا الذي وُعدنا به . أسمع إيقاع التراتيل ، رأيت نفسي في مجموعة الرجال الذين لم أتزوجهم ، رجالٍ عرفتهم وما كانت لهم رغبة في اختراق رحي .

سألني فريد وهو عند المغسلة : « أيمكنني استعمال فرشاة أسنانك ؟ »

نظرت إليه وقلت بتردد : « نعم » .

وفجأة ذهبت إليه مرة أخرى . وصحت :

- « يا إلهي ، تستطيع على الأقل خلع قميصك وأنت تغتسل ! » .

قال لي : « ألم أفعل ذلك ؟ » .

وفتح ياقة قميصه ، بلّل المنشفة ، مسح وجهه ورقبته ، وأثارتني حركاته اللامبالية .

قال : « سأعتمد دوائياً وأشتري فرشاة أسنان معتمداً عليها . ماذا لو اعتمدنا دوائياً في كل أمورنا ؟ » .

صرخت فيه ثانية : « فريد ، كيف يمكنك طرح نكات ، لم أرك مطلقاً في مثل هذا الحال الطيب وفي هذا الصباح الباكر ؟ » .

قال : « لست في حال طيب أبداً ، ولا حتى في حال سيء ، وإن كان صعباً الشعور بالسرور دونها إفطار ، ولا حتى قهوة » .

قلت : « أوه ، إنى أعرفك ، امضِ ودع قلبك يلامس » .

كان يستعمل مشطى ، توقف الآن ، استدار ونظر إلى : « أدعوك لإفطارٍ يا حبيبتي » . وقال : « أنت لم تعطني أى جواب حتى الآن » .

التفت مبتعداً عني ، استمرّ في تمشيط شعره ، وقال في المرأة :

- « سوف أكون قادراً على إعطائك تلك الماركات العشرة ، ربما في الأسبوع القادم » .

- « أوه ، أنسها ، ليس حتماً عليك منحى كل نقودك » .

- « لكنى أودُّ ذلك ، وأرجوك أن تقبليها » .

- « شكرًا لك يا فريد ، أقدر لك ذلك ، فأنا حقًا أتقبلها ، إن كنا ذاهبين لتناول الإفطار ، فالأفضل أن تعجل لها » .

- « إذن ستأتين ؟ » .

- « نعم » .

- « أوه ، حسن ! » .

سحب رباطه تحت ياقته ، شده ، ومضى من فوق السرير ليأخذ سترته .

صاح : « سأعود . سأعود بالتأكيد ، أعود إليك ، لكنني لا أريد أن أضطرَّ إلى شيء أميل لأن أفعله من تلقاء نفسي » .

قلت : « فريد لا أظن هنالك أي شيء آخر لكى نناقشه بعد » .

قال : « كلا ، أنتِ على حق ، سيكون رائعاً أن أراك مرة أخرى في حياة أستطيع أن أحبك فيها قدرَ ما أحبك الآن دون أن أتزوجك » .

همست : « كنت أفكر في هذا » .

ولم أستطع حبس دموعي .

أسرع إلّى من حول السرير وطوّقني بذراعيه ، وسمعته يقول وفمه يستقر على رأسي :

- « كم هو رائع أن أراك مرة أخرى ، آمل ألاّ يصدمك إقترابى منك هناك أيضاً » .

قلت : « أوه ، يا فريد ، فكّر في الأطفال ! » .

- « ألا تعطينني قبلة ؟ » .

رفعتُ رأسى وقبلته .

انسحب منى ، ساعدنى على ارتداء جاكيتى ، وحزمتُ أنا أشياءنا حين كان ينتهى هو من ارتداء ملابسه .

قال : « المحظوظون هم أولئك الذين لا يجب أحدهم الآخر حين تزوجوا . إنه لأمرٌ مزعج أن يجب بعضهم بعضاً ويتزوجون » .

قلت : « لعلك على حق » .

كان الظلام لا يزال منتشرًا . وفى الممر كانت هناك رائحة تأتي من زاوية المغاسل ، وكان المطعم الذى فى الطابق الأرضى مغلقاً ، وليس هناك أحد ، ولا باب مفتوح . علّق فريد المفتاح على مسمار كبير بجانب المدخل المؤدى إلى المطعم .

كان الشارع ممتلئاً بالفتيات اللائى فى طريقهن إلى مصنع الشيكولاتة : كنت مندهشة للسور البادى عليهن ، أكثرهن ، يَسِرْنَ ذراعاً فى ذراع ويتصاحكن .

ونحن ندخل مطعم الأكلات الخفيفة ، دقت أجراس الكاتدرائية السابعة إلا ربعاً . أدارت لنا الفتاة ظهرها ، وهى تشغل مكنة القهوة . كانت هناك مائدة فارغة واحدة . جلس الأبله قابعاً إلى جانب الموقد ، يمص مصاصته . كان المكان دافئاً وداخناً ، ابتسمت لى الفتاة وهى تستدير، وقالت :

« أوه ! » .

ثم نظرت إلى فريد ، وثانية إلىى ، ابتسمت وأسرعت إلى المائدة الفارغة ، لتمسحها . طلب فريد قهوة ولفائف خبز وزبدًا .

فعدنا ، وأراحني أن أراها مسرورة بصورة حقيقية : أفتلها عمرتان من الانفعال وهي تُهيء لنا الصحون . لكنني كنت قلقة ، مضيت في التفكير في الأطلاق ، والإقطار لا يعنى تحقيق نجاح . كان غريد قلقاً أيضاً ، لاحظت أنه نادراً ما ينظر إلى الفتاة وأنه متعب ، ولا ينظر إلى حين لا تكون عيناى عليه ، وحين أنظر إليه يتعد ينظره عني ، كثير من الناس دخلوا «الكوخ» ، تناولت الفتاة لقائف الخبز والسجق والحليل . حسبت النقود ، أخذت بعضها ، وهي تنظر إلى بين حين وآخر وتبتسم ، كما لو أنها تؤكد فهماً شخصياً ، فهم شيء لما بدت - وهي صامته - متيقنة منه . وحين هدأت الأمور قليلاً مضت إلى الأبله ، مسح قمه ، همست باسمه في أذنه ، في حين كنت أنا أفكر في بكل ما حدثتني عنه .

لقد أزعجتُ بكل كياني إلى الراء حينما دخل القس الذي تلقى اعترافى أمس - ابتسم للفتاة ، أعطاها بعض النقود ، وتسلم منها ، عبر المنضدة ، علبة سجائر حمراء ، كان فريد يراقبه بانتباه أيضاً ، بعدها فتح القس العلبة وساحت نظرتة بدون قصد حول الغرفة ، رآنى ، ورأيتة يجفل ، هو ليس مبتسماً الآن ، ترك السيجارة تنزلق في جيب سترته السوداء ، اتجه إلى وتردد ، وخطا إلى الراء مرة ثانية .

نهضت وسرت إليه .

قلت : « صباح الخير يا أبى » .

- « صباح الخير » .

أجابنى ونظر حواليه في حيرة ، وهمس :

- « يجب أن أحدث إليك ، فقد كنت في بيتك هذا الصباح » .

سألته : « ولكن لماذا ؟ » .

أخذ السيجارة من جيب سترته ، وضعها بين شفتيه وهمس ، وهو يشعل
عود الثقاب :

- « إنك في حِلٍّ تام من ذلك ، كنت أحمق ، اغفر لي » .

قلت : « أشكرك كثيراً ، كيف الأمور في البيت ؟ » .

- « تكلمت مع السيدة الكبيرة وبالمناسبة ، أهي والدتك ؟ » .

تساءلتُ بفرح : « أمي ؟ » .

- « تعالى ، وقابليني في وقت ما » .

قال هذا وغادر المكان مسرعاً .

حين عدت إلى المائدة ، لم يقل فريد شيئاً ، بدا تعيساً جداً ، وضعت
يدي فوق ذراعه :

- « على أن أرحل يا فريد » .

- « ليس الآن ، أريد أن أتحدث إليك » .

- « ليس هنا ، يا إلهي ! فيما بعد ، إنَّ لك الليل بطوله » .

همس :

- « إنني عائد ، وقريباً ، هذه بعض النقود للصغار ، لقد وعدتُ . . .

أليس كذلك ؟ اشترى لهم شيئاً ، ربما بعض الآيس كريم ، إن كان ذلك
مما يحبونه » .

وضع ماركاً ، أخذته ، وضعته في جيب سترتي .

همس : « فيما بعد ، ستأخذين ما أنا مدين به إليك » .

قلت : « أوه ، فريد لا تواصل التفكير في هذا » .

قال : « يجب عليّ . . إنه لأمر مخيف أن أفكر في أننا ينبغي أن . . »

همستُ رادةً عليه : « اتصل بي هاتفياً » .

سألني : « هل ستأتين إن أردتكَ في الهاتف ؟ » .

- « لا تنس أنى مازلت مدينةً لهم بثمرن القهوة ، وثلاث كعكات مقلية » .

- « لا أنسى ، هل حقاً تريدان الذهاب الآن ؟ » .

- « يجب عليّ . . »

نهض ، وبقيت جالسة ، وراقبته يقف عند المنضدة ويتنظر . الفتاة عبرت لي بابتسامة حين كان فريد يدفع الثمن ، ونهضت وسرت مع فريد إلى الباب » .

نادت عليّ : « تعالى مرة أخرى ! » .

وصحت مجيبة : « سوف أجيء ، وألقيت نظرة على الأبله ، الذى كان لا يزال جالساً مُنشغلاً بمصاصته الجرداء » .

أخذنى فريد إلى موقف الحافلة ، لم نتبادل كلمة واحدة ، منح أحدهما الآخر قبلةً على عجل حين قدمت الحافلة ، ورأيتُه يقف هناك ، كما كنت غالباً أراه : رثّ الملابس وحزيناً .

استطعت أن أراه يمشى مبطئاً في اتجاه المحطة بدون أن يلقي نظرة واحدة إلى الوراء .

شعرت كأني بعيدة عنه بُعد الأبدية ، وأنا أسير صاعدة على سلام قدرة إلى شقتنا ، أدركت أنني لم أترك الأطفال مدة طويلة كهذه من قبل ، كان هنالك هرج جانبي في النياحة ، أباريق تغلى تطلق صغيراً ، ومذاييع تلقى تشجيعاتها وبشائرها الرسمية ، وعلى الطابق الثانى «مزويتر» يتشاجر مع زوجته ، لم يكن هناك أى صوت وراء باب شقتنا : ضغطت على زر الجرس ثلاث مرات ، انتظرت ، وأخيراً سمعت الأطفال حين فتح بلرمان الباب ، الباب ، سمعتهم ثلاثتهم ، حييت بلرمان تحية متعجلة وتجاوزته راكضةً إلى الغرفة لأرى الأطفال : كانوا جالسين حول المائدة يظهرون سلوكًا أفضل من ذلك الذى يبدونه معى ، حديثهم وضحكهم تَلاشى حين دخلت ، كانت لحظة صمت وشعرت بندبة حزن ، خفت - دقيقة واحدة لكنها دقيقة لا أنساها .

بعدها نهض الكبيران واعتنقانى ، وحملت أنا الرضيع بين ذراعى ، قبلته وأحسست بدموعى تجرى على وجهى ، كان بلرمان مرتدياً سترته ، حاملاً قبعته ، سألته :

- « هل كان سلوكهم جيدًا ؟ » .

قال : « نعم ، جيدًا جدًا » .

ونظر الأطفال إليه وابتسموا .

قلت : « انتظر دقيقة »

وضعت الرضيع فى مقعده العالى ، تناولت محفظة نقودى من الدرج ، وخرجت مع بلرمان إلى الممر ، رأيت قبعة السيدة زوجة فرانك ، وقبعة السيد فرانك موضوعتين على المائدة فى الصالة .

قلت : « صباح الخير » .

السيدة همف كانت عائدة من المغسل عاقصة شعرها تحت ذراعها مجلة مطوية ، انتظرت حتى دخلت في غرفتها ، فنظرت إلى بلرمان وقلت :

- « أربعة عشر ، أليس كذلك ؟ » .

قال مبتسماً :

- « خمسة عشر » .

أعطيته خمسة عشر ماركاً وقلت :

- « شكراً جزيلاً » .

فأجاب : « بكل سرور » .

ثم أحنى رأسه على باب غرفتنا ، ونادى :

- « وداعاً أيها الصغار ! »

ورد عليه الصغار : « وداعاً ! » .

عانقتهم كلهم مرة واحدة حين بقينا وحدنا ، منحت كل واحد نظرة فاحصة ، ولم اكتشف شيئاً في وجوههم يتفق ومخاوفي . بحسرة رحت أهْيء لهم « سندويشات » المدرسة كليمنز وكارلا كانا ينشبان في صناديقهما ، كارلا تنام على سرير حربي أمريكي ، كنا طويناه أثناء النهار وعلّقناه في السقف ، وكليمنت على أريكة عتيقة مستوية ، زاد طوله عن طولها ، بلرمان سوى لهم حتى فراشهم .

قلت لهم : « أيها الصغار يرسل لكم أبوكم محبته ، أعطاني لكم بعض النقود » .

مشت « كارلا » إلى وأخذت «سندويتشاتها» ، نظرتُ إليها : إن لها شعرَ فريد الأسود وعينه ، وهى مثله حين تنظر بعيداً فجأة .

كان الرضيع يلعب فى مقعده الصغير ، ويتطلع إلى بين وقت وآخر كأنه يريد التأكد من أنى ما زلت فى مكانى ، ثم يمضى لاعباً .

قالت «كارلا» : ثم قلتُ :

- « هل أديتما صلاتكما ؟ » .

- « نعم » .

- « سيأتى أبوكم إلى البيت قريباً » .

قلت ذلك وشعرت بعطف كبير على الأطفال ، وجاهدت لكى لا أبكى مرةً أخرى .

ومرة أخرى لم يقل الطفلان شيئاً .

نظرت إلى «كارلا» التى كانت جالسة على كرسى إلى جانبى ، تتصفح كتاباً مدرسياً وترشف حليبها بارتباك ، وفجأة ، نظرت إلى ، وقالت بهدوء :
- « إنه ليس مريضاً . . إنه لا يزال يعطى دروساً » .

التفتُ ونظرتُ إلى «كليمنز» الذى كان جالساً على الأريكة منحنيًا فوق أطلس ، نظر ساكنًا وقال :

قال لى بيزم : « إنه يجلس جوارى » .

لم أكن أعرف هذا .

قلت « هنالك أمراض لايرقد فيها الشخص فى الفراش » .

لم يقل الطفلان شيئاً ، خرجا بحقيقتيهما المدرسيتين ، وخرجت أنا للممرّ ، تابعتهما من هناك بعينيّ وهما يسيران بطيئتين في الشارع الرمادي ، كتفاهما مرخيتان قليلاً تحت ثقل الكتب ، لم أعد أرى الطفلين ، صرت أرى نفسي وحدها من فوق : فتاة صغيرة بصفائر سُقر ، تفكر في حياكة صورة ، أو تأريخ موت شارلمان . .

حين رجعت إلى نفسي كانت السيدة فرانك واقفة أمام مرآة الصلاة تسحب إشارباً بنفسجياً لتشدّه في المكان المناسب دون قبّعتها . .

كانت الأجراس تُقرّع لقداس الساعة الثامنة . قالت :

- « صباح الخير » .

وتقدمت إليّ تستقبلني بابتسامة في ظلامك الممر ، ثم راحت تسالرنى إلى غرفتنا .

قالت بلهجة ودية : « يقولون إن زوجك هجرك أخيراً ، هل صحيح ذلك ؟ » .

قلت بهدوء : « ذلك صحيح ، هو قد هجرنى » .

وعجبت من أنى لم أشعر نحوها بمزيد من الكراهية .

- « وهو يشرب ، أليس كذلك ؟ » .

وشدت «الإشارب» على عنقها الجميل .

يندر سماع صوت هناك ، لكنى كنت أسمع مناغاة رضيعنا في غرفتنا وكأنه يكلمّ قوالبه ، كما سمعت صوت مذبذب المحطة يعلن خمس ، ست ، سبع مرات ، أستطيع سماعه بوضوح في ذلك الصمت :

« إنها السابعة وتسع وثلاثون دقيقة ، لعله الوقت الذى تترك فيه زوجتك الفاتنة ، ولكن ربما لايزال بإمكانك أن تصغى إلى مارش «بلُور» الصباح البهيج . . . » .

أستطيع أن أسمع الآن موسيقى الصباح ، والبشائر الرسمية المشجعة وهى تنهى على مثل جلدات سَوط ، السيدة «فرانك» تجلس قُبالتي ، لا تتحرك ولا تتكلم ، لكنى رأيت ذلك الألق الفتاك بعينيهما ، متشوقة هى لصوت الزنجى الخشن ، والذى سمعته أنا مرة ، مرة واحدة فحسب ، وبقيت أنتظره سُدَى منذ ذلك الحين ، الصوت الخشن الذى غنى :

« . . . ولم يقل كلمة » .

قلت « وداعاً » للسيدة فرانك ، أبعدتها قليلاً عن طريقى ودخلتُ غرفتى ، لم تقل شيئاً ، حملتُ الرضيع ، ضَمَمْتُه إلى صدرى ، وسمعت السيدة فرانك تمضى إلى القدّاس .



تقف الحافلة دائماً في المكان نفسه ، والفسحة التي تتوقف فيها مملوءة بالحُفَر ، فكلما وقفت فيها أحدثت ضجة توقظني ، نهضت ونزلت منها ، وبعد عبور الشارع وجدت نفسي أمام واجهة مخزن مُعَدَّات : نظرت إلى إعلان

« سلام - جميع الأحجام - ٢٠, ٣ للعارضة » .

لم أقصد النظر إلى ساعة البناية كي أتأكد كم الوقت ، ولكنها كانت الثامنة إلا أربع دقائق - إن بدت الساعة الثامنة أو تجاوزت الثامنة ، فسأعرف أن الساعة مسرعة : الحافلة أكثر دقة في الوقت من الساعة .

أقف كل صباح لمدة أربع دقائق أمام الإعلان :

« سلام - جميع الأحجام - ٢٠, ٣ للعارضة » .

يلي الإعلان سلم ذو ثلاث عوارض ، ولأن الصيف ابتدأ ، فإلى جوار السلم امرأة شقراء بالحجم الطبيعي مصنوعة من « البايير ماشه » أو الشمع ، ممتدة على كرسيها - لا أدري أية مادة يستعملون لصناعة « المانيكانات » -

كانت المرأة تلبس نظارات شمسية وتقرأ رواية عنوانها : «استراحة من النفس» ، لم أستطع قراءة اسم المؤلف ، لأنه كان مخفياً وراء لحية عفريت من بلاستيك ينحني فوق حوض مائي ، في المخزن ، بين طواحين القهوة ومكاوى الملابس والسلم تتمدد تلك « المانيكان » الشقراء بالحجم الطبيعي ، مضطجعة على كرسي الاستراحة وهي تقرأ رواية «استراحة من النفس» .

لكن اليوم - وحين خروجي - رأيت أن إعلان «سلام كل الأحجام - ٢٠, ٣ لكل عارضة» قد اختفى ، وأن المرأة التي أمضت الصيف كله مضطجعة كل كرسي الاستراحة تقرأ «استراحة من النفس» ، ترتدى الآن بدلة ترحلق زرقاء ، وتقف على زلاّجتين ، يرفرف شعرها في الهواء ، وإلى جانبها هذا الإعلان :

فَكَثُرَ في رياضة الشتاء !

لم أفكر في رياضة الشتاء ، انعطفت إلى شارع «ملشيور» ، اشترت خمس سجائر من الكشك على يسار مكتب الأبرشية ، وسرت مجتازة البواب في الرواق ، حيّاني البواب ، هو أحد أصدقائي في هذا المكان ، يأتي إليّ أحياناً ويتفقدني في الطابق الأول ، يدخن غليوناً ويخبرني بأخر الشائعات .

أشربت برأسى للبواب ، وحييت عددًا من رجال الدين كانوا حاملين حقائبهم ويسرعون في صعود السلم .

في الطابق الأعلى ، فتحت باب غرفة البدالة ، علقْتُ سترتي وقُبعتي ، وألقيْتُ سيجارتي على المنضدة وأتبعْتُها بقطع «الخردة» أوصلْتُ الكهرباء بالبدالة ، وجلست .

شملتني السكينة بعد أن قعدت في مكان عملي : همهمة خافتة في أذني

تقول : « تبادل » حين اشتعل الضوء الأحمر ، أدار واحد في البناية أرقام هاتفه مرتين ، وتم الاتصال ، حسب قطع نقودى المرمية على المنضدة - كانت ماركاً وعشرين - اتصل البواب حين أجبني ، قلت :

« بوكتر يتكلم ، صباح الخير ، هل وصلت الصحيفة؟ » .

قال : « حتى الآن سأصعد بها إليك حالماً تأتى » .

- « إذن إلى اللقاء ... » .

- « إلى اللقاء ... » .

في الثامنة والنصف وصل التقرير الذى يُمليه «مونسينور زمر» مدير الدائرة - عبر الهاتف ، كل واحد يشعر بالاستياء من «زمر» ، حتى القسس العاملون في البناية ، والذين تحولوا من واجباتهم الرعوية إلى الإدارة ، فهو لايقول لأحد «رجاء» ، ولا يقول «شكراً» ويقشعر جسدى كلما أدار أرقام هاتفه وأجبتة ، كل صباح في الثامنة والنصف تماماً يقول :

- « مونسينور زمر » .

وسمعت « برزكن » يدلى بتقريره :

- « خرجوا مرضى : فلدرىك ، زك ، شابلين ، هوشل ، لم يقبل عذر شابلين سودن » حتى الآن » .

- « ما قضية سودن ؟ » .

- « لا فكرة يا سيدى » .

وسمعت تحسراً من «زمر» ، هو الحال كلما ورد اسم «سودن» ، كانت تلك نهاية المكاملة .

الساعة قاربت التاسعة ولم ينته ضجيج المخابرات : نداءات آتية ،
نداءات خارجة ، نداءات بعيدة على أن أتسلمها وأدخلها الخط مرة ،
وأخرى أنا أدخل على الخط ، أصغى إلى المكالمات حتى أصل إلى نتيجة أنها لم
تتجاوز المائة والخمسين كلمة ، أكثر الكلمات استعمالاً عند الناس هي :
« انتبه » ، إنها تظهر في الكلام مرة بعد أخرى ، إنها حاضرة في الكلام
العادي .

« الصحافة اليسارية هاجمت خطاب ن ، م ، انتبه » .

« الصحافة اليمينية أهملت خطاب ن ، م ، انتبه » .

« الصحافة الكنسية امتدحت خطاب ن ، م ، انتبه » .

« ارتحل سودن بدون عذر ، انتبه » .

« وبولز يواجه جمهوراً في الحادية عشرة ، انتبه » .

« ون ، م مختصر لـ : نياقة المطران » .

قضاة الطلاق يتكلمون اللاتينية حتى في الهاتف حينما يجري حوارهم عن
المهنة : دائماً أنصت وإن كنت لا أفهم كلمة واحدة ، أصواتهم رزينة ، وإن
بدا غريباً إصغائي لهم وهم يضحكون من نكات في يلقونها باللغة اللاتينية ،
غريبان هذان الرجلان : الأب بتر ، ومونسنيور سيرج ، هما الوحيدان في
المنطقة اللذان يبدیان لی ودأ ، في الحادية عشرة اتصل « زمر » بسكرتير المطران
الشخصي :

- « أقترح معارضة لغوغائية الدوائين - ولكن انتبه ، انتهاك لموكب
المنطقة إن لم يكن استهزاء به ، انتبه » .

بعد خمس دقائق ، ردّ السكرتير العام للمطران :

- « نيافته سيشارك فى المعارضة بشكل شخصى ، ابن عم لنيافته هو رئيس اتحاد الدوائيين ، انتبه » .

- « ماهى نتيجة الجمهور مع بولز ؟ » .

- « لا شىء محدد حتى الآن ، لكن أكرّر : انتبه » .

بعد قليل طلب مونسنور زمر أن أوصله بمونسنور فاينر :

- « ستة انتقلوا من الأبرشية المجاورة » .

- « كيف هم ؟ » .

- « اثنان مستقيمان ، ثلاثة ج ناقص ، أحدهما يبدو جيدًا ، هكمان عائلة عريقة » .

- « أعرفهم ، عائلة من الطراز الأول ، كيف كان الحال أمس ؟ » .

- « مربع ، المعركة مستمرة » .

- « ما هو ؟ » .

- « مستمرة ، المعركة - فى السّلطة خَل » .

- « وقد حصلت الآن . . . » .

- « اعتمد أشهرًا على الليمون ، لا يستطيع الحصول على خَل ، تحدّ مطلق » ،

- « من تعتقد وراء ذلك ؟ » .

- « ف ، » قال زمر : « أنا متأكد أنه « ف » أشعر بالانزعاج » .

- « عمل مرعب ، نعود له لاحقاً » .

- « نعم لاحقاً » .

وهكذا أُلْقِيَتْ في معركة خضتها كما يبدو من أجل قطرات خُلِّ .

حوالى الحادية عشرة وخمسين دقيقة ، اتصل « سيرج » مرة أخرى وقال :

- « بوكتر ، كيف تفضل النزول إلى المدينة ؟

- لا أستطيع الابتعاد ، سيدى »

- « معى شخص يريحك ، لمدة نصف ساعة ، إلى المصرف فقط ، وقد

شعرت بأنك تود ذلك . هنالك أوقات يود فيها المرء الابتعاد » .

- « من سيريحنى ؟ » .

- « الأنسة هانكه ، فسكربتيتى ليست هنا ، والأنسة لا تستطيع الذهاب

بسبب عجيزتها ، ما تقول فى هذا ؟ »

قلت : « حسن » .

- « هذا ما ظننته . سأصعد حالما تصل هانكه » .

وصلت الأنسة « هانكه » حالاً ، دائماً ما أشعر بهزة حين تدخل غرفتى

باهتزاز بدنها الغريب . إنها تحررتى حين أرغب فى الخروج ، لأذهب إلى

طبيب الأسنان أو لأحمل رسائل لسيرج حينما يريدنى أن « أبادل » . . الأنسة

« هانكه » طويلة القامة محنية وسمراء . مشكلة عجيزتها بدأت قبل ثلاث

سنوات ، حين كانت فى العشرين . لم أتعب قط من النظر إلى وجهها :

أنيق ، تظلله لطافة . حلمت لى زهرات أقحوان ، وضعتها فى الأصيص

بجوار النافذة قبل أن تصافحنى .

قالت : « كيف الصغار ؟ »

قلت : « بخير . . إنهم بخير » .

وارتديت سترتى .

قالت مبتسمة : « بوكنر ، شخص مارآك سكراناً . لتعرف فقط إذا أشاعها زمر » .

قلت : « شكراً » .

- « يجب ألا تشرب » .

- « أعرف » .

وسألتني متهيّبة : « وزوجتك ، كيف زوجتك ؟ »

زررت سترتى ، نظرت إليها ، وقلت :

- « أخبريني بكل شيء ، ما الذى يقولونه عن زوجتى ؟ » .

- « يقولون إنها تأمل ثانية ... » .

- « اللعنة عليهم ، زوجتى نفسها لم تعرف إلا أمس » .

- « مروج الإشاعات عرف قبل أن تعرف زوجتك » .

قلت : « آنسة هانكه ، مالذى يجرى ؟ »

تسلّمت نداءً ، أوصلت الخط ، نظرتُ إلى مبتسمةً :

- « حقيقة لا شيء ، يقولون إنك تشرب ، إن زوجتك حامل ، مع أنك منفصل عن زوجتك منذ مدة » .

- « طبعاً .. »

- « حسن هأنذا تقول . . أستطيع فقط أن أحذرك من (زمر) ، من (برسجن) ، من الأنسة (هشت) ، لكن لك أيضاً أصدقاء في الجوار ، لك أصدقاء أكثر مما لك من أعداء » .

- « لا أصدق ذلك »

قالت : « ذلك أمر حقيقى ، وبخاصة بين الكرادلة ، كلهم تقريباً يحبونك ، » ابتسمت ثانية ، « الطيور على أشكالها تقع ، كما تعرف ، ولست الوحيد الذى يشرب . »

ضحكت : « أخبرينى بشيء واحد آخر فحسب : من الذى اغتال (زمر) اغتيالاً بطيئاً بقطرات من خل ؟ »

ضحكت مندهشة : « ألا تعرف ! »

- « حقيقة لا أعرف » .

- « يا إلهنا الطيب ! نصف المحيطين بالأبرشية يضحكون من ذلك ، وأنت ، الجالس فى مركز كل الشائعات ، لاتدرى ! حسن : إنه « وب » ، ديكون وب ، له أخت مسئولة عن مطبخ فى دير وشاح العذراء الأزرق ، هل من حاجة لأن أقول أكثر ؟ »

قلت : « استمرى ، فليس لى مايدلنى » .

- « زمر منع وب من أن يصبح مطران . بدأ القصاص : خمسون فينيكاً لقينة خل ، أخرجت من زاوية خفية فى المطبخ فى دير وشاح العذراء الأزرق لحظة ظهر فيها (زمر) لتناول وجبته . لكن أسرع أنت الآن ، سيرج فى انتظارك » .

أشرتُ لها برأسى وغادرت المكان . كلما حدثتُ الأنسة هانكه ، امتلأتُ بسرور غريب . إن لها موهبة جعل الأشياء تفقد ثقلها . وبنظرتها النافذة تحيل الأمور إلى لعبة صالةٍ تتمنى التمتع بها .

نُصِبَ باروكية مثبتة في جدران الممر . هذا الممر المغسول جيداً ، والذي يقود إلى مكتب سيرج . سيرج جالس في مكتبه ، رأسه على يده . لا يزال رجلاً شاباً ، أصغر منى بوضع سنوات ، وله أهميته في القانون الشرعى .

قال : « صباح الخير يا سيد بوكتر » .

قلت : « صباح الخير » .

وسرت إليه ، فصافحنى .

وحين رأيته بعد أيام من إقراضى النقود جعلنى أشعر بأنه قد نسى أمرها . تلك هى مزيته . ولعله نسيها فعلاً . مكتبه واحد من المكاتب القليلة التى لم تُدمر . وتحفته مدفئة ذات زخرفة باروكية في زاوية مكتبه . هذه التحفة يشير لها دليل التُحف الفنية . لم توقد هذه المدفئة لأن الأمير الناخب قضى الشتاءات الماضية في قصر آخر أصغر من هذا . سلّمنى سيرج بضعة شيكاتٍ وظرفاً فيه أوراق نقدية .

قال : « هنالك اثنان وستون ماركاً وثمانية فينيكات . رجائى إيداع الشيكات والنقد في حسابنا ، أنت تعرف رقم الحساب » .

- « سأفعل » .

قال : « أنا سعيد بالتخلص منها . ولحسن الحظ سيعود ، فتش بعد غد وسأعيد له كل هذه العوائد » .

حَدَّقَ فِيَّ بعينه الواسعتين الهادئتين ، وأحسست بأنه يتوقع منى الحديث عن زواجى . صحيح أنه قد يكون قادراً على إسداء نصيحة ، كما هو أمر طبيعى أن تكون لموضوعى عنده أوليات ممتعة . أرى فى وجهه رقة وذكاء ، أود الحديث معه ، لكننى لا أستطيع أن أقرب إليه . أفكر أحياناً ، أنى سأحدث إلى قيس رث الثياب ، وحتى أنى سأعترف إليه . لكنى أعلم أيضاً أن لا لوم على أحد بسبب نظافته أو حبه للنظافة ، إذن فسيرج الذى أعرف طبيته هو آخر شخص يمكن أن ألومه على ذلك ، ومع هذا ، فإن بياض ياقته الناصع ، والطريقة المتقنة التى تظهر فيها الحافة البنفسجية وراء غفّارته ، ذلك كله لم يشجعنى على الحديث إليه .

وضعت الشيكات والنقود فى جيب سترتى الداخلى ، نظرت إليه ثانية ، ووجدت نفسى أواصل النظر فى العينين الواسعتين الهادئتين اللتين بدتا هما أيضاً لا تغادران وجهى . أحسست به وكأنه يريد أن يقدم لى عوناً . إنه يعرف كل شىء ، إنه لن يفتح الحديث عن الموضوع . رددت على نظرتة حتى راح ببطء يبتسم ، فسألته فجأة سؤالاً بقيت سنوات أريد أن أسأله لُقْس :

- « هل تعتقد يا سيدى بأن الموتى سينهضون ثانية ؟ »

تابعت وجهه الوسيم النظيف بدقة ، وظلت عيناى تلازمان وجهه بحرص ، فما تغيرت ملامحه ، وقال لى بهدوء :

- « أجل ! » .

- « وهل تعتقد فى ذلك ؟ » .

مضيت بأسئلتى ، لكنه قاطعنى إذ رفع يده ، وقال بهدوء :

« أعتقد في كل شيء تريد أن تسألني عنه ، وإلا خلعت هذا الجلباب في الحال وطلقت شريعتي ، تاركاً كل هذا الكوم ورائي » .

وأشار إلى حشد من الملفات على مكتبه .

- « لكنت أحرقت هذه الملفات ، لأنها عندئذ ستكون لا معنى لها عندي ، ولا عند أولئك الذين يعذبون أنفسهم بسبب ذلك الاعتقاد نفسه »

قلت : « اغفر لي »

« أوه ، من أجل ماذا ؟ » قالها بهدوء وأكمل :

« أعتقد بأن حقك في أن تسألني أكثر من حقى في أن أسألك » .

قلت : « لا تسألني »

قال : « لا أفعل ، ولكنك ستتكلم يوماً ، أليس كذلك ؟ »

قلت : « نعم ، يوماً ما سأتكلم » .

تناولت الصحيفة من البواب ، حسبت نفودي مرة أخرى خارج المدخل ، وسرت في البلدة مُبْطِئاً ، فكرت في أشياء كثيرة : في الأطفال ، بكيت بما أخبرني به « سيرج » ، والآنسة « هانكه » . كلهم كانوا على حق ، وأنا المخطيء ، لكن ما عرف أحد منهم ، ولا حتى « كيت » كم كنت مشتاقاً لأطفالي ، ولكيت أيضاً ، وكيف كانت تمر بي لحظات أعتقد فيها بأنى على صواب وكل الآخرين مخطئون ، لأنهم جميعاً يستطيعون التعبير جيداً عن أنفسهم ، وأنا الذى لا أستطيع العثور على الكلمات .

فكرت إن كنتُ أقدر أن أشتري لنفسى كوباً من القهوة وأقرأ صحيفة . ولفنى ضجيج الشارع وإن كنت أمضى باستقامة بين الأصوات - شخص

كان يبيع موزاً ، ينادى عليه . توقفت أمام واجهة بونبرج ، تطلعت إلى المعاطف المعلقة ، إلى وجوه « المانيكانات » التى تفزعنى دائماً . حسبت الشيكات التى فى جيب سترتى الداخلى ، تأكدت من أن الظرف وما يحويه من نقد لا يزال فى مكانه ، وفجأة وقع نظرى على الأركاديا التى تقسم واجهات بونبرج : رأيت امرأة فلامس مرآها قلبى ، وأثارنى .

المرأة لم تعد شابة ، لكنها جميلة ، رأيت ساقىها ، تنورتها الخضراء ، رثاءة « جاكيتها » البنى رأيت قبعتها الخضراء ، ورأيت فوق كل هذا ، جانب وجهها ، ملاحظها الناعمة الحزينة ، ولدقيقة أو أكثر ، لا أدرى كم من الوقت - توقفت قلبى ؛ رأيت ، خلال الزجاج أنها كانت تنظر إلى الملابس ، وهى فى الوقت نفسه تفكر فى شىء آخر .

شعرت بقلبى يخفق ثانية ، ما زلت أرى جانب وجه المرأة ، وفجأة عرفت أنها « كيت » . مرة أخرى بدت غريبةً علىّ ، لبضع لحظات أبحرت فى الشك ، شعرت بحرارة تجتاحنى وظننتنى سأجنُّ لكنها الآن واصلت مشيتها ، تبعتها ببطء ، وحين رأيتها بدون زجاج ، عرفت أنها « كيت » حقيقةً .

لقد كانت « كيت » ، لكنها « كيت » أخرى ، مختلفة تماماً عن تلك التى عرفت وأنا أتابعها طول الشارع ، ما زالت تبدو لى غريبة وقريبة فى آن واحد . هى زوجتى التى أمضيت معها الليل كله ، التى كنت متزوجها لخمس عشرة سنة .

فكرت : « ربما أنا فى طريقى إلى الجنون فعلاً » .

فزعت حين دخلت « كيت » إلى المخزن ، توقفتُ إلى جانب عربة

خضار، أراقب مدخل المخزن ، وبعيداً ورائي ، وكما لو كان يناديني من منطقة أخرى ، سمعت الرجل الذى يقف ورائي مباشرة يصيح :

- « قرنييط ، قرنييط ! اثنان ببارك ! » .

وإن كان ذلك غير معقول ، فقد كنت خائفاً من أن « كيت » لن تخرج من المخزن ثانية : راقبت المدخل ، تفرّست في الوجه المكشّر لذلك الجاوى المصنوع من كارتون وهو يحمل كوب قهوة إلى أسنانه الساطعة وسمعتُ صوت بائع الخضار كأنه يصل إلى من كهف عميق :

- قرنييط ، قرنييط ! اثنان ببارك ! .

وفكرت في أشياء كثيرة جداً لا أعرف الآن ما هي ، ارتعت لرؤية « كيت » وهى تخرج من المخزن . سارت قدماً في شارع « كرون » مشّت بسرعة جداً ، لكنها توقفت بعد ذلك أمام واجهة مخزن دُمى ، كنت أستطيع مراقبتها ، أستطيع رؤية جانب وجهها الحزين ، رأيت قامتها ، تلك التى تمدّدت إلى جانبي في الليل سنوات عديدة ، تلك التى رأيت قبل أربع ساعات فحسب ولم أميزها ، حين استدارت ، خطواتٌ بسرعة وراء منصة بائع متجول ، فتمكنتُ من رؤيتها بدون أن ترانى . نظرتُ في حقيبة تسوّقها ، سحبْتُ قطعة ورق ، قرأتها ، إلى جانبي كان الرجل يصيح :

- « إذا توقفتُم عن التفكير ، ياسادة ، يَحْلُقِ لِحَاكُمُ لمدة خمسين سنة ، نعم خمسين سنة ، فإن بشرتكم ...

لكن « كيت » واصلت سيرها ، ولم أسمع نهاية كلام البائع الجوّال . . تبعْتُ زوجتى ، ورأيتها من بُعد خمسين خطوة اجتازت خطوط الترام التى تلتقى في ميدان « بلدونر » . توقفت « كيت » وعند منصة بيع زهور ، رأيت

يديها ، يدي المرأة التى ارتبطتُ بها ارتباطاً حميماً أكثر من أى إنسانٍ آخر على وجه الأرض ، التى مانت معها فحسب ، وأكلت وتحدثت أكثر من عشر سنوات مستمرة ، لكن هنالك شيئاً آخر يربطنى بها أكثر من النوم معاً ؛ كان هنالك وقت صليّنا فيه معاً .

اشتريت بعض الأزهار الصفراء والبيضاء ، واستمرت بطيئة في سيرها ، جد بطيئة ، هى التى كانت تمشى مسرعة جداً ، أعرف فيمَ تفكر . تقول دائماً أشتري الأزهار التى تنبت في المروج ، حيث لا يلعب أولادنا أبداً .

وهكذا سرنا ، الوجد وراء الآخر ، كلانا يفكر في الأطفال ، وما امتلكتُ تلك الأصوات من حولى . بعيدة واهنة ، صوت مذياع المحطة رتيباً يطن في أذنى وهو يعلن في مكبر الصوت :

- « نرجو الانتباه ! ترام خاص على خط (هـ) إلى معرض الدوائيين - نرجو الانتباه ! ترام خاص على خط (هـ) ... » .

مضيت وراء « كيت » مثلما أسبح في ماء رمادى ، لم أعد أستطيع حساب دقائق قلبى ، وفزعت مرة أخرى حين دخلت « كيت » كنيسة الدير وأغلقت وراءها الباب الأسود المبطن بالجلد . إذا ذاك انتبهت إلى أن السيجارة التى أشعلتها حين مررت بالبواب أنا فى طريقى من مكتب الأبرشية لا تزال متقدة . رميتها ، فتحت باب الكنيسة ، سمعت أنغام الأورغن ، فتراجعت ، سرتُ عبر الميدان ، جلستُ على مصطبة ، وانتظرت .

انتظرتُ وقتاً طويلاً ، حاولت أن أتخيل ما كان فى الصباح ، حينما ركبت « كيت فى الحافلة ، لكن لم أستطع تصوّر شيء - شعرت بالضيق ، هائماً

أطفو على مجرى لانهاية له ، والشئ الوحيد الذى استطعت رؤيته هو الباب الأسود للكنيسة والذى ستخرج منه كيت .

حين جاءت فعلاً ، لم أثبت من أنها هى ، كانت تسير أسرع ، وقد وضعت الأزهار الكبيرة ، طويلة السيقان بين مقبضى حقيبتها ، وكان على الإسراع للحاق بها وهى تمشى منزلة عبر ميدان « بلدونر » عائدة إلى شارع كرون : الأزهار تهتز وفق إيقاع خطواتها ، أحسست بتعرق راحتي ، وبدوار قليل ، فى حين طفح قلبى بخفق كثير موجه .

توقفت أمام واجهة « بونبرج » وتسرلى وقت لأتسلل بين « الأركايا » ، فصرت أراها واقفة حيث كنت واقفاً أنا . رأيته لطيفة ، حزينه الملامح ، تابعت قوامها يعلو على المعاطف الرجالية المعلقة ، وكلما تأرجحت واجهة « بونبرج » الثقيلة ، سمعت مكبرة الصوت من الداخل :

- « ستر ؟ فى بونبرج ! قبعات ؟ فى بونبرج ! بدلات ! فى بونبرج ! لقبة أو جاكيت ، لسترة أو رباط ، بونبرج ! أفضل شراء لك فى بونبرج ! » .

استدارت « كيت » وعبرت الشارع ، وقفت عند كشك مرطبات ، ومرة أخرى رأيت يديها الصغيرتين تدفعان نقوداً عبر المنضدة ، تلتقط الباقي وتبعه فى محفظتها حركات صغيرة أعرفها ، تسبب لقلبي الآن ألماً كبيراً سكبت عصير الليمون فى قدح ، شربته ، ومن داخل من المخزن جاء الصوت :

- « ستر ؟ فى بونبرج ! قبعات ؟ فى بونبرج ! بدلات ؟ فى بونبرج ! لقبة أو جاكيت ، لسترة أو رباط ، بونبرج ! أفضل شراء لك فى بونبرج ! »

ببطء دفعت القنينة ، وبعدها القدح ، رفعت الأزهار بيدها اليمنى ،

ومرة أخرى رأيته تغادر ، إنها زوجتي التي عانقتها عددًا لا يحصى من
المرات بدون أن أستوعبها .

سارت مسرعة ، بدت على قلبي ، بقيت تُعاود النظر إلى وراء ، وأنا كدت
أعود ، أنحن ، شعرت بوجع حينما اختفت قبعته لحظة ، وحينما توجهت
إلى موقف الترام (رقم ١٢) في شارع « جيرستن » لُذْتُ أنا في حانة في الجهة
الأخرى من موقف الترام .

قلت لصاحب الحانة ذي الوجه الأحمر المستدير :

- « شنابز »

- « كبير ؟ »

- « نعم » .

وأيت على كأس الشنابز الكبير . نظر إلى صاحب الحانة نظرة طويلة ،
وقال :

- « أترغب في واحد آخر ؟ »

- « كلا ، شكرًا ، كم ؟ »

- « ثمانية فينيكات . »

وضعت ماركًا ، وبدأ بطيئًا يعد لي عشرين فينيكًا ، وما زالت عيناه
مسلطتين عليّ . وعلى طول شارع « جيرستن » ، عبر ميدان « ممتلكه »
عدت أخطو إلى مكتب الأبرشية ، بدون معرفة لما سأفعله .

اجتزت البواب في الممر الأبيض النظيف مارًا بالتماثيل الباروكية ، طرقتُ
على باب « سيرج » وإذ لم يجبني أحد ، دخلت :

- « حسن يا بوكتر ، لقد عدت سريعاً ! » .

- « سريعاً ؟ » .

أجبتة دون أن ألتفت .

« نعم » .

وضحك : « ما كادت تمر عشرون دقيقة . » .

ثم توقّف قبّالتي ونظر إلى ، وكنت أرى من سبها وجهه ما قد جرى في ذهنه ، رأيت ذلك كله إنها يقظة عريضة ، ومن وجهه يمكن أن أقول إن أولى أفكاره كانت عن النقود ، قد ظن أن شيئاً ما حدث لنقود . رأيت ذلك في وجهه .

قال لي بهدوء : « بوكتر ، أنت مريض ، أم سكران ؟ » . سحببت الشيكات من جيبى ، الظرف وفيه الأوراق النقدية ، قدمتها لسيرج ، أخذها منى وبدون أن ينظر إليها وضعها على مكتبه .

قال : « بوكتر ، قل لي ماذا حدث ؟ »

قلت : « لا شيء ، لم يحدث شيء » .

- « هل تشعر بمرض ؟ »

- « كلا إنى أفكر في شيء ، لقد تذكرت الآن شيئاً » .

ورأيت كل شيء وراء عيني « سيرج » النظيفتين ، رأيت « كيت » زوجتى ، سمعت شخصاً يصيح : « ستر » رأيت « كيت » مرة أخرى ، شارع كرون بطوله ، رأيت رثاءة جاكيتها البنى ، سمعت شخصاً ما يعلن عن ترام خاص على الخط (هـ) إلى معرض الدوائيين ، رأيت باب الكنيسة

الأسود ، رأيت أزهار المارجريتا طويلة السيقان مهيأة لقبرئى طفليّ ،
وشخصاً يصيح : قربيظ ! « رأيت ، سمعت كل شيء مرة أخرى ، رأيت
« كيت » حزينة ناعمة الملمح ، رأيت كل شيء خلال وجه « سيرج » . حين
مضى مبتعداً عنى ، رأيت الحائط الأبيض فوق المدفأة المزخرفة التى لم توقد
قط : تمثال من كارتون لجاوى يحمل كوباً من القهوة لأسنانه البيض الساطعة

كان سيرج يتحدث فى الهاتف :

- « سيارة ، أرسل سيارة فى الحال . »

ثم رأيت وجهه متجهاً إلى مرة أخرى ، وأحسست بنقود فى يدي . نظرت
إليها : قطعة فئة خمسة ماركات لأمعة .

وقال سيرج :

- « يجب أن تمضى إلى بيتك » .

- « نعم ، بيتى » .



هاينرش بل Heinrich Böll وهذه الرواية :

فى السادس عشر من تموز ١٩٨٥ توفى الكاتب الألمانى هاينرش بل ،
حامل جائزة نوبل لسنة ١٩٧٢ ، وكانت آخر رواية نشرت لهذا الكاتب هى
روايته المعروفة « نساء أمام منظر نهري » .

الحسنة العظيمة لهذا الكتاب ذى الطبع الرقيق والأسى الإنسانى هى أنه
يرسم شخصيات لا تفارق الذاكرة، وتظل مثل بعض ممن تحبهم أو تريد أن
تُعين فى روايتنا هذه - ولم يقل كلمة - نظل نتذكر « بوكسر » إنساناً بسيطاً
ومُتُحَنّاً ، ونظل نتذكر السيدة - الأم « كيت » . ولا ننسى الشخصيات التى
التقيا بها فى السكن أو فى الطريق ، وشخصياته فى رواياته الكبرى الأخرى :
« بيت بلا حراس » ، أو « بيت دون حراسة » ، و« بليارد فى التاسعة
والنصف » ، و « أين كنت يا آدم ؟ » ، و « صورة جماعية مع سيدة » ،
و« المهرج » ، و « خبز السنوات الأولى » . . . هى شخصيات يذكرها جيداً من
التقى بها فى كتبه . . فكما نتذكر كيت ، وبوكسر ، وسيرج ، وفتاة المطعم
الصغير ، والأبله فى روايتنا التى نقدمها اليوم ، نتذكر جيداً آدم فى أين كنت
يا آدم ؟ ، ولينى فى صورة جماعية مع سيدة ، وشنر فى المهرج ، وهيدفيك فى
خبز السنوات الأولى .

حين انتهيت من قراءة المهرج "The Clown" وهى فى الألمانية "نظرات مهرج Ensichten eines Clowns" وقرأت "ولم يقل كلمة And Never Said a word" وجدتني أمام محبة خاصة أسعد إذ أجدها فى الكتابة ، ووجدتني أمام رقة وخصب إنسانيين نحتاج إليهما فى الحياة . لم أجد فى كتابته كراهة شديدة ، لم أجد ثأراً موجعاً ، لم أجد عبارة قاطعة . . بل وجدت ابتساماً هادئاً ، وألماً هادئاً ، ورفضاً هادئاً ، ومحبة مديدة هادئة ، دون أن يفقد صرامة الحكمة أمام الخطأ . . فأى توازن فى شخصية هذا الكاتب النبيل ! وأية قوة إيمان لا تستدرجها أو تغريها صغائر الحياة وموضوعاتها العابرة ! لا يكتب إلا عن شئ يؤمن بجذواه وخيره . إنه واعظ مثلما هو مبدع ، وإنه « مرجع » كما وُصف حين أريد وصفه .

وُلد « بُل » فى « كولون » فى ١ أيلول عام ١٩١٧ . كان كاثوليكيّاً من « كولون » ، ولكنه كان ينظر للكنيسة من بُعدٍ صافٍ وفهمٍ خاص . وهكذا ظل حتى مات . ففزعت لموته جماهير ، وأدباء ورجال سياسة ، وأنصار سلام ، وقراء ، ورجال دين . . فما كان المبدع الذى توفى كاتب روايات ، ولا كاتب مقالة ، أو مترجماً يحمل شارة شرف ، ولكنه - كما وصفه فرانز جوزف كورتز - : إن لم يكن سُلطة فهو ضمير الأمة الذى لا يموت ، وبُعد أخلاقى ، حتى فى نظر أولئك الذين لا يشاركونه مواقفه السياسية ... » .

وقال عنه الناقد الألماني فريتس رادتس Fritz Raddatz :

« فى كتب بُل دائماً شئ ينفع الناس . فقد جعل لهم اللغة قابلةً للسكنى . والتطابق النادر بين هويته المؤلف وأعماله أمر يتخطى التجربة اللسانية الذوقية ، إذ إن أعمال « بُل » حافظت دوماً على التوازن بين ما يؤمله القارئ من تخيل منظارى وما يقدمه المبدع ... لقد اعترف لـ « بُل » بدور

الإخبارى الناقد الذى يؤرخ وقائع الجمهورية الاتحادية ، وبدور المراسل من بلد الجوع وإعادة البناء ، بل المعجزة الاقتصادية وإعادة التسليح ، وأخيراً بلد قاعدة « البرشنغ - التى تظاهر ضدها فى موتلاغن هذا الحامل لجائزة نوبل . . لقد كان «هاينرش بل» بلزأك الجمهورية الألمانية الثانية . فكما أن ذاك رسم مجتمع الجشع فى مملكة البرجوازية ، فإن «بل» أخرج لنا الرقصة الهائلة لعمالقة التكالب على الإثراء بعد الحرب العالمية الثانية ... » .

«هذا هو المفهوم الأصلح لفن «هاينرش بل» ، إنه نُحْرَجُ . إنه لا ينجزع ، بل يجد . إن مادته مركبةٌ مما هو موجود أو مُتَذَكَّر . رواياته تحيا من حافر معين . وذلك ليس بحثاً عن الزمن الضائع ، بل عن الزمن المخون ، الزمن : إنه مافعلنا ... » .

هكذا اتضح المشهد الآن . . الإشارة الواضحة هى الرواية الآن ، أو هى وثيقة الإدانة أو الكشف الحزين لما يجرى . بمحبة موجعة يكتب مثل هذا «بل» .

لقد اخترنا من أعماله مثلاً ، اخترنا هذه الرواية لأنها حميمة ، ولأنها مثلاً قريب واضح الخطاب ، ويرسم بشكل جميل ومحدد ما كان يجرى . . ليست استثناء ، فقد تحدث «بل» فى كل رواياته عن الناس ، تحدث عنهم فى ألمانيا بعد الحرب وتحدث عنهم فى غيرها ، ولم يكن له مكان واحد يؤثر اختيار نهاذجه منه ، لأنه أصلاً لم يختَر نهاذج ، وإنما وجد ناساً وتحدث عنهم وهم يواجهون النتائج الصعبة مثلما يجهدون للخلاص من أسباب نتائج أخرى تستجد . لقد كانوا يعانون من « السباحة فى ماء رمادى » . . كل هذا وإنسانيتهم معهم : يحبون ويشتاقون ويتمنون ، وإذ يضحكون فنادراً ،

وبخفوت ، وإبتساماتهم لا تكاد تظهر حتى تختفى . الهَمُّ في أرواحهم
وعلى الوجوه .

ولا نعلم إن كانت روايات «بُل» ستُقرأ في القرن القادم ، ولكن مادام
هنالك أدب ألماني فسَيُذكرُ « هاينرش بُل » بالاحترام والتقدير .

ياسين طه حافظ



عربية للطباعة والنشر

١٠، ٧ شارع السلام، أرض اللواء المهتمسين

تليفون : ٣٠٣١٠٤٣ - ٣٠٣١٠٩٨

اللا أخلاقى .. أندريه جيد
العجوز والبحر .. أرنست هيمنجواي
الأم الكبيرة .. جابريل جارسيا ماركيز
صحراء الحب .. فرانسوا مورياك
شعب يوليو .. نادين جورديمر
أمير الذباب .. وليام جولدوينج
أنطوانيت .. رومان رولان
الغريب .. ألبيركامى
أحلام الناي .. هيرمان هسه
الأم .. جراتسيا ديليدا
ولم يقل كلمة .. هاينرش بل
مراعى الفردوس .. جون شتاينبك
مغامرات نلز العجيب .. سلمى لاجرلوف
رياح الشرق ورياح الغرب .. بيرل باك
الآلهة عطشى .. أناطول فرانس

الدار المصرية اللبنانية

